

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر - 2 -

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العلاقات السياسية والفكرية بين الدولة المرينية
ودولة المماليك خلال القرنين 7-8هـ/13-14م

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

إشراف أ. الدكتور:

نبيلة عبد الشكور

إعداد الطالب:

زبير سالي

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د/	حاج عيفة	رئيسا
أ.د/	نبيلة عبد الشكور	مشرفا ومقررا
د/	عبد الحميد خالدي	عضوا
د/	محمد الشريف سيدي موسى	عضوا

السنة الجامعية

1439هـ - 1440هـ / 2018م - 2019م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر - 2 -

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العلاقات السياسية والفكرية بين الدولة المرينية
ودولة المماليك خلال القرنين 7-8هـ/13-14م

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

إشراف أ. الدكتورة:

نبيلة عبد الشكور

إعداد الطالب:

زبير سالي

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د/	حاج عيفة	رئيسا
أ.د/	نبيلة عبد الشكور	مشرفا ومقررا
د/	عبد الحميد خالدي	عضوا
د/	محمد الشريف سيدي موسى	عضوا

السنة الجامعية

1439هـ - 1440هـ / 2018م - 2019م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

قال الله تعالى:

" ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و على والدي و أن
أعمل صالحا ترضاه و أدخلني برحمتك في عبائك الصالحين "

أتقدم بداية بالشكر و الحمد والثناء على الله تعالى الذي وفقني لإتمام هذا
العمل المتواضع

ثم أثنى بالشكر الجزيل إلى الأستاذة المشرفة الأستاذة " نبيلة عبد
الشكور" التي عرفتني إنسانة قبل أن أعرفها متعمدة لهذا العمل.

كما لا يفوتني أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة الموقرة الذين يعملون على
سد الثغرات وتصويب الزلات، فلهم مني خالص تحيات التقدير والامتنان.

إلى كل من قدم لي يد المساعدة في إنجاز هذا العمل.

الإهداء

إلى أغلى ما في الوجود، الوالدين الكريمين حفظهما الله
إلى كل فرد من أفراد أسرتي الحبيبة والتي كانت دعم السند
إلى أصدقائي الذين عرفتهم في مساري التعليمي وبحثوا في روح الاطلاع
والبحث
إلى من عرفته عن قرب من أصحاب وخلاان وقاسمني حلو الأيام ومرّها .
إلى زملائي طلبة التاريخ بمختلف جامعات الوطن
إلى حبي الأزلي و الأبدى الجزائر و إلى كل غيور على هذا الوطن
إلى "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
إيماناً وقالوا حسبنا الله و نعم الوكيل "
إلى أهل قطاع غزة المرابطين المجاهدين

مقدمة

إنّ العلاقات بين بني مرين والمماليك تعدّ حلقة من سلسلة العلاقات المغربية الشرقية، والتي استندت في أصلها إلى عصور تاريخية قديمة، انطلاقاً من الجوار الجغرافي والامتداد الإنساني والاشتراك التاريخي، ليعمل الفتح الإسلامي بعد هذا على شدّ أواصر هذه العلاقات، حيث أصبح الجزء المغربي جزءاً لا يتجزأ من المشرق بفضل الخلافة الإسلامية ابتداءً، وصولاً إلى الصّدى المذهبي والفكري الذي غدّته الهجرة العربية من المشرق نحو المغرب، لذا تعدّ العلاقات بين الدولتين المرينية والمملوكية محصّلة هذه الصّلات، وأبرزها ارتباطاً وأقواها متانة وتميّزاً منذ أقدم العصور.

كما شهدت فترة القرن السّابع الهجري / 13م وما والاها، تطورات هامة في تاريخ الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً، إذ ارتبطت الفترة باشتداد العدوان على الأراضي الإسلامية قاطبة، انطلاقاً من حروب الإسترداد بقيادة الممالك النّصرانية على الحواضر الأندلسية، وصولاً إلى ال عدوان الصّليبي والمغولي على المشرق الإسلامي، كما عرفت الفترة في ذات الوقت صراعاً داخلياً بين مختلف الدّول، والتي لعبت دوراً في تناحر الدّاخِل الإسلامي، إذ حاولت كل واحدة منها التّوسع على حساب دول الجوار، الأمر الذي أفرز لنا دولاً تحمل مشاريع توحيدية، وهو الشاهد الذي يمثل لنا دولتي المرينيين والمماليك في هذه الفترة، باعتبارهما صاحبتى مشروع توحيدي لنطاقي العالم الإسلامي.

في هذا الإطار يندرج موضوع هذه الرسالة المعنونة بـ: " العلاقات السّياسية والفكرية بين

الدولة المرينية ودولة المماليك بين القرنين 7-8هـ / 13-14م".

ويكتسي الموضوع أهمية بالغة انطلاقاً من كونه موضوعاً محورياً يستعرض مشاهد سياسية مهمة في تاريخ هذين المجالين الجغرافيين المهمّين من العالم الإسلامي، واستطاعت هذين الدولتين انعاش واقع إعادة الاعتبار للأراضي الإسلامية، بفضل قوّتهما الإقليمية، ومشروعهما في التّصدي للأخطار الخارجية، ثم إنّ التعاون المريني المملوكي كان بارزاً في التصدي للعدوان الصّليبي، كونها تعدّ علاقات تواصل وترابط، تميّزت عن باقي أقطار المغرب الإسلامي الأخرى، وهو ما سنستعرضه في طيّات هذه الدّراسة.

أمّا عن أسباب اختيار الموضوع، فهي تستند إلى دوافع موضوعية وأخرى ذاتية، فللعامل الأول كان الدافع منه تغطية ودراسة حقبة تاريخية مهمة من تاريخ العلاقات المغربية الشرقية، والعناية بالتعاون الإسلامي- الإسلامي، كما كان للموضوع أثر في فهم جوانب متعددة من الحلقات التاريخية الأخرى، كالعلاقات بين الشرق والغرب، وبداية اختلال الموازين بين هذين العالمين، بالرغم من وقوف الدّراسة على الحياة الثقافية المزدهرة التي كان للأمرء والسلاطين وعائلات الأوقاف الدّور الكبير في بعثها والدّفع بحركيتها، أمّا العوامل الدّاتية فهي بدورها لا تقلّ شأنًا عن العوامل الأولى، حيث تعدّ تلبية لرغبة كامنة في الوجدان، بإبراز الدّور

الذي لعبه المغرب الإسلامي إجمالاً في كتابة تاريخ العالم الإسلامي، ومحاولة لإثبات الذات لكيثونة أقطار بلاد المغرب ككيان مواز لنظرائهم في المشرق، على الصعيدين السياسي والثقافي.

وانطلاقاً من هذا الموضوع ارتسمت لدي الإشكالية التالية:

- ما طبيعة العلاقات التي سادت بين بني مرين والمماليك خلال الفترة الممتدة من القرن السابع الهجري/13م وما والاها على الصعيدين السياسي والثقافي؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية جملة من التساؤلات أجمّلها كما يلي:

- ما طبيعة العلاقات السياسية بين المرينيين والمماليك؟
- ما دور الرحلة والعلماء في توطيد العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق؟
- بما تميّز الواقع الثقافي للدولة المرينية ودولة المماليك خلال الفترة المدروسة؟

ولإجابة عن هذه التساؤلات ومعالجة إشكالية البحث، اتّبعنا خطة مكونة من مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة، بالإضافة إلى الملاحق التي تعزّز الموضوع.

فبعد التّقديم، تعرّضت في المدخل إلى جملة العوامل التي عزّزت من شدّة أواصر العلاقات السياسية، والتي تعدّ جملة العوامل التي كانت دافعا لإنشاء هذه العلاقات والروابط المتينة بين القطرين.

في الفصل الأول المعنون بـ: **الواقع السياسي للدولتين المرينية والمملوكية** ، خصّصت الجزء الأول منه لاستعراض الواقع السياسي للدولة المرينية، بما فيه من تعريف للدولة وظروف قيامها على مسرح الأحداث السياسية ببلاد المغرب الإسلامي، كما خصّص بالموازاة الجزء الثاني للحديث عن الواقع السياسي للدولة المملوكية بالمشرق الإسلامي، وظروف قيامها أيضاً.

أما الفصل الثاني فحمل عنوان: **مظاهر العلاقات السياسية بين بني مرين والمماليك**، كان الدخول مباشراً إلى لبّ موضوع الرسالة في شقّها الأول ، وقفت فيه على أهم مظاهر هذه العلاقات كانتداب السفارات والوفود من قبل الطرفين، والسبل والآليات التي نسجت العلاقات.

كما استعرضت في الفصل الثالث والذي أخذ عنوان: **الأوضاع الثقافية في الدولتين المرينية والمملوكية** ، فأفرد لتوطئة الشق الثاني من موضوع الرسالة، وهو الروابط الثقافية بين الدولتين، تعرّضت فيه إلى عوامل ازدهار الحياة الثقافية بالتّطابقين الجغرافيين، انطلاقاً من مساهمة الحكّام في ازدهارها من خلال الجرايات وإنشاء المؤسسات التعليمية والثقافية، وأصناف العلوم وأشهر العلماء في الدولتين.

أمّا عن خاتمة الفصول - وهو الفصل الرابع - فعنوانه بـ: **مظاهر الروابط الفكرية بين المرينيين والمماليك**، فقد خصّ لذكر أبرز مظاهر التواصل الثقافي بين بلاد المغرب الأقصى وبلاد المشرق، وما خلفته اللقاءات المتكررة بين العلماء من تبادل للعلوم والتصانيف، وما حدث بينهم من مناظرات وتبادل للإجازات، وكذلك انتقال التيارات الفكرية، والمذاهب الفقهية والطرق الصوفية ونمط التعليم في المؤسسات التعليمية.

وختمت الرسالة بخاتمة هي عبارة عن استنتاجات عامة حول موضوع البحث، كما دعمته مجموعة من الملاحق هي عبارة عن نصوص ومراسلات التي تم تبادلها بين حكام بنو مرين ودولة المماليك، وخرائط تتعلق بالحدود السياسية للكيانات المغاربية والدولة المملوكية وخط الرحلة وأبرز مسالكها .

وقد اتبعت منهجا تاريخيا يقوم على جمع المادة العلمية من مصادرها ومحاولة اسنطاقها واستخراج ما أمكن من المعلومات التي تخدم موضوع الدراسة، واستعنت بالمنهج الوصفي الذي يستعرض لنا المواقف السياسية بين الدولتين، وكذا طبيعة الإنتاج الفكري بين المغرب والمشرق، كما استعملته للتعرف على نماذج وعينات العلماء المرتحلين بين الحواضر المغربية والمشرقية والمناهج المتبعة في التدريس طيلة الفترة المدروسة.

❖ الدراسة البيليوغرافية:

إن معالجة موضوع محوري يزواج بين تاريخ المشرق والمغرب، لابدّ فيه من الاعتماد على مجموعة من المؤلفات التي عنت بالموضوع بمختلف أصنافها، سواء كتب التاريخ العام أو ما كان مخصوصا بالتاريخ المريني أو المملوكي، بالإضافة إلى كتب التراجم والطبقات والمناقب، ومصنّفات الرّحالة والجغرافيين على أنّ المؤلفات تفاوتت من حيث الأهمية العلمية.

أولا - المصادر المغربية:

- كتاب " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " لأبي الحسن علي بن عبد الله المعروف بابن أبي الزرع الفاسي (ت 741هـ/1340م)، حيث يعدّ هذا المؤلف مهماّ جدا في تاريخ دولة بني مرين، مع أنّ المؤلف رجّع بمؤلفه إلى تأسيس الدولة الإدريسية سنة 172هـ وإلى غاية عهد السلطان أبو سعيد عثمان المريني سنة 741هـ، وقد اتبع في تدوينه تتبع الأحداث حسب السنوات، كما يعدّ المؤلف مصدرا معاصرا لكثير من أحداث الدولة المرينية وتقييد أهم منجزاتها الحضارية.

- كتاب " الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية " لمؤلف مجهول معاصر للفترة المدروسة، حيث صنف المؤلف على نفس المنوال الذي صنف به الكتاب السابق، وقد تعرض فيه صاحبه لتأسيس الدولة المرينية وذكر

نسب بني مرين، والحديث بشكل مركز لفترة السلطان يعقوب المنصور، وتظهر أهمية الكتاب في كونه يغطي فترة مهمة من تاريخ الدولة المرينية، علاوة على جوانب أخرى اقتصادية واجتماعية والعلمية.

- كتاب " روضة السرين في دولة بني مرين " لمؤلفه الأمير اسماعيل بن الأحمر النصري (ت 807هـ/1404م) الذي خصص لذكر سلاطين بني مرين ذكرا مقتضبا اعتبر فيه الترتيب الكرونولوجي، مع ذكر بالموازات غرماءهم من بني عبد الواد، والذي توضح تحامله عليهم من خلال وصفه لهم بأقبح الأوصاف.

- كتاب "العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لـ: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808 هـ/1406م)، خاصة الجزء السابع الذي خصّصه للحديث عن قبيلة زناتة وفروعها من بني مرين وتأسيس دولتهم وتطور مسارهم السياسي، كما اهتم بذكر علاقاتها الخارجية لهذه الدولة، وذكر بعض المراسلات والهدايا التي تبادلها المرينيون مع المماليك. كما تكمن أهمية هذا المصدر في كون مؤلفه قد عاصر الأحداث في المغرب والمشرق ويعد شهادة حية فيما يخص العلاقات المغربية المملوكية في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق الجركسي، الذي وفد عليه ابن خلدون وأكرمه وراسل بسببه السلطان الحفصي في مسائل شخصية، كما يعدّ مؤلف " المقدمة" من المصادر الهامة لهذه الدراسة لكونها تضم الجانب الثقافي والعلمي للدول الإسلامية عموماً، وتعرض فيها ابن خلدون لمناهج العلوم والتعليم وتطورها بالمشرق والمغرب، ما يمكن الباحث من المقارنة بين المستوى الثقافي لكل من الإقليمين خلال القرن الثامن الهجري/14م على وجه التحديد.

- كتاب "المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن" لأبي عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت 781 هـ/1379م)، وقد اشتمل على معلومات تخصّ الجانب الثقافي للمغربين الأوسط والأقصى في عهد المرينيين، كما تكمن أهميته في مقدّمة المحققة ماريا خيسوس بغيرا التي اعتنت بالترجمة لعلماء أسرة المرازقة وخاصة ابن مرزوق الخطيب، الذي يعدّ من أبرز النماذج التي تتجلى من خلالها العلاقات الثقافية بين المغرب الإسلامي وبلاد المشرق عموماً إضافة إلى إشارات إلى الروابط الثقافية والروحية لعلماء أسرة المرازقة مع نظرائهم من المصريين والحجازيين.

ثانيا - المصادر المملوكية:

- " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " للأمير المملوكي ركن الدين بيبرس المنصوري الدّوادر، (ت 725 هـ/1324م)، وكان أحد كبار الأمراء المماليك وشارك في الأحداث السياسية لعصره، كما كان من العلماء البارزين، ويعدّ كتابه زبدة الفكرة من أدقّ المصادر التاريخية لفترة المدروسة، وقد اعتمد عليه الكثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعده، ويشتمل في جزئه التاسع المحقّق من طرف زبيدة محمد عطا على الفترة ما بين

656 هـ/1217م إلى 709 هـ/1309م بطريقة الحوليات، حيث عالج ت كل سنة وما جرى فيها من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية ومنجزات ثقافية، وضمّنه جملة كبيرة من الرسائل والوثائق المملوكية، وتعرّض للعلاقات بين مصر وبلاد المغرب وباقي الدول المجاورة، كما اعتنى بذكر وفيات أشهر العلماء بشكل مختصر في نهاية كل سنة .

- " نزهة الأنام في تاريخ الإسلام " لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلاني المعروف بابن دُقمق (ت809هـ/1406م)، وقد كان جنديا في الجيش المملوكي، ثمّ اتجه لطلب العلم وألّف الكثير من الكتب التاريخية. وقد اعتمد في كتابه هذا على أسلوب التاريخ الحولي، وأورد تفاصيل مهمة عن كيفية انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك، كما ترجم لبعض العلماء والأعلام، واهتم بذكر بعض الأحداث الطبيعية كالزلازل والفيضانات وغيرها.

- " كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ (ت845هـ/1442م)، وقد كان من ضمن كتاب الإنشاء، كما تقلّد مناصب القضاء والحسبة، ويعدّ كتاب السلوك من أهم المصادر المملوكية وقد رتبته على السنين في عدّة أجزاء وأقسام، وركّز على الأحداث السياسية، خاصة عن الغزو المغولي ومدى تخاذل أمراء المسلمين في التصدي لهم، والإشادة والإطراء على دولة المماليك الأولى، كما لم يغفل هذا المؤلّف المنجزات العلمية والعمل على الدفع بعجلة العلوم، كما لم يغفل الترجمة لبعض العلماء دون إغفال المؤلّف الثاني لذات المؤلّف وهو : " المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية " حيث يعدّ المصدر الأساس في التعريف بالمؤسسات التعليمية بمصر في عصر المماليك.

- " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لأبي الحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 874 هـ/1469م)، والذي تربى في البلاط المملوكي، لذا يعدّ الكتاب من أبرز المؤلفات المملوكية، والذي يفيد بشكل دقيق أي باحث يعني بموضوع دولة المماليك، انطلاقا من النشأة وصولا إلى إحياء الخلافة بالقاهرة، وتناول سيرة كل سلطان وما جرى في عهده من أحداث سياسية ومنجزات ثقافية وختم كل سيرة بملخص.

- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 821 هـ/1418م)، ويعتبر هذا الكتاب موسوعة شاملة في شتى الفنون، كما يعدّ مؤلفا محوريا يجمع بين التأريخ للمشرق والمغرب على حدّ سواء خاصة دور القبائل العربية ببلاد المغرب، كما أنّ الكتاب يعدّ تقييدا للوثائق الرسمية والمراسلات المملوكية والعلاقات الاقتصادية، واعتنى بذكر المؤسسات التعليمية بمصر، وأفادنا في التعرف على معاني المصطلحات المملوكية.

وتكملة لما أوردته المصادر حول الموضوع استعنا بمجموعة من المراجع والدراسات الحديثة المنشورة، وهي متخصصة في تاريخ دول المغرب الإسلامي أو الدولة المملوكية سياسيا وثقافيا، ومن تلك المراجع:

- كتاب "ورقات عن حضارة المرينيين" للمؤرخ محمد المنوني، وهو سجل لأحداث الدولة المرينية سياسيا وثقافيا، وهو يعدّ بحثا تفصيليا عني بالدولة المذكورة، وقد أفادني كثيرا خاصة فيما يتعلق بالعلاقات السياسية بين الدولتين، بالإضافة إلى كتاب "مدخل إلى تاريخ العلوم بالغرب المسلم حتى القرن 15/9م" بأجزائه الثلاثة لإبراهيم حركات، أما فيما يتعلق بالجانب المملوكي، فقد استعنت بمجموعة من التأليفات أهمها كتاب "الممالك" للسيد الباز العريبي، و "الدولة المملوكية" لأنطوان خليل ضومط، وكتاب "دولة سلاطين الممالك ورسومهم في مصر" لعبد المنعم ماجد، وكتابي "المجتمع المصري في عصر سلاطين الممالك" و "مصر والشام في عصر الأيوبيين و الممالك" لسعيد عبد الفتاح عاشور، و "تاريخ دولة الممالك في مصر" للسير وليم موير، و "الحركة الفكرية في مصر في العصورين الأيوبي والمملوكي الأول" لعبد اللطيف حمزة.

ومن الدراسات الأكاديمية رسالة الدكتور عبد الرحمن بالأعرج الموسومة "علاقات دول المغرب الإسلامي بدولة الممالك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين 7-9هـ / 13-15م"، ورسالة الأستاذ الدكتور عابد يوسف حول "العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية 648هـ-1250م/694هـ-1296م" ورسالة ماجستير الموسومة "العلاقات الثقافية بين الأندلس ودولة الممالك" لسي عبد القادر عمر.

إنّ هذه العينة والزّخم الكبير من المادّة العلمية يعبر عن أهمية الموضوع، ومدى تفاوت المعلومات بين الكتب المشرقية والمغربية، ما يجعل الموضوع يكتسي أهمية بالغة، كما يمكن للمتتبع لهذا الموضوع أن يكون صورة واضحة في الوقوف على بعض المقارنات بين المشرق والمغرب.

المدخل

❖ العوامل المتحركة في العلاقات السياسية:

إنّ الباحث في تاريخ العلاقات المغربية الشرقية، يلمس تميّزا وتنوعا ومتانة فيها منذ أقدم العصور، فقد شهدت هذه العلاقات تواصلا وامتدادا على جميع الأصعدة: السياسية والاقتصادية والفكرية، بل إنّ أيّ بادرة نشأت بالشرق وإلا وصل صداها إلى المغرب، والعكس - أحيانا - صحيح، وهذا باعتبارها وحدة جمعت بينهما الكثير من الروابط والصّلات، ولذا يمكننا القول إنّ العلاقات بين الدولة المرينية بالمغرب الأقصى ودولة المماليك بالشرق، تعدّ محصّلة علاقات التعاون المغربي الشرقي، استنادا إلى تميّزها عن باقي الأقطار المغربية الأخرى، وانطلاقا من تاريخ عريق مهدّ لبروز علاقات متينة، عزّزتها جملة من العوامل، منها ما هو عام، ومنها ما اختص بهذه العلاقات بعينها، نذكر منها:

1 - وحدة الدّين الإسلامي :

مما لا ينكره أحد أنّ رابطة الدّين الإسلامي، تعدّ عاملا مهماً في تاريخ التّواصل بين الأقطار الإسلامية المختلفة، عملا بالآية الكريمة " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** " ¹، لذا فقد عمل السّلاطين على تقوية هذا الرّابط، ويتجلّى ذلك من خلال المراسلات السّلطانية، التي عادة ما ذكّرت بمبدأ الأخوة الدّينية، والتي تلزم المسلمين جميعا بالحفاظ على مكتسبات الأمة مشرقا ومغربا، والشّواهد في هذا المجال كثيرة، وحتى وإن تجزّأ العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية متعدّدة، إلّا أنّ عموم المسلمين لم يشعروا بهذه الفوارق بين البلاد الإسلامية المختلفة، باعتبار أنّ البلاد كلّها دار إسلام، وقد عزّز من هذا الشّعور تعرّض البلاد الإسلامية للعدوان الخارجي، سواء ما تعلّق بحروب النصارى على حواضر الأندلس بالمغرب الإسلامي، أو الحروب الصّليبية بالشرق، وكشاهد على هذا، نذكر تلك المراسلة التي حدثت بين صلاح الدّين الأيوبي والمنصور الموحدي ²، حين طلب الأوّل من الثّاني معونة لصدّ العدوان الصّليبي على الأراضي الشرقية، انطلاقا من المسؤولية الدّينية التي تستوجب نجدة إخوانه في

1- سورة الحجرات، الآية 10.

2- رابح مغراوي، منهج ابن الخطيب في التأريخ للشرق من خلال تحقيق الجزء الأول من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلّق بذلك من كلام، دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الأول، وجدة 2000، ص 212.

المشرق، وتحرير الأراضي المقدسة، فهذا دليل واضح على أن رابطة الدين من أكد الروابط التي جمعت بين المغرب و المشرق¹.

2 - رابطة الخلافة بالمشرق:

جمعت وحدة الخلافة شعوب العالم الاسلامي تحت راية واحدة، انطلاقا العهد الراشدي والأموي، وصولا إلى سقوط بغداد عاصمة العباسيين سنة 656هـ/1258م، الأمر الذي أحدث نوعا من الفراغ السياسي، مما جعل هذا المبدأ محلّ خلاف مشرقي مغربي، بين القاهرة وتونس².
إلا أنّه من الجدير بالذكر، أنّ مبدأ الخلافة بقي مقدّسا لدى بعض الدّول المستقلّة ببلاد المغرب الإسلامي، وهو مظهر يغذّي جانب العلاقات السياسية بين المغرب والمشرق، فنجد أنّ المستظهر بالله العباسي (487هـ-512هـ/1094م-1118م)³، "هو الذي خاطبه علي بن يوسف⁴ أمير لمتونة، فراجعته بكتاب مشهور عند الناس يأمره فيه بالمعروف وينهاه عن المنكر"⁵، وهذا يؤكد تعلق المرابطين بوحدة الكلمة وذلك عن طريق اعترافهم برسم الخلافة العباسية، رغم البعد الجغرافي، وهو

1 - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 330.

2- عبد الرحمن بالأعرج، علاقات دول المغرب الاسلامي بدولة الممالك سياسيا و ثقافيا بين القرنين السابع والتاسع هجريين 7-9 هـ/ 13-15 م، رسالة دكتوراه في المغرب الإسلامي، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2013، ص 60.

3- أبو العباس أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله الخليفة العباسي. أنظر: ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج4، ص26. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط2، ج10، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ص 534-536. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم علي طرخان، ج 5، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972، ص 215-216.

4- هو الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي، يكنى بأبي الحسن، ولد بسبته سنة 477هـ وبويع له سنة 500هـ، بعد عهده من أزهى الفترات التي شهدتها الدولة المرابطية، وبقي في الحكم إلى أن وافته المنية سنة 537هـ. أنظر: ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص157-165.

5- لسان الدين ابن الخطيب، إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من كلام، تح: سيد حسن، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 282.

نفس العامل الذي شجّع الكثير من الدول مشرقا ومغربا عن إعلان الانفصال عن كيان دولة الخلافة.

غير أنّ ظهور بعض الكيانات السياسية ببلاد المغرب أحدث القطيعة فيما يخصّ مبدأ الخلافة، فنجاح دعوة ابن تومرت¹ على دولة المرابطين قد هزّ من هذا المبدأ، وتسمّى كلّ من خلفاء الموحدين والعباسيين بلقب " أمير المؤمنين "، وهذا الذي تسبّب بأزمة دبلوماسية بين المنصور الموحدي والتّااصر صلاح الدّين الأيوبي، هذا الأخير الذي كان مواليا للخلافة العبّاسية، فاسنكف كاتبه القاضي الفاضل في مخاطبة الخليفة الموحدي بلقب الخلافة، واقتصر على مخاطبته بلقب " أمير المسلمين " بدافع عدم شرعية انعقاد رسم الخلافة لاثنتين في الملة الواحدة²، ولعلّ هذا الأمر يوضح لنا جلّيا مدى خطورة هذا المنصب السّياسي والدّيني على حدّ سواء، والذي لا يمكن أن يُجامل فيه السّاسة بعضهم بعضا حتى في القضايا المصرية.

وإذا كان أمر فشل السّفارة الأيوبية — قد اكتنفه الغموض بين المصادر المشرقية والمغربية في إجابة الخليفة المنصور الموحدي لطلب السّلطان التّااصر صلاح الدّين الأيوبي- قد انعكس على مستقبل العلاقات الموحدية الأيوبية بسبب عدم توحيد الرّؤيا فيما يخصّ الخلافة، إلّا أنّنا سنشهد توافقا مغربيا مشرقيا في عصر الدّولتين المرينية والمملوكية، وهذا راجع إلى بعض الشواهد التي توضّح اعتراف المرينيين بالخلافة العبّاسية في القاهرة، وهذا من خلال مضمون رسالة من أبي الحسن المريني إلى التّااصر محمد بن قلوون يخاطبه فيها بقوله: " هازم جيوش الأرمن والفرنّج والكرج والتتر... خديم الحرمين ، ناصر الإسلام... ظهر الخلافة وعصدها.. ولي أمير المؤمنين... " ³، ولا ندرى هنا إن كان هذا الإعراف نابع من تحرّ عمّد إليه المرينيون في استحقاق خليفة القاهرة لهذا المنصب، أم

1- ولد سنة 485هـ/1092م وارتحل لطلب العلم بالمشرق، ثمّ عاد إلى المغرب وبويع سنة 515 هـ/ 1121م، توفي سنة 524 هـ/1130م. أبو بكر علي الصنهاجي البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، تح: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 33. لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام... المصدر السابق، ص 266 Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, SNED, Alger, 1982, p 9 -

2- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص204.

3- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 8، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1985، ص 88.

أنه قائم على جانب سياسي استند إلى العداء بين الدولتين المرينية والحفصية بتونس، والتي تعدّ غريمة القاهرة في استحقاق شرف الخلافة ولقب "خادم الحرمين" وبيعة أمراء مكة¹، وعليه فمبدأ الخلافة الواحدة يعدّ واحداً من أبرز الروابط التي عملت على نسج الصّلات الوثيقة بين المغرب والمشرق وعلى وجه الخصوص بين المرينيين والمماليك.

3 رابطة الخطر المشترك:

تعدّ الفترة المدروسة محصلة لفترة نشاط الأخطار الخارجيّة على العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، ابتداءً من خطر التنصاري في الأندلس، أو الخطرين الصليبي والمغولي على المشرق الإسلامي، وإن كان كلّ من الدولتين الموحدية والأيوبية، ومن بعدهما دولتا المماليك والمرينيين حملت كلّ منها مشروعاً لتوحيد أقطار العالم الإسلامي - كل في نطاقه - إلّا أنّنا سجّلنا تعاوناً بين المغرب والمشرق في مسألة درء الخطر الصليبي، خاصّة ما تعلّق بالعدوان الصليبي على المشرق الإسلامي²، وهذا نظراً لما تحتويه المنطقة من رمزية بالنسبة للعالم الإسلامي.

ومهما تعدّدت الأقطار الإسلامية سياسياً، إلّا أنّ اللحمة الإسلامية، ورابطة الدّين طبعت عاطفة العالم الإسلامي كلّهُ على الإحساس بشناعة الإعتداء على الأراضي الإسلامية مغرباً ومشرقاً، وهذا ما جعل المغاربة على وجه الخصوص، ينبرون لأعمال الجهاد بالأراضي المقدسة بفلسطين، سواء على المستوى الرسمي³ أو على المستوى الشعبي⁴، حيث شارك هؤلاء في المعارك الحاسمة ببلاد الشام، كحطّين وتحرير بيت المقدس وتحرير الإسكندرية⁵، الأمر الذي خلّد لنا عدّة شخصيات مغربية

1- يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية و المملوكية 648هـ - 694هـ / 1250م - 1296م ، رسالة ماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة 1995، ص41.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص61.

3- تقدّم الحديث عن المراسلة بين صلاح الدين والخليفة الموحي يعقوب المنصور.

4- أحمد بن خيرة، دور المغاربة والأندلسيين في الحروب الصليبية ما بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر-2، 2011، ص128.

5- حيث تعرضت الإسكندرية لغارة صليبية سنة 767هـ أثارت موجة غضب في ربوع العالم الإسلامي سيما بلاد المغرب، نظراً لما كانت تربطه بها من صلات على جميع الأصعدة. أنظر: أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1976، ص93.

كشخصية إبراهيم التازي¹ الذي كان له فضل في استرجاع هذه المدينة²، بالإضافة إلى حملة السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز الأول (767-774هـ/1367-1374م)³ على الأندلس ثأراً لما لاقاه أهل هذه المدينة من العدوان الصليبي، ومن جعلتها الحملة على مدينة جيان التابعة لمملكة قشتالة، فبالرغم من أنها جاءت متأخرة زمنياً، إلا أنها كانت ردّة فعل على هذا العدوان، وهذا ما يوضّحه نص رسالة كتبت إلى السلطان المريني بفاس: " فنوينا أن نرفع هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد، ونقصنا أطراف البلاد، ... بعد سنة من حادث الإسكندرية..."⁴، كما نقل عن النويري أنّ أعداداً كبيرة من المغاربة اشتغلوا في الأساطيل التي رُصدت لتحرير الإسكندرية بأجر زهيد حسبة لله⁵.

غير أنّ جذور المشاركة المغربية في الحروب الصليبية تعود إلى زمن متقدم عن هذا التاريخ، وبالضبط سنة 543هـ-1148م حين سجّل استشهاد الشيخ المغربي يوسف بن دوناس الفندلاوي الفاسي⁶، وفقه آخر من المثلّمين لم يذكر اسمه، وإنّما ذكرت خصاله، فقد وُصف بالشجاعة والإقدام والفتك بأعدائه الفرنج⁷، شارك المصريين في جهادهم ضدّ الصليبيين، فهذه عيّنة عن مشاركة المغاربة للمشاركة في حروبهم ضدّ العدوان الصليبي، عزّزه تسمية حارة عريقة في الأراضي المقدّسة باسمهم، كما أنّ هذه المشاركات تعدّ دليلاً على موائمة العلاقات السياسية الرسميّة للعلاقات

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص132.

2- عبد الهادي التازي، الوسيط في التأريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، الرباط 259.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص131.

4- النويري، الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية، تح: عزيز عطية 5، ج دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند 1970، ص 331-332.

5- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص95-96. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص259.

6- يلقب بأبي الحجاج المغربي، قدم الشام وسكن بلدة بانياس مدّة، ثمّ انتقل إلى دمشق واستوطنها ودرّس بها على مذهب الإمام مالك بن أنس، وحدث بكتاب الموطأ وغيره، وقد وصف بأنه شيخ حسن المفاكهة، كريم النفس، صاحب كرامات انظر: أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تح: محمد حلمي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1962، ص203.

7- ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص353. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص84.

الأخوية في صدّ العدوان الصليبي على المشرق، مع ما كان من قطيعة بين الدولة المرابطية ونظيرتها الفاطمية¹.

أمّا عن الخطر الخارجي على بلاد المغرب، فتمثّل في خطر النصارى على الإمارات الإسلامية بالأندلس، ففي الوقت الذي اشتدّ فيه التنّاحر والتّناحر بين المسلمين في هذه البقعة المغربية، اشتدّ فيه خطر النصارى على حواضرها العريقة، فاستطاعت مملكة قشتالة افتكاك قرطبة سنة 632هـ/1233م بقيادة ملكها فرناندو الثالث، وهو نفس التّوقيت الذي استطاعت فيه مملكة أراجون إخضاع بلنسية بقيادة ملكها خايمي الأول، لتتوالى ضربات القشتاليين على مرسية 641هـ/1243م²، والحصون المتاخمة لمملكة غرناطة، وبذلك سيطروا على الأندلس الجنوبية³، وإذا جاز لنا وصف هذا المشهد الأندلسي، فإننا نستطيع أن نشاهد ملامح السّقوط بادية في مستقبله، بدليل خسارة المسلمين لأهم الحواضر المهمّة في تاريخه.

وإذا علمنا موقف المرينيين من ممالك الإيبان في شمال الأندلس — والتي لم تشدّ عن طبيعة العلاقات الدّول المغربية التي سبقتها — فقد أنجد السّلاطين المرينيين إخوانهم في الأندلس، نظرا للعداوة المشتركة لممالك الشّمال، وهذا ما عبّرت عنه رسالة مرينية موقّعة بتاريخ 737هـ/1337م مرسلة إلى الملك النّاصر محمد بن قلاوون⁴، تصف لنا استعانة النّصريين بأيّ الحسن ضدّ النصارى فأجابه إلى مرادهم وفي هذا الموضوع يذكر " وفي أثناء ذلكم وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصارى أعداء الله... فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد إلى أربعة آلاف من الأبطال... وأذاقت من جدهم من أهماج الأعلاج شرا وحصرًا، إلى أن أسلموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله مزيد المؤمنين فتحا ونصرا "⁵، كما تضمّنت السّفارة رسالة ثانية يطلب فيها أبو

1- أحمد بن خيرة، المرجع السابق، ص131.

2- يوسف أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، ج 2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص114.

3- يوسف عابد، المرجع السابق، ص44.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص122.

5- القلقشندي، المصدر السابق، ج 8، ص 91.

الحسن من السلطان التاصر دعوة أهل الصّلاح وخطباء المساجد بالدّعاء له بالتّصر على الإسبان في الأندلس، والظاهر أنّ السلطان المملوكي قد أجابه إلى ذلك، حيث رفعت له الأدعية جهرا بما في ذلك خطيب عرفة¹، غير أنّ انقلاب الأحداث بالنّسبة للمرينيين يوحي لنا مدى القوّة التي بلغت جيوش التّصارى بالأندلس، وهذا يتجلّى أيضا من خلال رسالة أخرى بعث بها أبو الحسن إلى نظيره المملوكي الصّالح إسماعيل، أسهبت الحديث حول الأحداث التي جدّت بالأندلس² والتي أدّت إلى تسليم الجزيرة الخضراء، وجبل طارق إلى ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة³.

إنّ هذه الأحداث بالمغرب الإسلامي قد كانت تصل تباعا إلى الممالك بالشرق، سواء عن طريق المراسلات المرينية — كما سبقت الإشارة — أو عن طريق مصادر أخرى، كالبعثات الدبلوماسية إلى الممالك التّصراية، فمن الجدير بالذكر أنّ الممالك قد عقدوا علاقات حسنة مع هؤلاء، تمّ تبادل الهدايا والرّسل بين الطرفين، وكمثال على ذلك السفارة التي بعث بها ملك اشبيليا ألفونسو العاشر إلى الظّاهر بيبرس يستعرض فيها الخدمة والمودّة⁴، ومع أنّ الممالك كانوا في كثير من الأحيان لا يشاركون إخوانهم الأندلسيين في ردّ عدوان التّصارى عليهم، إلا أنّ هذه العلاقات قد آتت أكلها ضمّنيا في بعض الأحداث العلمية، حيث نجد أنّ ملك اشبيليا ألفونسو العاشر قد أحجم عن المشاركة في الحملة الصليبية التاسعة على تونس خوفا من فقدان امتيازاته التجارية في السّواحل المصرية⁵، ولكن من خلال بعض المراسلات الرسميّة، فإنّنا لا نجد أنّ الممالك قد لعبوا دورا إيجابيا في في نصرّة مسلمي الأندلس، بل إنّ كثيرا من هذه المراسلات لا نجدها قد احتوت على بند واحد متعلق بهذا الأمر، بل اكتفوا فقط بتذكير النصارى بأواصر الصداقة في عدم التّعرض للمسلمين

1- محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، 3، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء 2000، ص 167.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 259.

3- المنوني المرجع السابق، ص 163.

4- يوسف عابد، المرجع السابق، ص 52.

5- عبد الله محمد راجح، علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الأزهر، 1983. ص 125-127.

بالأندلس ومن ذلك مراسلة الملك الناصر إلى ملك أراغون يذكره فيها أنه حامي حمى المسلمين، ويلتمس منه عدم التعرض لهم في مملكته¹.

وعليه نجد أن كل من الدولتين المرينية والمملوكية قد استشعرتا الأخطار التي أحدثت بالعالم الإسلامي، إلا أن التعامل معها كان متباينا، فقد وقع الإجماع مشرقا ومغربا على درء الأخطار الداهية للمشرق والمثلة في الخطرين الصليبي والمغولي، بينما نجد تصديا أقل حدة بالنسبة للخطر الذي داهم بلاد المغرب، خاصة من جانب المماليك والمشاركة عموما، إذ اكتفى المماليك ببعث بعض المساعدات وإصدار بعض التعليمات برفع درجة التأهب للمواجهة²، وعليه يمكن القول أن المغاربة تعاملوا بإيجابية أكثر مع الأخطار التي واجهت العالم الإسلامي.

4 - عامل الحج:

يعدّ الحجّ من أهم العوامل التي ربطت المغرب الإسلامي بالمشرق، حيث كان ينطلق من الأقطار المغربية المختلفة - بما فيها الأراضي المرينية - مرورا بالأراضي المملوكية³، حيث كان يحرص المغاربة على بلوغ الأراضي المصرية قبل انطلاق وفد الحجّ الرسمي المملوكي، لما كان لهذا الأخير من ضمانات في تأمين الطريق، خاصة بعدما أصبح المماليك أوصياء على الحرمين الشريفين، وهذا ما جعل المغاربة وعلى رأسهم بني مرين، يخصّون المماليك بالتقدير والاحترام، ويرسلون إليهم الرسائل السلطانية التي توصي بالوفد الحجيجي خيرا، وينتدبون لها رجالا من الدولة الكبار بمعية العلماء الأجلاء، هذا ما جعل حجّاج الدولة المرينية همزة وصل بين سلاطين الدولتين⁴، كما شهدت رحلة الحجّ ظواهر أخرى متّنت من أواصر الأخوة المغربية المشرقية، كظاهرة المجاورة بالحرمين، أو ظاهرة خدمة منشآت وأحباس المغاربة بالبقاع المقدسة.

1- أحمد العزاوي، المرجع السابق، ج2، ص228.

2- يوسف عابد، المرجع السابق، ص70.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص342.

4 - يوسف عابد، المرجع السابق، ص70.

الفصل الأول

الواقع السياسي للدولتين المرينية والمملوكية

أولاً- الحالة السياسية للعالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري

ثانياً- التطور السياسي للدولة المرينية

ثالثاً- التطور السياسي للدولة المملوكية

أولاً- الحالة السياسية للعالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري:

يعدّ القرن السابع الهجري، قرناً حاسماً استناداً لكثير من المشاهد التي طبعت معالمه مشرقاً ومغرباً، حيث عرف كثير من التغيرات السياسية أهمها تغيير الخريطة السياسية بظهور دول وأفول أخرى، بالإضافة إلى بروز جملة من الأخطار الخارجية التي حدثت به، أبرزها دولة المغول الفتية التي استطاعت أن تغير من خريطة العالم لصالحها، وراحت تطيح بأعني الدول قوة وعراق، انطلاقاً من الشرق الأقصى، وصولاً إلى الشرق الأدنى، أين تمكنت تقويض المعلم الروحي الأبرز للمسلمين، وهو إسقاط الخلافة العباسية ببغداد 656هـ/ 1258م¹، وإيجاد فراغ سياسي لم يسدّ إلا بعد فترة ليست بالوجيزة، هذا علاوة على الخطر الصليبي الذي لم تستأصل شأفته من بلاد الشام بعد استرجاع مدينة القدس، بل تجددت الدعوة لبعث الروح الصليبية وسط الأوربيين، والتي تكللت بالحملة الصليبية الثامنة على مصر².

أمّا بالمغرب الإسلامي فحفل هو كذلك بجملة من الأحداث والتي لم تشذّ عن تلك التي ظهرت بالشرق، حيث شهدت الفترة ملامح انهيار الدولة الموحدية³، بعد واقعة حصن العقاب

-
- 1- محمد بن علي الحموي، التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح: أبو العيد دودو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990، ص 73-77. أبو الحسن بن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، ط 2، ج 9، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ص 383-385. أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ط 6، ج 13، مكتبة المعارف، بيروت، 1985، ص 117-121. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تر: سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 27، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 248 وما يليها. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تح: أحمد إبراهيم زوة، سعيد بن أحمد العيد روسي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص 357. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1970، ص 19 وما يليها أحمد صادق سعد، "المغول"، مجلة آفاق عربية، ع 4 ديسمبر 1976، ص 98.
 - 2- عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، مصر 1322هـ، ص 14 وما يليها. ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، تر: سيد الباز العريبي، دار الثقافة، بيروت، 1954، ص 453. عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة 1997، ص 33.
 - 3 - نسبة إلى عبد المؤمن بن علي الذي يعود أصله إلى تاجر باقرب من هنين بتلمسان، حكم من 524-558 هـ/ 1130-1163م. أنظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري،

609هـ/1212م¹، وهذا ما أدى إلى اشتداد حركة زحف الممالك الصليبية بالأندلس، التي توجت بتساقط المدن العريقة به، الأمر الذي أدى إلى بروز حركة نزوح كبيرة نحو المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة الايبيرية وكذا إلى العدو المغربية، وهذا بعدما تعرّض سكانها إلى الاضطهاد الصليبي الذي صاحب حركة الاسترداد²، كما شهد المغرب حملة من الاضطرابات السياسية والتي تكللت بانفصال بعض الزعامات وحكّام الأقاليم الموحدية عن السّلطة المركزية، فقد بادر أبو زكريا الحفصي بتونس ابتداء إلى الانفصال عن الموحدين مودنا بتكوين إمارة حفصية³ سنة 627 هـ / 1229م، تبعه في هذه الخطوة يغمراسن بن زيان الذي كوّن الإمارة العبدوادية بالمغرب الأوسط⁴ سنة 633هـ/1235م، وسار على نهجهم بنو مرين الذين عملوا على تكوين كيان سياسي لهم بالمغرب الأقصى بعد عدّة معارك طاحنة حرت بينهم وبين الموحدين⁵، باعتبارهم الأقرب جغرافيا إلى العاصمة مراكش مركز

المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 148. أبو عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 13.

1- هي معركة دارت رحاها في الأندلس بين الجيش الموحد بقيادة الخليفة محمد الناصر، والجيش الإسباني بقيادة ألفونسو الثامن، حيث انهزم فيها الموحدون هزيمة نكراء أدت إلى ضعف ملكهم وتشجيع الطامعين في الانفصال عن ملكهم. أنظر: ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص 158-160. مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرينية، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص 22.

2- عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص 91-92. لوي كردياك، المورسكيون والمسيحيون، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 89-120.

3- عن تاريخ الدولة الحفصية أنظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النيفر وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968. الزركشي، المصدر السابق. G. ;MARÇAIS ; La berberie Musulmane et l orient au moyen age . paris. 1946. P279.

4- عن وصول قبيلة بني عبد الواد إلى الحكم واستقلالها عن الحاضرة المراكشية أنظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تح: عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980، ص 199-200. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، تح: محمود بوعباد، الجزائر، 1985، ص 112-113.

5- عن تاريخ هذه الدولة أنظر: الذخيرة السنّية... المصدر السابق. ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب... المصدر السابق. اسماعيل بن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، تح: عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1962.

السلطة، وبسقوط هذه الأخيرة وانتصار المرينيين سنة 668هـ/1269م، تطوى صفحة من تاريخ دولة قوية استطاعت أن توحد بلاد المغرب الإسلامي قاطبة، من إفريقية شرقا إلى بحر الظلمات غربا، ومن عمق الصحراء الكبرى جنوبا إلى غاية الأندلس شمالا، لتعود التفرقة والتشردم بين الإخوة الأشقاء، وفي خضم هذه التطورات، شهد كل من المغرب والمشرق الإسلاميين أفول نجم دولتين مركزيتين، كانتا تعدّان من أقوى الدول في التاريخ الإسلامي، هما الدولة الموحدية والدولة الأيوبية.

ثانيا- التطور السياسي للدولة المرينية:

1 - أصل بني مرين:

يعتبر بنو مرين فخذ من قبيلة زناتة البربرية، فهم أبناء عمومة بني عبد الواد¹، وينتسبون إلى جدّهم الأعلى مرين بن وارثن بن ماخوخ بن جديج أو حديج² بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورثن بن المعز بن ابراهيم بن سحيج أو سحيك³ وينحدر بنو مرين كإخوانهم بنو توجين من بني واسين⁴، حيث عاش هؤلاء في عشائر بدوية متنقلين بأنعامهم في صحارى المغرب الأوسط، وامتدت منازلهم من الزّاب إلى سجلماسة⁵، يرتحلون بأنعامهم في فصل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى بغرض الرعي، فيقضون شهورا نازلين بين فجيج و ملوية، وقد وصفهم ابن أبي دينار قائلا: "و بنو مرين كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية، وينتقلون من مكان إلى مكان، وجُلّ أموالهم الإبل و الخيل، وطعامهم اللحوم و التمر"⁶ و يذكر صاحب الذخيرة السنية أنّ بني مرين

1- مؤلف مجهول، الذخيرة السنية.... المصدر السابق، ص15.

2- هوارية بكاي، العلاقات الزبانية المرينية سياسيا وثقافيا، مذكرة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسا 2008، ص 23.

3- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص، 19 - 20، ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص، 218.

4- عبد الرحمن بن خلدون، العبر....، المصدر السابق، ج 7، ص 343.

5- ابن أبي الزرع، المصدر السابق ص 187. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص، 167.

6- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب و الأندلس في العصر المريني 610 هـ - 869 هـ / 1213 م - 1465 م، ط 2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت 1987، ص 4-5.

كانوا لا يُعَمَّرُونَ القفار، ولا يؤدُّون لسلطانهم بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان ولا يرضون بذلّ ولا هوان، لهم همم عالية، ونفوس إلى المعالي سامية، لا يعرفون الحرث ولا التّجارات ولا يشتغلون بغير الصّيد، جُلّ أموالهم الإبل و الخيل، ودأبهم الحرب، وخوضات الليل، وسمتهم إكرام الضّيف، و ضرب أعدائهم بالسيف¹ كما أورد ابن مرزوق الخطيب في كتابه المسند، أنّ بني مرين استوطنوا مساحات واسعة من بلاد الجريد إلى المغرب، حيث شمل ملكهم من بلاد الزّاب إلى تيهرت وجهات في تلمسان²، بينما حدّد عبد الرحمن بن خلدون مضارب إقامتهم بلقفو من فكّيك إلى سجلماسة في الجنوب، ومنها إلى ملوية في الشمال، وأحيانا تقدّموا شرقا إلى بلاد الزاب³، وقد ذكر الفقيه الأديب مالك بن المرحل بمدح الأمير يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني قائلا:

أنتم لأبناء عبد
فخر وهو للورى فخر إذا افتخروا
الحق
كلّهم
فحسبكم شرفا أن كان جدّكم
برّ بن قيس وقيس
جدّه مضر⁴

2 ظروف نشأة بني مرين:

حكّم بنو مرين خلال المرحلة الأولى من تاريخ دولتهم مجموعة من الأمراء، أهمّهم الأمير الأعذر بن عافية المعروف بالمخصّص (ت 540هـ) ثم حمّامة بن محمد أبو بكر بن حمّامة (ت 561هـ) ثم الأمير محيو بن أبي بكر الذي نال شرف قيادة بني مرين بعد مشاركته في معركة الأرك مع الخليفة

1- مؤلف مجهول ، الذّخيرة، المصدر السابق، ص23.

2- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص18.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج7، ص167. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص33.

4- مؤلف مجهول ، الذّخيرة، المصدر السابق، ص14.

الموحدي يعقوب المنصور¹، ويعتبر هذا الأمير صاحب فكرة نقل المرينيين من حالة البداوة إلى حالة التمدن، انطلاقاً من فكرة إقامة دولة لهم²، الأمر الذي مهّد الطريق لابنه عبد الحق (542-614 هـ/ 1147م - 1216) الذي عمل على التوسع في المغرب الأقصى، رافعا شعار "التقوى والحق"³.

بعد وفاة محيو، تولى زعامة بني مرين أكبر أبنائه أبو محمد عبد الحق الذي بدأ في عهده عصر جديد من تاريخ قومه⁴، وهذا بفضل جملة الصفات التي أهّلته لقيادة قبيلته، فقد عُرف بالتقوى والصّلاح والورع والعدل⁵، وعمل منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها المغرب الأقصى، على استتباب الأمن في المناطق التي بسط سلطانه عليها، والعمل على حماية كلّ من نزل بجواره⁶، وعن الأسباب التي جعلت بني مرين يدخلون المغرب الأقصى، يذكر لنا ابن أبي الزّرع نصّاً صريحاً يشرح فيه ظروف دخولهم - مع ما فيه من المبالغة - فيقول: "... فلما كان عام عشرة و ستمائة، أتو على عاديهم من البرية، فوجدوا المغرب قد باد أهله ورجاله، وفي خيله وحماته وأبطاله، ومات الكلّ بغزاة العقاب، واستولى على بلادهم الخراب، عمّره السّباع والذّياب، فأقامو بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم، وأخبروهم بحال البلاد وخصبها، وطيب مزارعها وسعة مراعيها، وكثرة مياهها ومشارعها... وقالوا لهم أسرعوا إليها فليس بها من يصدّكم عنها، ولا من ينازعكم فيها، فوصل الخبر إلى مرين، فبادروا إلى المغرب مقبلين..."⁷ كما نستطيع أن نضيف إلى هذه الأسباب القويّة

-
- 1- ابن مرزوق الخطيب، المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص14.
 - 2- مؤلف مجهول، الذّخيرة السّنية...، المصدر السابق، ص21.
 - 3- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص13.
 - 4- دخل بنو مرين في عهده المغرب الأقصى، وأقاموا في بلاد الرّيف سنة 610هـ، وهذا بفضل ضعف السّلطة الموحدية التّاجم عن وقعة حصن العقاب 609هـ/1212م، انظر: ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص158-160. مؤلف مجهول، الذّخيرة السّنية...، المصدر السابق، ص24.
 - 5- إسماعيل ابن الأحمر، المصدر السابق، ص15.
 - 6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص34.
 - 7- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص282.

التي تضمّنها النص، سببا جوهريا آخر، وهو صغر سنّ الخليفة الموحيدي يوسف المستنصر بن الناصر، والذي انشغل بأحوال الصبّا، وانصرف عن تدبير أمر دولته¹.

ورغم تعدّد الظروف والعوامل التي استغلّها المرينيون في إقامة كيافهم السياسي، إلا أنّهم لم يكونوا أصحاب دعوة، ولم يوظّفوا العامل الديني والمذهبي في تأسيس دولتهم، كما هو الشأن بالنسبة لكثير من الدّول السّابقة لعهدهم - كالرستميين والعبّيين والموحدين من قبلهم - فلم يكن ثمة مجال لإقامة مذهب أو عقيدة جديدة، بعد أن استقرّ الأمر لمذهب مالك منذ عهد المرابطين، بالإضافة إلى فشل جهود الموحدين في حمل الناس على تبني مبادئ ابن تومرت بصفة نهائية²، أمّا عامل القبليّة والعصبية، فلها دور أساس وبارز في تأسيس جلّ الدّول ببلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وهو يعتبر من أقوى العوامل التي لا يمكن استبعادها من ذهنية سكان بلاد المغرب الإسلامي عموما إلى يوم النّاس هذا.

3 الصراع المريني الموحيدي:

عمل بنو مرين طيلة الصّراع المريني الموحيدي، الذي ناهز الثلاث سنوات، على توسيع رقعة بلادهم، وبسط نفوذهم على مناطق واسعة، مستغلّين ظروف الدّولة الموحدية المتردية³، إلا أن هذه الأخيرة لم تقف مكتوفة الأيدي اتجاه التّوسع المريني، إذ تمّ تجهيز جيش قوامه عشرة آلاف جندي، انضمّ إليه مقاتلون من قبائل مكناسة وسدارته والبرانس وغيرهم من القبائل الموالية للموحدين، هدفه استئصال شأفة المرينيين وكسر شوكتهم⁴.

1- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص18.

2- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، ج 2، دار الرّشاد الحديثة، دار البيضاء، ص12.

3- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص18.

4- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، ج4، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص25.

وصلت الأخبار إلى بني مرين بتقدم الجيش الموحدى نحوهم، وقد كانوا في هذه الفترة ازدادوا قوة وسيطروا على رقعة واسعة من بلاد الرّيف، فالتقى الجيشان بوادي نكور، وهُزم جيش الموحدين بعد معركة استمرت أكثر من أربعة أيام¹.

لقد كان لهذه المعركة أثر كبير في نفسية المرينيين الذين ازدادت قوّتهم بما غنّموه من سلاح و أموال وخيل، كما كان لهذا الأمر أثر كبير في جعل المرينيين قوة عظيمة في هذه الديار من المغرب الأقصى، أهلّتهم لمواصلة هجماتهم على مختلف مدنه، فأخذوا مدينة رباط تازة²، إلّا أنّ غمرتهم هذه لم تدم طويلا، إذ تعرّضوا في هذه الأثناء إلى الانقسام الداخلي الذي هدّد كيافهم النَّاشئ، حيث نشب صراع داخلي في الأسرة المرينية بين بني حمامة أصحاب مشيخة بني مرين ومناصريهم من جهة، وبين بني عمومته من بني عسكر، وهو الصّراع الذي أذكاه الموحدون، فاستعان بنو عسكر على منافسيهم بقبائل رياح -أقوى القبائل في المغرب الأقصى وحلفاء الموحدين- واحتدم الصّراع بينهما بمواجهة عسكرية في معركة واد سبو على بعد أميال من قرية تفارطاست سنة 614 هـ / 1217 م، والتي انتهت بمقتل الأمير عبد الحق و ولده إدريس³.

إلّا أنّ مقتل الأمير عبد الحق لم يثني من عزيمة المرينيين الذين زحفوا نحو بني عسكر وعرب رياح وانتصروا عليهم، وغنموا الكثير من الخيل والمال وغيرها، تحت قيادة أبو سعيد عثمان بن عبد الحق سنة 614 هـ / 1217 م، هذا الأخير الذي أنهى الحرب بين المرينيين وعرب رياح، وسعى إلى بسط نفوذه على البوادي والأرياف، وأمر شيوخ بني مرين بالقيام بشؤون الدّين والدّنيا والنّظر لصالح المسلمين⁴.

أخذ أبو سعيد عثمان يدعو قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته بعد فقدان الموحدين للسيطرة التامة عليها⁵، وهو ما تمّ فعلا، حيث دخلت في طاعته هواره وزكارة و تسول ومكناسة وبطوية

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص169.

2- مؤلّف مجهول : الذخيرة السنية، المصدر السابق ص 32-34.

3- مؤلّف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص24. مؤلّف مجهول، الذخيرة السنية...، المصدر نفسه، ص33.

4- مؤلّف مجهول الذخيرة السنية...، المصدر نفسه، ص 33 .

5- ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص288.

ومديونه وفتح بلاد صنهاجة وفشتالة ولمطة وبني وارين وبلاد غمارة¹، وفرض عليهم الخراج ووزع عليهم العمال²، كما قام أبو سعيد عثمان سنة 620 هـ / 1222 م بغزو بلاد فزاز، فأخضع أهلها وردعهم عن إلحاق الأذى بالناس، وما إن حلت سنة 625 هـ / 1228 م حتى قوي شأن المرينين بالمغرب، إذ خضعت لهم مختلف القبائل، وبذلك يمكن القول أن أبا سعد عثمان وضع كيانا لدولة بني مرين لا ينقصه إلا الإعلان الرسمي عنه، مما دفع بالموحدين إلى مهادنتهم، الأمر الذي لم يمنع من اغتيال أبا سعيد عثمان سنة 637 هـ / 1239 م³.

وهنا خلفه أخوه الأمير محمد بن عبد الحق (638 هـ - 642 هـ / 1239 م - 1244 م) والذي سار على نهج سلفه في التمكن للمرينين وإقامة دولتهم وفرض هيبتهم ووجودهم، فاستولى على مناطق شمال المغرب الأقصى، وفرض عليها الضرائب⁴، كما استطاع السيطرة على المدن الكبرى والأمصار، ليدخل في مواجهة مع السعيد الموحدي سنة 642 هـ / 1244 م، حيث قام هذا الأخير بتجهيز جيش كبير التقى بالمرينيين بالقرب من فاس، وانجلى هذه المعركة عن وفاة الأمير محمد بن عبد الحق، وإلحاق الهزيمة بالمرينيين، الذين انسحبوا إلى الجبال، ومنها إلى الصحراء قصد ملمة شملهم⁵، شملهم⁵، وكأول خطوة بايعوا الأمير أبا بكر بن عبد الحق والذي بدوره بايع الحفصيين كي يضمن الأمان من جانبهم.

4 - تأسيس الدولة المرينية (668هـ-869هـ/1269م-1465م):

ما إن تولى أبوبكر بن عبدالحق المكنى بأبي يحيى لرئاسة بني مرين، كان بداية لعهد جديد، حيث جاهد لتحقيق هدفه في إقامة دولة فعلية، فأظهر مهارة في الحكم والإدارة، وعمل على تنظيم

1- مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، المصدر السابق ص262-263.

2- مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية...، المصدر السابق، ص36-37.

3- محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص19.

4- مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية...، المصدر السابق، ص60.

5- ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص193.

قبائل بني مرين وتقسيم البلاد إلى مقاطعات إدارية، وأطلق يده في جباية الضرائب وتجنيد القبائل، كما اتخذ لنفسه شارات الملك و مظاهره ¹.

وبعدها قاد بنو مرين سلسلة من الحملات للاستيلاء على المدن الكبرى، فاستولوا على مكناسة سنة 643 هـ / 1245 م² ثم تازا 646 هـ / 1248 م³ ومن بعدها فاس مستغلين وفاة السعيد الموحي أثناء صراعه مع يغمراسن بن زيان⁴، كما سيطروا على سلا ورباط الفتاح، الأمر الذي تسبب في قطع اتصالات الموحيين مع شمال المغرب الأقصى⁵.

وبعد ذلك وجه المرينيون أنظارهم نحو سجلماسة ودرعة لأهميتها الاقتصادية، وكان ذلك بين سنتي (653 هـ - 1255 م / 655 هـ - 1257 م) وقد ظلوا طيلة سنة 655 هـ / 1257 م يعملون على تثبيت أقدامهم في هذه المدن، وبداية من سنة 659 هـ / 1260 م هُزم الموحدون أمام المرينيين عند وادي أم الربيع⁶، وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على الموحيين، فقد استغل أبو يعقوب الخلاف الذي وقع بين الخليفة الموحي وأبو دبوس⁷، والذي انتهى بتنحية الخليفة الموحي وتولية أبي أبي دبوس أمور الدولة الموحدية، بعدما تحالف هذا الأخير مع أبو يعقوب يوسف المريني، وبعد الاتفاق الذي وقع بينهما والذي ينص على منح المرينيين العدة والجنود والمدد لأبي دبوس، مقابل

1- نفسه، ص194.

2- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص 474.

3- ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 101. مؤلف مجهول، الذخيرة السنية...، المصدر السابق، ص 66-67.

4- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص 474.

5- يحيى بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980، ص 206. ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص 293.

6- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 187. مؤلف مجهول، الذخيرة السنية...، المصدر السابق، ص 105.

7- عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 32. مؤلف مجهول، الذخيرة السنية...، المصدر السابق ص 108.

إشراكهم في نصره بعد دخول مراكش¹، وهو ما تمّ فعلا وبكل سهولة بفضل هذا التحالف، وقد تمكّن من دخولها من باب أغمات².

وصل خبر دخول أبو دبّوس مراكش إلى أبي يوسف يعقوب، فبعث له يهنئه ويذكره بالاتفاق المنعقد بينهما، غير أن أبا دبّوس تنكر لوعده، ممّا أدى إلى استعداد أبو يوسف يعقوب عليه، وعزم على غزو مراكش سنة 666 هـ / 1268 م، فسير له جيشا ضخما، استطاع عبور وادي أم الربيع وأحكم حصار المدينة في شعبان 666 هـ / 1268، مخربا القرى والزروع وغازيا للقبائل المؤيدة للموحدين³، إلى أن وقعت المعركة الكبرى انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل أبي دبّوس واستيلاء بني مرين على محلّتهم وذلك في 2 محرم 668 هـ / 1269 م⁴.

سار أبو يوسف يعقوب نحو مراكش التي دخلها في موكب حافل، استقبله فيه أهلها من وجهاء القوم والفقهاء والقضاة مبايعين له ومعلنين عن قيام دولة جديدة بالمغرب الإسلامي وهي الدولة المرينية⁵.

وقد استمرت هذه الدولة في حكم المغرب الأقصى وبسط سلطاتها على المغربين الأوسط والأدنى والأندلس في عهد أبي الحسن المريني ونجله أبو عنان فارس⁶، وكانت الدولة الأكثر قوة في بلاد المغرب الإسلامي⁷ خلال الفترة المدروسة، وقد سقطت بعد استيلاء بني وطاس على الحكم في مدينة فاس.

1- ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص304.

2- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج6، ص261.

3- مؤلف مجهول، الذخيرة السنية...، المصدر السابق، ص117.

4- ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص 205. عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 180.

5- مجهول : الذخيرة السنية...، المصدر السابق ص118، محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص35.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص38.

7- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ثالثاً- التطور السياسي للدولة المملوكية:

1 مصر في عهد الأيوبيين:

عرف المشرق الإسلامي قبل ظهور دولة المماليك ، مجموعة من التطورات على الساحة السياسية، كان من أبرزها ظهور الصليبيين واستقرارهم بالمنطقة، والذي شكّل الأثر الأبرز في تغيير المشهد السياسي بالشرق الإسلامي، فقد قامت الدولة الأيوبية على أنقاض دولة الفاطميين¹، بعد أن أخذ بعض الزعماء البادرة في مواجهة الخطر الصليبي، وعلى رأسهم الأتابك عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود²، حيث سمح هذا الأخير للناصر صلاح الدين الأيوبي بتولي الوزارة في خلافة العاضد بالله الفاطمي³، مما أتاح الفرصة أمام صلاح الدين بتقويض أركان الدولة العبيدية بمصر، وهذا بعدما رأى ضرورة توحيد الصف الإسلامي تحت لواء دولة واحدة تستطيع مجاهدة الخطر الصليبي، الأمر الذي أدّى إلى ظهور الدولة الأيوبية التي طبعت المشهد السياسي العام في المشرق الإسلامي اجمالاً، واستمرت لغاية 648 هـ/1250م⁴، بعد أن اخذت البادرة في درء المخاطر وتسجيل محطات بارزة ضد الصليبيين، كموقعة حطين سنة 583 هـ/1187م⁵، واسترجاع بيت

1- الفاطميون من الشيعة الإسماعيلية، أسسوا دولتهم بالمغرب ثم انتقلوا إلى مصر وأسسوا مدينة القاهرة المعزية أنظر: تقي الدين المقريري، كتاب المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص 53. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ط2، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1958— ص 82.

2- واجه الصليبيين في شمال الشام والعراق وقتل سنة 841 هـ/1146م. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام عصر الأيوبيين في المماليك، دار النهضة العربية، بيروت 1972، ص 8.

3- ابن شداد بهاء الدين، الأنوار السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994، ص 26. أبي الحسن علي الحسن الندوي، أعلام المسلمين ومشاهيرهم، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، بيروت 2002، ص 36. عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 20.

4 - المكين جرجس بن العميد، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص 6— 38. عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية، المرجع السابق، ص 138.

5 - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص 102. بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 126. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 63. محمد مرسي محمد، صلاح الدين وإستراتيجية تحرير بيت المقدس، مجلة الهداية، العدد 292، السنة 25، وزارة العدل والشؤون الإسلامية، البحرين، ص 20.

المقدس¹، بعد توحيد مصر والشام تحت لوائها، وما إن وافت المنية الناصر صلاح الدين سنة 588هـ/1193م²، حتى برزت الانشقاقات في البيت الأيوبي من بعده، وهذا ما عجل في بعث الروح الصليبية، من خلال الحملات الصليبية، وعلى رأسها حملة لويس التاسع الذي رأى ضرورة القضاء على القوة المصرية، باعتبارها عصب القوة في المشرق³، حيث استعان لويس فيها بالمسيحيين اللاتين في قبرص، واتصل بالمغول في آسيا الصغرى لدعم حملته⁴، مما أوجد واقعا مربكا بالنسبة للسلطان الصالح أيوب، جعله يستعين بالخوارزمية والإكثار من شراء المماليك حتى يقوي من عضد دولته، وهذا بعدما أدرك عدم مقدرة الدولة على مجابهة خطر الفرنج، ونظرا لاختلاف الأمراء على قيادة الجيش⁵، فقد برز جليا دور المماليك على الساحة السياسية كطرف موال للسلطان الصالح نجم الدين أيوب، وبفضلهم استطاع أن يجهز الحملة الصليبية الثامنة على مصر، خاصة بعدما استطاعوا أسر قائدها الملك لويس التاسع ملك فرنسا⁶، يضاف إلى هذا كله بروز عوامل الانقسام الداخلي الذي شهدته البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين⁷، ودخول آخر سلاطينها طورانشاه في صراع مع المماليك، مما حمل هؤلاء على تصفيته ووضع حد لحياته يوم الإثنين 27 محرم 648هـ/ 2 ماي

1 جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1968، ج2، ص20. بيبرس المنصوري الداودار، مختار الأخبار تاريخ، الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية، تح: عبد الصمد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1993، ص4. بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص134.

2- ابن شداد بهاء الدين، المصدر نفسه، ص363. بيبرس المنصوري الداودار، المصدر السابق، ص5. أبو شامة المقدسي، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القسم2، تح: أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992، ص248.

3- عابد يوسف، المرجع السابق، ص24.

4- عبد الله محمد راجح، المرجع السابق، ص119.

5- عابد يوسف، المرجع السابق، ص24.

6- المرجع نفسه، ص25.

7 عبد الرحمن ابن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج5، ص383. ابن غري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم علي طرخان، ج6، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972، ص227. سيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية بيروت، ص35-36.

- 1250م¹، وبعد هذا الواقع المريع دخلت مصر في فترة فراغ سياسي، انتهى بتتويج شجرة الدر - زوج السلطان الصالح نجم الدين أيوب- سلطنة على مصر، التي ابتدأت عهدها بانتصار دبلوماسي تجلى في تسريح الملك لويس التاسع مقابل فدية مالية معتبرة، الأمر الذي لم يشفع لها في امتعاض الشيوخ والقضاة ورجال الدولة منها، فما كان منها إلا أن تنازلت للأمير المملوك عز الدين أيبك، وبذلك ينتهي عصر الدولة الأيوبية وقيام عصر جديد سمي بعصر السلاطين المماليك.

2 أصل المماليك:

مملوك إسم مفعول من مَلَك، ويطلق على العبد الذي مُلِك وسُي ولم يملك نسب أبواه²، إذ يعود أصل المماليك إلى الرقيق الآسيوي الأبيض³ الذي يضم الأتراك والجرأكسة وموطنهم بلاد القفجاق شمال البحر الأسود وجنوب روسيا⁴، حيث استعملهم السلاطين في الجندية بعد الحصول عليهم عن طريق الأسر في الحروب، والشراء من أسواق النخاسة، فينتخب أحسنهم صحة وقوة، لتلقي تكوين عسكري صارم على مستوى الطباقة، حيث يتلقى هؤلاء تعاليم خدمة الدين الاسلامي وأعمال الجهاد في سبيل الله، والولاء للسلطان.

وظاهرة استخدام الرقيق في الجيوش الإسلامية تعود إلى العصر العباسي، وبالضبط في عهد الخليفة المعتصم بالله، الذي جلب الأتراك واستخدمهم في جيشه⁵، أما في العهد الفاطمي فأدخل عنصر جديد وهو الصقالبة⁶، كما أكثر الأيوبيون وملوك المقاطعات من المماليك، وعملوا على

1- عابد يوسف، المرجع السابق، ص25.

2- ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، ط 1، مجلد 6، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص101. أنور زقطة، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995، ص21.

3- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط10، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ص87.

4- القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص485.

5- المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر، ج4، تح: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، 2003، ص54. أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي، ط2، دار العدالة، بيروت، 1982، ص16.

6- أحمد مختار العبادي، في التاريخ المملوكي والأيوبي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2000، ص291. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر و الشام، دار النفائس، بيروت 2002، ص391.

تدريهم ليكونوا لهم عوناً¹، وعليه فقد عرفت تجارة الرقيق انتشاراً كبيراً في هذه المرحلة، نظراً لما كانت تدركه من أرباح على ممارستها خاصة عند الأوروبيين²، وازدهرت هذه التجارة في مصر بصفة خاصة، كما شهدت موانئ هذه الأخيرة نشاطاً تجارياً كبيراً لهذه الفئة، حيث عرفت مرفئ مصر توافداً كبيراً لهؤلاء العبيد وصارت تجارة الرقيق تجارة رائجة بمرفأ دمياط³ والإسكندرية⁴ وغيرها من الموانئ المصرية الأخرى، لينقلون بعدها إلى مختلف المدن وخاصة القاهرة حاضرة الدولة⁵، إذ يتلقى هؤلاء التعليم العسكري الصّارم، ولقد كثرت هذه الفئة في المجتمع المشرقي عموماً، ومع مرور الزمن أصبح لهؤلاء دور كبير في بعض الإمارات، ووصل بهم الأمر إلى تقلد مناصب سامية في خطط الدولة كلها⁶.

3 - دولة المماليك البحرية (648هـ - 784 هـ / 1250م - 1382م):

استكثر الملك الصّالح نجم الدين أيوب من المماليك التّرك، حتى أضحيّ جلّ جيشه مكوّن منهم، وأصبحوا يشكّلون الشّوكة الأخطر التي تهدّد كيانه وسلطانه، لذا ارتأى من كياسة الحكم استبعادهم

- 1- محمد سهيل طقوش، نفسه ص 392.
- 2- خليل أنطوان ضومط، المرجع السابق، ص 25.
- 3- دمياط: مدينة و ميناء بين بحر الروم و النيل، و هي كانت تعدّ ثغراً من ثغور الإسلام، أنظر: العبدري، الرحلة المغربية، تح: سعد بوفلاقة، ط 1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص 148. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 472. ناصر حجي حياة، صورة من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت 1992، ص 48.
- 4- الإسكندرية مدينة بناها الإسكندر المقدوني على البحر المالح، أنظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد (د.ت)، ص 92. العبدري، المصدر السابق، ص 46. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 182.
- 5- القاهرة حاضرة كبيرة أنشأها جوهر الصقلّي عند دخوله مصر، أنظر: ياقوت الحموي المصدر السابق، ج 4، ص 301، زكي محمد، الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت 1981، ص 124.
- 6- سي عبد القادر عمر، العلاقات الثقافية بين الأندلس ودولة المماليك بين القرنين السابع والتاسع هجريين- 9 هـ / 13- 15 م، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ابوبكر بلقايد، 2010، ص 14.

عن دوائر صناعة القرار، فابتنى لهم قلعة على جزيرة الروضة في بحر النيل¹، تكون معسكرا دائما لهم، ومنها سموا بالمماليك البحرية²، كما سميت هذه الفرقة بالصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب³، الذي توفي في طريقه لصد حملة الصليبيين على المنصورة سنة 647 هـ / 1249 م⁴، فأخفت زوجه -أم خليل شجرة الدر- موته⁵، وأظهرت أنه مريض وأرسلت في طلب ابنه طورانشاه طورانشاه الذي واصل القتال ضد الصليبيين⁶، بينما كانت شجرة الدر تدبر شؤون الدولة في الخفاء إلى غاية عودة ابن نجم الدين، هذا الأخير الذي دخل في صراع مع شجرة الدر والمماليك، فعمل على إقصائهم ومقاومة سلطتهم، الأمر الذي أنهى الصراع بقتله على يد ممالك والده سنة 648 هـ / 1250 م، وبذلك انتهت دولة بني أيوب بمقتل طورانشاه، وبعد وفاة هذا الأخير، تم الاتفاق على تولية شجرة الدر ملكة على مصر⁷، ودامت مدة حكمها ثلاثة أشهر فقط، حيث نقضت بيعتها بيعتها بسبب تعالي الأصوات المنادية بالطعن في هذا الحكم، وقد ترأس هذه المعارضة العلماء ومن بعدهم سكان مصر من مبدأ عدم أهلية المرأة في حكم المسلمين، كما عارضه الخليفة العباسي

- 1- القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص 368. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص 176. سيد سيد النشار، تاريخ المكتبات. عصر العصر المملوكي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993، ص 49.
- 2- المقرزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرزية، ج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987، ص 232. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 314. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 153.
- 3- نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، ولد سنة 603 هـ، تولى ملك الديار المصرية سنة 637 هـ توفي سنة 647، أنظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 16، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1997، ص 439. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص 216.
- 4- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تج محمد بن تاوويت الطنجي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951، ص 34. المقرزي، السلوك... المصدر السابق، ص 339.
- 5- شجرة الدر من أصل تركي، اشتراها الصالح أيوب كجارية ثم أعتقها وتزوجها، قتلها المماليك بعد إقدامها على قتل زوجها الثاني عز الدين أيبك سنة 655 هـ، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون...، المصدر السابق، ص 317. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 6، ص 373.
- 6- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 6، ص 354. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 314.
- 7- المقرزي، الخطط...، المصدر السابق، ج 2، ص 236. ابن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 5، ص 417.

المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله¹، والذي عاتبهم بقوله: " إذا كانت الرّجال قد عدمت فأعلمونا نسير لكم رجلا"² وأمام هذه المعارضة التي دعمها الخليفة، ما كان على شجرة الدرّ إلّا إدراك الموقف، وتفهم الأمر الواقع، وارتأت التّنحي عن السّلطنة، غير أنّ الأمر لم يتمّ بهذه السّهولة، إذ دبرّت حلّا بديلا للبقاء في الحكم، وذلك عن طريق الزّواج من الأمير المملوك عزّ الدين أيّيك، وتعيينه سلطانا على مصر³، وبهذه الصّفقة السّياسية، أصبح السّلطان أيّيك أوّل سلطان مملوكي، موذنا بذلك بذلك قيام دولة مشهودة تدعى بدولة المماليك، وتمهيدا لتثبيت أركان هذه الدولة الفتية، قام أيّيك بتعيين أمير أيّوبي إلى جانبه لامتنصاص غضبهم، ثم بدأ بالتّخلّص من معارضيه واحدا تلو الآخر، وبذلك تبدأ مرحلة حكم المماليك البحرية وأيّيك أوّل سلاطينها⁴، إلّا أنّ هناك رأي مخالف يزعم اعتبار شجرة الدرّ أوّل سلاطين المماليك ومؤسسة كيّانهم⁵، وإن يكن الرّأي حول المؤسس الفعلي، فقد قامت شجرة الدر بالتخلص من زوجها سنة 655 هـ / 1257⁶، بعدما انتفت الغاية من توليته، وهي رضوخه لتعليماتها وأوامرها وتدخلاتها في السّلطة، وإحساسها بخيانتها لها، ليتنقل الحكم بعدهما إلى الملك المظفر سيف الدّين قطز⁷، والذي يرجع له الفضل في إيقاف زحف زحف التّتار في واقعة عين جالوت⁸، إلّا أنه قتل بدوره على يد الأمير ركن الدّين بيبرس البندقداري،

- 1- ولد سنة 609 هـ تولى الخلافة سنة 640 هـ، وقتل على يد هولاكو سنة 656 هـ انظر ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ...، المصدر السّابق، ج 7 ص 267. محمد جعفري بك، تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية، ط4، القاهرة، 1934، ص 480.
- 2- ابن خلدون، العبر ...، المصدر السابق، ج 5 ، ص 417. ابن تغري بردي، المنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، 2، ج6، دار الكتب، القاهرة، 1990، ص 220.
- 3- المقرئزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تر: مصطفى زيادة، ج 1، لجنة التّأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1972، ص 368. ابن كثير، البداية و النهاية، 13، دار التقوى، 2004، ص 181.
- 4- المقرئزي، الخطط....، المصدر السابق، ج 2، ص 236. بسّام العسلي: المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ط6 ، دار النفائس، 1986، ص 117.
- 5- المقرئزي السلوك، المصدر السابق، ج 7، ص 361.
- 6- ابن كثير ، المصدر السابق، ج 13، ص 198. المقرئزي ، السلوك....، المصدر السابق، ج 1، ص 403.
- 7- هو محمود بن مودو من سلالة خوارزم شاه، هذا الأخير الذي قضى التّتار على دولته ، نقل إلى مصر و أصبح مملوك الصّالح أيّوب، أنظر: عبد العزيز بن عبد الله الحمدي، التاريخ الاسلامي مواقف وعبر، ج 4، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1998، ص 386.
- 8- ابن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 5، ص 437. ابن كثير، المصدر السابق، ج 13، ص 447.

في السادس عشر من ذي القعدة سنة 658 هـ / 1260 م¹، حيث تولى الأمر بعده واتخذ لقب الملك الظاهر.

وقد بلغ عدد سلاطين دولة المماليك البحرية أربع وعشرون سلطاناً، أولهم عز الدين أيبك وآخرهم السلطان الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان الذي خلعه الجراكسة سنة 784 هـ / 1381 م²، وأبرزهم الظاهر بيبرس الذي شهد عهده توسعات كبيرة في بلاد الشام والحجاز³، إضافة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تاسع ملوك الدولة المملوكية والملقب بالألفي والذي كان له دور كبير في مقاومة التتار والصليبيين وكان له دور كبير في خدمة حجاج بيت الله⁴.

4 دولة المماليك البرجية (784 هـ - 923 هـ / 1382 م - 1517 م)⁵:

المماليك البرجية أو الجراكسة⁶، وهم يمثلون تلك الفرقة التي كوَّنها السلطان المنصور قلاوون لتكون له درعا وعونا ضد ما يواجهه من عقبات ومشكلات إزاء منافسيه وغرمائه، فوقع اختيار المنصور على العنصر الجركسي أو الشراكسة الوافدين من القوقاز وشرقي البحر الأسود⁷، واقتفى عقبه السلطان الأشرف خليل⁸، أثر أبيه فاشترى حوالي ألفي مملوك جركسي، وبذلك أصبح الجراكسة قوة كبيرة في الدولة، وقد تميَّز هؤلاء بقوة البدن وجمال الصورة، كما سَمَّوا بالبرجية لأن

- 1- ابن خلدون، العبر...، المصدر نفسه، ج5، ص 438. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص181.
- 2 - المقرئ، الخطط...، ج2، ص 240. عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المطبعة العامرية، مصر، 1322 هـ، ص20.
- 3- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج7، ص94.
- 4- القلقشندي: صبح الأعشى...، المصدر السابق، ج8، ص 65. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج7، ص 292. المقرئ، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص238.
- 5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص55.
- 6- الجركس هم جنس من الأتراك يغلب عليهم دين النصرانية. القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص462.
- 7- الأمير عبد العزيز، المرجع السابق، ص792. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص223. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، 3، دار الكتاب اللبناني، 1991، ص25.
- 8- القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، ج4، ص462.
- 8 - حكم من 687 هـ - 1288 م إلى 693 هـ - 1293 م و في عهده فتحت عكا، آخر معقل للصليبيين ببلاد الشام و فلسطين في 690 هـ - ماي 1291 م. بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص288 - 312.

السُّلطان أنزلهم بأبراج قلعة الجبل، وحرص على تربيتهم تربية دينية وعسكرية، وقد بلغوا ثلاثة آلاف مملوك¹.

وقد تمكّنت هذه الفرقة من تحقيق مطامح المنصور قلاوون في تثبيت أسرته في الحكم لفترة طويلة -إثر كبح مطامح المماليك الأتراك²، كما استطاعوا تعزيز مكانتهم من خلال دورهم البارز في قتال المغول³، ولذا فقد تطلّع أمراؤهم إلى السُّلطنة والحكم، وعملوا على إسقاط دولة بني قلاوون في آخر الأمر، وهذا على يد السُّلطان برقوق⁴، الذي تمكّن من الإطاحة بمنافسيه بعدما دعا إلى اجتماع يضمّ المماليك الجراكسة والقضاة، علاوة على الخليفة العباسي بالقاهرة، فتكلم أحد القضاة قائلاً: "إنّ أحوال المملكة قد فسدت، وزاد فساد العربان وخامر غالب نواب الشام⁵، وخرجوا عن الطاعة، والأحوال غير مستقيمة، وإن الوقت قد ضاق، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب"⁶، فخلع على إثرها آخر سلاطين المماليك البحرية، الصّالح حاجي بن شعبان، واعتلى العرش بدله السُّلطان برقوق سنة 784 هـ / 1382م الذي لقب نفسه بالظاهر⁷.

- 1- المقرئزي الخطوط...، المصدر السابق ج 2 ص 220 أنطوان خليل ضومط، المرجع السابق، ص 254.
- 2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 56. سي عبد القادر، المرجع السابق، ص 18.
- 3- سي عبد القادر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 4- ولد سنة 741 هـ من بلاد الجركس، جليه فخر الدّين عثمان إلى مصر سمي بالعثماني. ابن تغري بردي، النجوم...، المصدر السابق، ج 12، ص 2. ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحدي أبو النور، ط 1، ج 1، دار التراث القاهرة، 1970، ص 217.
- 5- كانت بلاد الشام عبارة عن مجموعة نيابات عليها نواب وكان أهمها: دمشق - حلب - حماه. الصّفي، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنّواب، تح: زهير حميدان، وسعيد خلوصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991، ص 455-543. محمود السيّد، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، (د.ت)، ص 41. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 12، ص 199.
- 6- المقرئزي، السلوك، ج 3، ص 474.
- 7- ولد سنة 741 هـ أخذ من بلاد الجركس إلى مصر واشتره الأمير يلبغا العمري واعتقه وسمي برقوق لنتأه في عينه، انظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج 12، ص 2. السّخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن

وقد بلغ عدد سلاطين دولة المماليك البرجية خمسة وعشرون سلطاناً من أشهرهم السلطان الظاهر برقوق وابنه الناصر والسلطان المؤيد شيخ الحمودي، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف قايتباي، والأشرف طومان باي الذي يعدّ آخر سلاطين مملكة الجراكسة والمماليك بشكل عام¹، وقد كانت نهاية دولة المماليك على يد الدولة العثمانية، حيث دخل هؤلاء بلاد الشام عام 922 هـ/1516م واستطاعوا هزم المماليك في معركة مرج دابق²، ثم حسموا الأمر في مصر إثر معركة الريدانية سنة 923 هـ/1517م³، وبذلك أعلنوا سقوط دولة المماليك وانتقال تبعية مصر للخلافة العثمانية⁴.

-
- التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج3، ص11. السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح: بشار عواد، وآخرون، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995، ص260.
- 1- سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس، بيروت 2002، ص328.
- 2 الباز العربي، المرجع السابق، ص263. شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص129.
- 3 الشوكاني، البدر الطالع، المصدر السابق، ج2، ص54. سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي...، المرجع السابق، ص338. ابن إياس الحنفى، المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة الأسرة، القاهرة، 85.
- 4- المقرئ، السلوك، المصدر السابق، ج5، ص476. سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر و الشام، المرجع السابق، ص496. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص228.

الفصل الثاني

مظاهر العلاقات السياسية بين بني مرين والمماليك

أولاً- جذور العلاقات بين الدولة المرينية ودولة المماليك

ثانياً- العلاقات في عهد يوسف بن يعقوب المريني

ثالثاً- العلاقات في عهد أبي الحسن المريني

رابعاً- العلاقات في عهد أبو عنان فارس

خامساً- العلاقات في عهد أبو فارس عبد العزيز الأول

سادساً- العلاقات في عهد أبو العباس أحمد وابنه أبو عامر

اعتبرت الدولة المرينية من أقوى الدول في المغرب الإسلامي عقب سقوط دولة الموحدين، وهذا استناداً إلى مجموعة من العوامل التي شهدتها فترة القرن السادس الهجري وما بعدها، وانطلاقاً من القيم والمبادئ التي قامت عليها الدولة، وأكد أمرها هو مشروع وحدة المغرب الإسلامي، وحمل لواء الجهاد في الأندلس¹، وغير بعيد عن هذه الأسس والمبادئ، فإنّ دولة المماليك بدورها كان لها نفس الأفق السياسي في محاولة توحيد المشرق الإسلامي تحت راية واحدة، بالإضافة إلى حملها راية التصدي للأخطار الخارجية سواء ما تعلّق ابتداء بالخطر الصليبي، أو الخطر اللّاحق ممثلاً في الخطر المغولي، لذا فإنّهُ من الطّبيعي أن تنشأ علاقات سياسية بين دولتين متكافئتين تحمّلان نفس المشروع، كما أنّ المماليك كانوا يرون في الدولة المرينية الكيان الأحقّ بقيادة المغرب الإسلامي².

أولاً - جذور العلاقات بين الدولة المرينية ودولة المماليك:

نحا سلاطين الدولة المرينية نهج أسلافهم من حكام بلاد المغرب المتقدمين، في ربط العلاقات السياسية والمراسلات السلطانية مع مختلف الدول والأقطار الإسلامية في المشرق، توطيداً لركائز حكمهم، وحفظاً لمصالحهم، وجلباً للتأييد من الدول القوية وجعلها من أحلافهم، وبلا شكّ فقد تجسّد هذا المطلب في دولة المماليك التي عُدّت من أقوى الدول الإسلامية، استناداً إلى جملة من العوامل السياسية والاقتصادية، وكلمتهم المسموعة لدى أقوى دول العالم الإسلامي أو الأوروبي.

وفي صَدَدِ الحديث عن العلاقات المرينية المملوكية خصوصاً، يقول ابن خلدون: "... ولم تزل ملوك المغرب على القِدَمِ ولهذا العهد، يعرفون ملوك التّرك حقّهم ويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصّهم الله من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين، وكانت المهاداة بينهم تتّصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال..."³، فيفيدنا هذا القول في كون بني مرين حرصوا على احترام المماليك لما لهم من الفضل والمزية في خدمة الحرمين الشريفين، وما ملكوه من رقعة جغرافية مترامية الأطراف.

أمّا عن العلاقات والمراسلات فإنّها توطّدت في عهد السّلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، الذي عاصره السّلطان المملوكي محمد الناصر بن قلاوون الصّالحي، ولكن هناك بعض الإشارات المشرقية

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 113.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 5، ص 479.

تفيد بأن جذور العلاقات قد بدأت منذ عهد الملك المنصور قلاوون¹، حيث أورد لنا ابن حجر العسقلاني² ما يمكن اعتباره توثيقاً وتأريخاً لهذه العلاقات بقوله: "... أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين قليج المنصوري³ قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني إلى ملك الفرنج في شفاعه فقبلها ..."⁴، ومما يجب التنويه إليه، أن النص جاء مجملاً بقول ملك المغرب، والظاهر هنا أنه ملك بني مرين⁵، لما تتميز به العلاقات المرينية عن غيرها من علاقات دويلات بلاد المغرب، كما أن النص افتقر إلى تاريخ السفارة، عدا الإشارة إلى عهد السلطان المملوكي المنصور الذي حكم مصر بين سنتي 678-689/1280-1290، حيث عاصره في هذه الفترة أميران في فاس هما أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي دامت عهده من 656/1258م، 685هـ/1286، أما الثاني فهو ابنه أبو يعقوب يوسف⁶، وعليه فإننا لا نستطيع تحديد الملك المغربي المقصود بهذه السفارة، كما أن النص لم يوضح لنا جلياً هدف السفارة بوضوح وهل هي خاصة بالجانب المملوكي أم بالجانب المريني فيما يخص مسألة الشفاعة المذكورة.

-
- 1- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 129.
 - 2- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن معمر الكناي العسقلاني ثم المصري الشافعي (773-852هـ/1370-1449م) فقيه ومحدث وأديب ومؤرخ، انظر: السخاوي، المصدر السابق، ج2، ص 36. ابن غري بردي، النجوم الزاهرة... المصدر السابق، ج15، ص 532.
 - 3- قليج أو كليج بالتركية تعني السيف ويقصد به سيف الدين، وقد نعت بالمنصوري نسبة للمنصورة، بن قلاوون وقد صُحِفَ اسمه إلى قليج أو مليج، عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 245.
 - 4- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تر: محب الدين الخطيب، ج 1، دار الكتب السلفية، ص 42.
 - 5- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 129.
 - 6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 114.

ثانيا - العلاقات في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685هـ-706هـ/1286م-1307م):

توطدت العلاقات المرينية المملوكية في عهد السلطان أبو يعقوب يوسف¹ الذي تولّى عرش فاس سنة 685هـ/1286م وتوفي سنة 706هـ/1307م وهو محاصر لمدينة تلمسان عاصمة بن عبد الواد²، وكان يعاصره في القاهرة الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون على ولايته الثانية من 689هـ/1299م إلى 741هـ/1341م.

وقد تجلّت معظم السفارات بحمل الهدايا الملكية وتبادل الرسائل السلطانية المتعددة الأغراض، خاصة منها ما تعلّق بالتوصية بركب الحجّاج، والذي أوكلت له في بعض الأحيان مهمّة نقل هذه الرسائل، بالإضافة إلى سفارات أخرى اختلفت أغراضها، ونسجّل في هذا العهد ثلاث سفارات خرجت من المغرب إلى مصر، وسفارة مملوكية وفدت على المغرب الأقصى³.

1. سفارة سنة 700هـ/1301م:

تعدّ هذه السفارة أول بعثة بادر بها ثالث سلاطين بني مرين إلى مصر المملوكية، حيث يذكر في هذا الصّد ابن خلدون قوله: "حضر في سنة سبعمئة وزير من المغرب في غرض السفارة"⁴، كما يضيف في نفس نفس الموضوع نصّا آخر ضمّنه كتاب الرحلة فيقول: "وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين أهدي لصاحب مصر عام سبعمئة وهو يومئذ الناصر محمد بن قلاوون، هدية ضخمة، أصحابها كريمة من كرائم داره، احتفل بها ما شاء"⁵، فقد أجمع التّصين على بعث السفارة المذكورة سنة سبعمئة للهجرة، إلا أنّ التّصين بمحمّلين غير مصرحين بالهدية أو عن قيمتها، بينما أفرد لنا ابن الخطيب نصّا في وصف الهدية، وما تألّفته من أغراض لا بأس بالإستشهاد به فيقول: "... فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل

1- أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، تلقب بالناصر لدين الله ولد سنة 638هـ ويريح له في الجزيرة الخضراء سنة 685هـ بعد وفاة أبيه، سار في الرعية سيرة حسنة، وأجاز للأندلس للجهاد وصالح صاحب غرناطة كما عمل على حصار تلمسان، مات مقتولا من قبل خصي من فتيانه سنة 706هـ، ينظر: ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص364، ابن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ص436-485.

2- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص17.

3- المنوي، المرجع السابق، ص130.

4- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ص416.

5- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف، المصدر السابق، ص371-372.

بلغت سبعمئة دابة" ¹، فانطلاقاً من هذا النص يتجلى لنا مدى قيمة هذه الهدية النفيسة، كونها تأتي في مقام التأسيس للعلاقات الأخوية بين الدولتين، لأنه من خلال الهدايا تقاس غنى الدول وقوة جانبها وسمو سؤدها. ولقد ترأس وفد السفارة الفقيه أبو الحسن التنسي ² والأمير الوزير علاء الدين أيدغدي الشهرزوري ³، الذي لفت انتباهه المكانة التي تبوأها أهل الذمة في الدولة المملوكية، فقام بإخطار الملك الناصر بعواقب هذا الأمر، ونصحه بإقصاء هذا العنصر من أجهزة الدولة ⁴، وهذا يدل على أن السفارة قد أدت أغراضاً أخرى غير التي صُرفت لأجلها.

2. سفارة سنة 703هـ/1303م:

انطلقت هذه السفارة من المغرب الأقصى مع ركب الحجيج بغرض التوصية بهم ⁵، ويفترض — استناداً لتاريخ السفارة — بأن البعثة التي سبقتها قد حققت رجاءها في ربط علاقات صداقة حقيقية بين الدولتين، وإلا لما انتدبها السلطان يوسف في هذه الفترة الغير طويلة، كما أن هذه السفارة أُرِدفت سابقتها بعد ثلاث سنوات بسبب الفتن والحروب التي شهدتها المغرب الإسلامي ⁶، وهذا ما دلّ عليه نصّ ابن خلدون التالي: " واستجدّ أهل المغرب عزماً في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بُعداً بمثلها" ⁷، فالمفهوم من هذا الكلام أن هذه السفارة قد استؤنفت معها رحلة الحج، بعد أن انقطعت مدّة بسبب بسبب الأحداث المذكورة، كما يفيدنا هذا النص، على أن إعادة إحياء هذا التقليد كان مبعثه شعبي، وهو أحد مظاهر السياسة المرينية ⁸.

كما اكتست هذه السفارة أهمية بالغة استناداً إلى الأهمية التي أولاها لها السلطان يوسف، وحرصاً على تجهيزها بعناية، استمرت أنموذجاً للركب بعده ⁹، فقد عين على رأس الوفد محمد بن زغبوش من أعلام المغرب،

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام...، المصدر السابق، ص 638-639.

2- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 334.

3- المقرئزي، السلوك، المصدر السابق، ص 09.

4- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ص 416.

5- نفسه، ج 7، ص 266.

6- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 116.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 266.

8- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131.

9- محمد المنوني، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المغرب، ترافقه فرقة عسكرية مكوّنة من خمسمائة فارس، سّماهم ابن خلدون بأبطال زنّانة¹، كما بعث معه أموالاً كثيرة لتوزيعها على سكان الحرمين الشريفين².

وقد رافق هذا الرّكب جماعة من رجال الصّلاح والعلم، الذين أوكلت لهم مهمّة جليلة ممثلة في حمل المصحف الشريف الذي أهداه السّلطان المريني، وأوقفه على الحرم المكي، بالإضافة إلى هدايا أخرى نفيسة، خصّ بها سلطان مصر الملك النّاصر محمد بن قلاوون وأمراء مكة والمدينة³، فعن البعثة الآتية الذّكر نذكر أبو عبد الله القصّار كبير علماء المغرب⁴، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم البقّوري⁵، وكان هذا الأخير المكلف بحمل الرّبعة القرآنية الشّريفة، حيث ذكر عن صاحب النّفح: "... أنّه قدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل، بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة..."⁶، فقد أفاد هذا النّص على أهمية المصحف المحلّي ضمن الوعد، والذي والذي أعدّ لغرض السّفارة، وعكّس الحرّمة والقداسة من جهة، كما عكس الصّورة الفنّية على الإخراج الرّاقى لهذه المصحف، الذي خصّص له السّلطان يوسف بن يعقوب أحد كتّاب دولته⁷ "... لاستنساخ مصحف رائق رائق الصّنع، كتبه ونقحه أحمد بن حسن الكاتب الحسّن، واستوسع في جرمه، وجعل غشاه من بديع الصّنع، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بحرّزات الدّر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا، واستكثر من الأصوّة عليه، ووقفه على الحرم الشريف"⁸ وقد وقف العالم العالم ابن مرزوق الخطيب على هذا المصحف الشريف، ووصفه في كتابه المسند بقوله: "وقد رأيت بمكة شرفها الله المصحف الذي بعث به المولى أبو يعقوب بخط ابن حسن، وكان وجهه محلّى بالذهب المنظوم

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص 226.

2- ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب... المصدر السابق، ص 284.

3- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص 212.

4- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 131.

5- نسبة إلى بقور بباء موحد مفتوحة وقاف مشددة، وهي بلد بالأندلس، سمع من القاضي الشريف أبو عبد الله محمد الأندلسي، ووضع كتابا سماه الحمال الأكمل للقاضي عياض، وله تعليق على كتاب القراني في الأصول، أرسل معه سلطان المغرب ختمة كبيرة بخط مغربي، ورجع إلى مراكش فتوفي بها سنة سبع وسبعين وسبعماية، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تر: محمد الأحمد أبو النور، ج2، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص 316.

6- أبو العباس أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تر: إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1988، ص 353. ابن فرحون المالكي، نفسه، ص 317.

7- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص 212.

8- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص 266.

بالجواهر التفسيرية، فانتزع ما عليه، وبقي في قبة الشرف، يُقرأ فيه احتساباً وقد قرأت فيه في أعواماً¹، أمّا كاتب هذا المصحف حسب ما ورد في المسند الصحيح، فهو أحمد بن حسن البلياني التلمساني، وهذا ما جعل اللبس يعتري المسألة كون أنّ السلطان يوسف بن يعقوب قد بعث بمصحفين اثنين، وهذا ما يذكره المقرئ في السلوك²، على أنّ المصحف المذكور قد بعث به سلطان المغرب سنة أربع وسبعمئة للهجرة، ولا يفصل في المسألة إلى رسالة صادرة عن يوسف بن يعقوب إلى كبير أشرف أمغار، يلتمس فيها المعونة بثلاثة رجال، ليتوجهوا إلى الحجاز مع من يتوجّه، لحمل الرّبعة القرآنية، وكسوة بيت الله الحرام، وقد كتبت هذه الرّسالة في 22 صفر عام 703هـ³.

3. نزول شريف مكة على السلطان يوسف سنة 704هـ/1304م:

تميزت العلاقات بين السلطان المريني أبو يعقوب يوسف وأشراف مكة المكرمة بغاية الطيبة، ولا أدلّ على هذا من وفادة لبدة بن أبي نمي، ابن صاحب مكة مع ركب الحجّاج العائد في ربيع الثاني سنة 704هـ/1304م، وهذا بعدما أقدم هذا الأخير على الخروج عن طاعة الملك الناصر محمد بعدما قام هذا الأخير بالقبض على أخويه حميضة⁴ ورميثة⁵ عقب وفاة أبيهم سنة 702هـ/1302م. وقد استبلغ السلطان يوسف في إكرامه وضيافته، وسرّحه ليجول في الرّحاب والضيّعات، ويسيح بين مختلف المناطق والقصور السلطانية أنّى شاء، وأوصى عمّاله باستقباله وإكرام وفادته، كما انبرى العمّال للعناية بالضيّف، وإتحافه بما يناسب قدره⁶، وبعد الانتهاء من هذه الزيارة، رجع شريف مكة إلى السلطان بتلمسان سنة 705هـ/1305م، ثمّ فصل منها إلى بلاده رفقة أحد أعلام المغرب⁷.

1- ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 476.

2- المقرئ، المصدر السابق، ج 2، ص 09.

3- المنوي، المرجع السابق، ص 132.

4- هو حميضة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعي، الشريف عز الدين الحسيني المكي، أمير مكة 720هـ/1320م، خرج عن طاعة السلطان المملوكي فقتل بمكة، ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق ج 5، ص 186.

5- هو رميثة بن أبي نمي، أسد الدين المكي الحسيني، تولى إمارة مكة حوالي ثلاثين سنة، وقع له مع إخوته حروب حتى وفاته بمكة سنة 746هـ/1345م، ينظر نفس المصدر، ج 5، ص 356.

6- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248، محمد المنوي، المرجع السابق، ص 132.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 226، المنوي، المرجع السابق، ص 132.

4. سفارة سنة 704هـ-1304م:

تعدّ سفارة سنة 704هـ-1304م، من أجل السفارات المرينية إلى مصر، والتي انتدب لها الأمير علاء الدين بن أيدغدي الشهرزوري¹، وكانت الهدية عبارة عن عدد من الخيل والبغال والإبل، وأصنافا من أواني المغرب وسائر طرفه من ذهب وفضة²، فقد بلغ عدد الجياد أربعمائة من العتاق جاهزة للقتال، يباهر بها في هذا العدد البغال الفارحة³.

ومن سحب السفارة مع الأمير الشهرزوري، العالم الفقيه أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان⁴، أمّا دليل هذه البعثة فكان أبو زيد الغفائري⁵، حيث انطلقت من المنصورة (تلمسان)، مقر الملك شهر ربيع الأول سنة 704هـ/1304م⁶، كما أكرم الملك الناصر وفادة هذه السفارة، وحرص على حسن استقبالها، وأنزل الوافدين الميدان، وقابل ركب الحجاج بأبلغ وجوه التّكريم، وبعث معهم أميرا من خاصته لمرافقتهم في طريقهم، حتى يقضوا فرضهم ومناسكهم⁷، كما استأذنه في ذلك الأمير الشهرزوري أن يحجّ بالمغاربة ويقضي فرضه، "... فأنعم له بذلك، وجهّز أيضا صحبته من أهله وأقاربه، وتبعهم جماعة كثيرة... ورتّب لهم ما يحتاجون إليه، ورسم للوزير والمباشرين أن يجهزوههم بكل ما أمكن"⁸.

- 1- كان هذا الأمير من المماليك الأكراد الشهرزورية، تم القبض عليه في عهد السلطان بيبرس البندقداري، فهرب ثم أبحر مع جماعة من المغاربة حتى وفد على السلطان أبو يعقوب فأكرمه واستطاع أن يتحدث معه في شأن الوزارة، وقد اتصف بأخلاق المغاربة لطول إقامته بينهم، انظر: المقرئ، السلوك... المصدر السابق، ج2، ص 09.
- 2- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج5، ص 40.
- 3- بن أبي الزرع، الأنيس... المصدر السابق، ص 285، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون.. المصدر السابق، ص 337.
- 4- كان التنسي ممن تصرف في الرسالة بين ملوك المغرب والمشرق، وكان محترما لدى السلطان أبو يعقوب يوسف، ينظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد...، ص 113.
- 5- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تر: محمد سيد جاد الحق، ج 1، مطبعة المدني، القاهرة، 1966، ص 454، ابن ثغري بردي، النجوم الزاهرة... المصدر السابق، ج8، ص 215.
- 6- ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص 226.
- 7- بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تر: محمد أمين، ج4، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1987، ص 346.
- 8- نفسه، الصفحة نفسها.

وقد أرّخ لهذه السفارة ابن الوردي بقوله: " ثم دخلت سنة أربع وسبعمئة فيها وصل من المغرب كثير، صحبتهم رسول أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني ملك المغرب إلى مصر بهدية عظيمة خيل وبغال نحو خمسمائة بسروج ولجم ملبسة بالذهب المصري ¹، فهذا النص يوضح لنا جلياً مدى الرفاهية التي اتّصفت بها هدايا المرينيين إلى ملوك مصر المملوكية.

وهذا ما أكّده ابن الخطيب بوصفه: " فبعث [أبو يعقوب يوسف] إليه [الملك الناصر] هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجل بلغت سبعمئة دابة".²

5. السفارة المملوكية إلى بلاد المغرب 705هـ-706هـ/1305-1306م:

في شعبان سنة 705هـ سار الركب المريني نحو بلاد المغرب، وتأخّر عنه السّفير المريني الذي كلف بمهمة مصاحبة هديّة السلطان المملوكي ³، وتعتبر هذه السفارة المملوكية مظهراً جلياً من مظاهر العلاقات المرينية المملوكية، حيث عمل الملك الناصر صاحب مصر على مكافأة السلطان المريني على هديته ابتداءً، بأن جمع من طرف وتحف بلاد المشرق وغيرها من الأصقاع ما يستغرب جنسه، من الثياب والحيوانات المستظرفة كالفيل والزرافة⁴، وانتدب لها من خيرة الأمراء المماليك على رأسها أميران يحمل كل منهما لقب "أيدغدي" وهما أيدغدي التليلي الشمسي، وأيدغدي الخوارزمي ⁵، وسيّر معهما جملة من الأغراض وخمسة عشر تترياً من الأسرى وخمسة مماليك أترك ونحو ذلك ⁶، وانطلقت هذه السفارة من القاهرة أواخر سنة 705هـ/1305م، ووصلت إلى تونس الحفصية في ربيع الثاني سنة 706هـ/1306م⁷، وفي جمادى الثانية وصلت إلى المنصورة بتلمسان ⁸.

1- ابن الوردي، تنمة المختصر، 2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969، ص 253.

2- ابن الخطيب، أعمال الأعلام... المصدر السابق، ج 1، ص 639.

3- المنوني، المرجع السابق، ص 133.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 248.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 119.

6- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 249.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر.... ج 5، ص 227.

8- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 119.

رغم كل ما حملته هذه السفارة من الطّرف والتّحف الأنفة الذكر، إلّا أنّها حملت معها مفاجأة عظيمة عاد بها أبو زيم الغفائري وأبو الحسن التنسي وجيها ركب الحاجّ المريني، حيث حملا معهما بيعة أشرف مكة المكرمة للسّلطان يوسف وشكواهم بصاحب مصر¹، وبعثوا مع البيعة بقطعة من كسوة الكعبة، سرّ بها السّلطان المريني، واتخذ منها ثوبا اسبطنه بين ثيابه تيمنا بمقام الكعبة المشرفة².

كما عمل السّلطان يوسف على المبالغة في إكرام الوافدين، واحتفل بمقدمهم أيما احتفال، وبعثهم إلى حواضر المغرب الأقصى كفاس ومراكش للوقوف على محاسن البلاد، ومشاهدة المنجزات السّلطانية، على نحو ما فعل بشريف مكة، ولعلّه كان تقليدا مرينيا من قبيل حسن الضيافة، أو أنّها سياسة مرينية ممنهجة لإبداء عظمة هذه السّلطة للوافدين، وفي هذا الشأن يذكر لنا ابن خلدون فيقول: "... أحفل مع أميرين من أمراء دولته [الملك الناصر] أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراكش للتراهة في محاسنها"³.

وقد أدركت المنية السّلطان يوسف بن يعقوب 706هـ/1307م، والوفد المصري بالمغرب، فأوكل الأمر إلى حفيده السّلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف⁴، الذي سار مع الوفد نفس سيرة سلفه، حيث حيث أحسن منقلبهم، وجهاز مسيرتهم بهدايا إلى الملك الناصر، وأوفد معهم ركبا من الحجاج من رعيته⁵، وعن وعن هذا الموضوع يذكر ابن خلدون: "وتقبل أبو ثابت لسنته من بعده في تكرمهم، فأحسن من منقلبهم وملا حقائقهم صلة وبرا، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع"⁶، ويمكننا القول أنّه ابتداء من عهد

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص248. رابع مغراوي، المرجع السابق، ص217

2- المنوني، المرجع السابق، ص133.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص372.

4- هو عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ولد سنة 683هـ وبويع له بعد وفاة جده في تلمسان 706هـ، لم يحكم سوى سنة ونصف، صالح أبا زيان العبدواي، كان جريئا سفاكا للدماء قطف رؤوس المتورطين، من قادته وأقربائه، من أهم إنجازاته البدء في مدينة تيطوان، عاجله الموت بطنجة، ينظر ردّ ابن الأحمر في شأن التنازل عن سبته وكان ذلك سنة 708هـ، ابن أبي الزرع، الأنيس...، المصدر السابق، ص389، الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص91.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج5، ص421.

6- رابع مغراوي نقلا عن العبر، المرجع السابق، ص219.

السُّلطان يوسف بن يعقوب، انتظمت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، واستمرَّ إيفاد رجال الدولة المرينية بانتظام لبلاد المشرق، وظلَّ الطرفان يتبادلان المحاطبات والهدايا والمكافآت¹.

إلا أنَّ عودة هذا الوفد المصري للأسف، لم يكن كما يرجو ويتشوّف، حيث عكّر صفو هذه الغبطة بين الدولتين، اعتراض طريق السفارة من قبل أعراب القفر من بني حصين²، الذين نهبوا أغراضها، ولم ينجو أصحابها إلا بشق الأنفس³، وربما تجرأ هؤلاء الأعراب بعد ورود خبر وفاة السُّلطان يوسف بن يعقوب، فإنّه بالعادة ما كانت ترجع أعمال الحراة وقطع الطريق كلّما ضعفت قوّة السُّلطان أو اشتدَّ الصّراع بين دويلات المغرب الإسلامي.

وقد احتجَّ السُّلطان المملوكي كثيرا عن هذه الحوادث، وبعث برسالة عتاب لبني زيان يعاتبهم فيها على عدم تأمين المسالك في المغرب الأوسط⁴، [وهذه من المفارقات التي وقفت عليها، كون المماليك يدركون الضّعف الذي طال بني عبد الواد، وحصار بني مرين لهم، ثم معاتبته عقب هذا الصّنيع] ومنذ هذه الحادثة، لم يعاود سلاطين المماليك إرسال السفارات إلى بلاد المغرب، رغم سعي المغاربة من بني زيان وبني مرين تهدئة جو التوتّر الحاصل في العلاقات بعد الحادثة المذكورة، والتي أرّخ لها ابن خلدون ولطبيعة الموقف بقوله: "... ولم يعاودوا بعدها سفيرا... وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤيدوا به، يهادنونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كلّه عن الخطاب شيئا"⁵، وبقي هذا العزوف المملوكي عن وصل بني مرين وإرسال السفارات إلى غاية دخول المرينيين إلى تلمسان سنة 737هـ/1337م⁶.

ثالثا - العلاقات في عهد السلطان أبي الحسن المريني (731هـ-749هـ/1331م-1348م):

يعدّ عهد السُّلطان أبو الحسن المريني العصر الذهبي للعلاقات المرينية المملوكية، إذ ناهزت عدد السفارات تسع سفارات مع معاصري هذا السُّلطان، ابتداء من عهد الملك الناصر محمد بن قلوون، ثم في عهد خلفه الملك

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص249.

2- هم أعراب القفر من بني حسن أو بني حصين بالمغرب الأوسط حسب اختلاف الروايات ينظر: رابح مغراوي، المرجع السابق، ص219.

3- رابح مغراوي، المرجع السابق، ص219.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص120.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص470-471.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص121.

الصالح أبو فدا إسماعيل، ثم أخوه الملك الناصر حسن¹، حيث عمل الطرفان على تجديد عهد المودة والصداقة، بعدما أجاب السلطان أبو الحسن المريني مبادرة الملك الناصر محمد في بعث العلاقات الطيبة بين الدولتين، نظرا لارتفاع العوائق عن ركب الحاج المغربي، وبعدها استتب الأمر للسلطان المريني بإخضاع تلمسان وبجاية سنة 737هـ/1337م².

وقد انتدب الملك الناصر للمبادرة الوزير أبو عبد الله محمد بن الجراح، بينما أجابه السلطان أبي الحسن عن طريق بعثة مغربية ترأسها أبو زيان فارس بن ميمون بن ودرار، الذي حمل رسالة تُسفر عن مشاعر الود والصداقة لملك مصر والشام والحجاز³، أما عن صفة وأغراض هذه السفارات، فمنها ما كان بغرض الدبلوماسية الصرفة، ومنها ما كان بغرض مرافقة ركب الحاج، وهذا تنوع ينم عن متانة العلاقات الطيبة بين الدولتين⁴.

1. السفارة المرينية إلى القاهرة عام 736هـ/1336م:

تُعَدُّ هذه السفارة الأولى في عهد السلطان أبو الحسن، وسبب مبعثها - كما ذكرنا - وهو استتباب الأمور، وإخضاع المغرب الأوسط من قبل المرينيين، وتأمين طريق الحج، حيث يذكر لنا ابن خلدون عن هذه الظروف السياسية قوله: "ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت وبقة منه، واستطاح بجناح سلطانه، خاطب صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح، وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم⁵". كما أكد على هذه الرسالة الأديب المؤرخ القلقشندي⁶.

ولم يحد لنا ابن الخطيب التاريخ الدقيق لبدء وبعث هذه العلاقات حيث يقول: " واتصلت بين الملك الناصر وبين السلطان أمير المسلمين بالمغرب الجليل القدر، الشهير الذكر، أبي الأملاك من بني مرين،

1- نفسه، الصفحة نفسها.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص251.

3- عبد الهادي التازي، نفسه، الصفحة نفسها.

4- المنوي، المرجع السابق، ص137.

5- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص223.

6- هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، ولد بإحدى قرى منطقة قليوب المصرية سنة 756هـ بلغ في علوم علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وعمل في ديوان هذا الأخير سنة 791هـ في عهد السلطان الظاهر بركات، توفي 821هـ، ينظر: أبو عمر محمد، نبذة عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من موقع www.ajury.com

وقدوة الملوك المجاهدين الصالحين، أبو الحسن نصر الله وجهه، وتوجهت إليه من بابه الكريم، الهدية الشهيرة. على أثر تملكه مدينة تلمسان عنوة حسبما يذكر، إذا أعان الله بالانتهاه إلى محل ذلك ¹. بالإضافة إلى ما ذكرناه من الظروف السياسية التي أدت إلى بعث العلاقات بين المغرب والمشرق، هناك أيضا ظروف ذاتية متعلقة بالجانب المريني، إذ كانت من غايات هذه السفارة ما عازمت عليه والددة السلطان أبو الحسن من حج بيت الله الحرام وزيارتها قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام والمسجد الأقصى، وهي المساجد التي تشد إليها الرحال في الإسلام ²، حيث أعرب الملك الناصر عن ابتهاجه وشرفه في خدمة الأميرة "عبر". كما حملت الرسالة الأخبار عن التحركات العسكرية المرينية في المغرب الأوسط والأدنى، وانتصاراتهم على نصارى الأندلس ³، حيث وصفت هذه المواطن بـ "معادن الفسوق وموطن العقوق ومقطن إضاعة الحقوق" ⁴.

ويمكننا القول إنه من خلال الوقوف على نص الرسالة وفحواها وما رأينا من نقل أخبار بلاد المغرب الإسلامي إلى الملك الناصر، نستشف مدى الإجلال والإحترام الذي كان يُكنّه السلطان أبو الحسن للملك الناصر، خاصة إذا تأملنا افتتاحية الرسالة المرينية، فالألقاب والتعوت التي خاطب بها السلطان المريني نظيره المملوكي تدلّ دلالة واضحة على أنّ الدولة المرينية اعترفت برسم الخلافة العباسية بالقاهرة ⁵: "... من عبد الله الله أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين وسلطان العدوتين أبي الحسن إلى السلطان... هازم جيوش الأرمن والفرنجة والكرج والتتر... خديم الحرمين ناصر الإسلام... ظهور الخلافة وعصدها.. ولي أمير المؤمنين..." ⁶.

كما يعرض لنا نص الرسالة طبيعة العلاقات الزبانية المرينية، والتي دلّت أنّ العداوة أقدم من قيام هذين الدولتين، متوارث خلفا عن سلف، وأرّخت كذلك لحصار تلمسان. "... وذلك أن أسلافه بني زيان] يعني السلطان الزياني[كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتوين

1- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص223.

2- المنوني، المرجع السابق، ص137. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص121.

3- المنوني، المرجع السابق، ص137.

4- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص251.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص122.

6- القلقشندي، صبح، المصدر السابق، ج8، ص88.

على ملك المغرب الأقصى وقائع، تورد الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون للمنازعة ويعودون للموادعة".¹ ثم يضيف قائلاً: "ثم لم يلبثوا أن ينكثوا، ولم يصبروا أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمّنا... أبي يعقوب... إياهم، فأكثر موهم وكدر محياهم، وتمادى بهم الحصار سبع سنين، وما كانوا غير شرذمة قليلين".² ثم تكلمت الرسالة استعانة النصرين بأبي الحسن ضد النصارى فأجابه إلى مرادهم وفي هذا الموضوع يذكر "وفي أثناء ذلكم، وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصارى أعداء الله... فجهّزنا معه ولدنا عبد الواحد إلى أربعة ألف من الأبطال... وأذاقت من جدهم من أهماج الأعلاج شرا وحسرا، إلى أن أسلموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله مزيد المؤمنين فتحا ونصرا".³

ثم عرّجت الرسالة من أحداث سجلماسة، وتحرك أبي الحسن إلى أخيه المتمرد فيها، بدعم من السلطان العبدواي أبو تاشفين عبد الرحمن حيث جاء فيها "و كنّا في هذه المدّة التي جرت بها هذه الأحوال، وعدت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة، محاولين إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصّلاح والفلاح، على التّفصيل والجملة، لعتائته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاذته صاحب تلمسان، ومساعدته على البغي والعدوان، فسَهّل الله افتتاحها، وعجّل من ضائعه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسّر الله تعالى من ذلك من بدائع الصنائع، ما يقصر عنه كل نعت ووصف".⁴

ومن هنا نرى في مستعرض هذه الرسالة تفاصيل على أحداث كثيرة وقعت ببلاد المغرب الإسلامي كدخول تلمسان والطريقة الدّموية التي تمّ بها، بالإضافة إلى الإطار الذي اختصّ به الحسن بعد منحه الأمان لكلّ من استسلم له من بني عبد الواد، كما أطلعنا بالكيفية التي قتل بها السلطان العبدواي أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل: " وتمكنت يد القهر من نواصيهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيهم، وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره، وفيهم ولداه مسعود وعثمان ووزيره موسى معينه على البغي

1- نفسه، ج 8، ص 90.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 124.

3- القلقشندي، المصدر السابق، ج 8، ص 91.

4- القلقشندي، نفسه، ج 8، ص 92-93.

والعصيان، وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فنكتفهم هنالك أولياء دولتنا العلية فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنيّة، ونبذت بالعراء أجسامهم"¹. إن ما يمكن ملاحظته عن فحوى الرسالة، أنّها تضمّنت تفاصيل الأحداث التي وقعت ببلاد المغرب الإسلامي، تفصيلا أتى على أدقّ العوارض التي حدثت بين المرينيين وخصومهم في هذه البلاد، في شكل تقرير مرفوع من السلطان أبي الحسن المريني إلى السلطان المملوكي محمد الناصر بن قلاوون، ومّا يلفت الانتباه هي الأسباب الخفية التي دفعت بالسلطان المريني إلى اطلاع نظيره المملوكي بهذه الوقائع والتفاصيل، وهذا ما يستدعي منّا طرح جملة من الأسئلة التي تشوب الأمر، فهل استندت إلى خدمة الممالك للحرمين الشريفين — كما تقدم — أم هي منطلقة من اعتراف السلطنة المرينية بالخلافة العباسية بالقاهرة، أم أنّها كانت طبيعية جاءت كنتيجة للعلاقات الودية والأخوية المتينة التي ربطت الدولتين.

وقد ردّ الملك الناصر على رسالة أبي الحسن برسالة جاء في مستهلّها تقديم التعزية للسلطان في والدته، وأكّد له احتفاء دولته بكل شيء يرد إليها من جهة المغرب المريني، كما أكّد له مدى رعايته للحرمين الشريفين، كما علّقت الرسالة على انتصارات جيوش بني مرين في الأندلس وما فتحه الله على يد سلطان المغرب في هذه البلاد، حيث يعدّ هذا من قبيل إعزاز دين الله عز وجل، ولم يفت الرسالة التّنويه إلى التّقليد الجاري في نقل سلاطين المرينيين أخبار المغرب إلى السلطنة المملوكية، والذي يعتبر تقليدا دأب عليه أسلاف أبي الحسن²، كما أفادت الرسالة كذلك خبر غزو الممالك لأرمينيا³.

2. رسالتان من الملك الناصر إلى أبي الحسن المريني مع وفد الحج:

لم تسفر لنا المصادر عن نصّ الرسالتين التي كلّف بها الملك الناصر الوفد العائد من رحلة الحجّ، حيث حملت رسالة أخرى اسم الشّيخين أبو عبد الله بن صالح، والشّيخ محمد بن لمعان، وكان موضوعهما يدور على الأرجح حول إعادة بعث العلاقات بين المغرب والمشرق، فقد ورد في الرسالة المذكورة ما يلي: " فأما ما ذكره [أبو الحسن] هي ورود الكتابين الواصلين إلى حضرته، صحبة الشّيخين الأجلين محمد بن عبد الله بن صالح والحاج محمد بن لمعان وأنه أمضى حكمهما وأجرى رسمهما، فقد آثرنا للأجر حوزة، واختبرنا بالشكر فوزه، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد أسباب الولاء على البعاد، وإلّا فمع وجود إنصافه،

1- نفسه، ص 96.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 128.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 252.

والحقوق من غاصبها تستعاد، والوقوف بنصره للمظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه اعتقاد، وقد شكرنا لكم ذلكم الاحتفال، وآثرنا حمدكم في المحافل والمحال " ¹.

3. سفارة عام 738هـ/1338م:

وفي رمضان سنة 738هـ/1338م وفد ركب الحجّ الذي جهّزه السلطان أبو الحسن على ملك مصر والشّام محمد التّاصر ²، فقد انتشرت أصدااء هذا الرّكب نظرا لما اصطحبه معه من رموز الدّولة وسادتها، ونخبة المرينيين وصفوقها، وخواص الإيالة الحسينية وكبارؤها من عريف ووَزَعه وكاتب وصاحب الباب وغيرهم ³، دلّ على ذلك قول ابن خلدون: " أوفد على الملك التّاصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر والشّام، من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف ابن يحيى أمير زغبه، وسابق في القدم على كل خالصة وعطية ابن مهلهل بن يحيى كبير خولة، وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مرين، وعريف الوزعة بدولته وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار " ⁴.

ولم تقتصر البعثة على ما ذكر في النّص، وإثما اصطحب معها الأميرة مريم حضية القصر المريني، التي تعتبر أحد زوجات والد السلطان، وتقوم مقام والدته، وفي هذا يضيف ابن خلدون قوله: " ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان اقترحت عليه جارية أبيه أبو سعيد، وكانت لها عليه تربية، فأرادت الحجّ في أيامه وبعنايته فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليّه عريف بن يحيى من أمراء سويد " ⁵.

كما أنّ السلطان نَحَا نحو سالفه أبو يعقوب يوسف في تحييس المصحف على الحرم النبوي، غير أنّه تميّز عنه بأن نسخه بخط يده، وجمع الورّاقين لتنميقة وتهذيبه، وأحضر القراء لضبطه وتهذيبه، وضع له من الأنبوس والعاج والصّندل بفائق الصّنع، وعُشّي بصفائح الذهب ورسّع بالجواهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد

1- المنوني، المرجع السابق، ص182.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص252.

3- رابع مغراوي، المرجع السابق، ص226. المنوني، المرجع السابق، ص143.

4- المنوني، نفسه، ص143.

5- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص373.

المرقوم المحكمة، زينتها خطوط الذهب، ومن فوقها أغلفة الحرير والديبا، وأغشية الكتاب، وقد أخرج من خزائنه الأموال التي عينها لشراء ضياع بالمشرق تكون وقفا على قراء الرّبعة القرآنية الشّريفة¹.

أمّا فيما يخصّ صفة الهدايا العينية التي بعث بها السّلطان أبو الحسن، فإنّها كانت فارمة للغاية، حيث يذكر ابن خلدون نصّين أتى على لوازم الهدية فيقول: " وذكر لي بعض قهارمة الدّار أنّه كان فيها، خمسمائة من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضّة وجمها، خالصا ومغشى وموه، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته، ومن نسخ الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون، وساذجا منمقا، ومن البرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللّمط، ومن خرثي المغرب وما عونه ما يستصرف بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت²، أمّا في كتابة التعريف والرحلة، فوصفه غير بعيد عما ذكر سابقا فيقول: " واصطحبوا هدية منه [أبو الحسن] للملك النّاصر احتفل فيها ما شاء، وانتقى من الخيل العتاق والمطايا الغره وقماش الحرير والكتان، والصّوف ومدبوغ الجلود النّاعمة، والأواني المتخذة من النّحاس والفخار المخصوص، كل مصر من المغرب بأصناف صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنّه كان فيها مكية من الآلي والفصوص، وكان ذلك وقر خمسمائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمسمائة فرس بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة بالذهب والآلي³.

أمّا فيما يخصّ مقدار الهدية التّقديّة التي صاحبت السّفارة، فقد بلغت عشرة آلاف دينار حسب ابن خلدون⁴، يزيد عن قيمتها ما ذكره المقرئ في السلوك بأنّها بلغت مائة ألف دينار مصري⁵.

وقد خلّفت هذه السّفارة أصداء واسعة بالمشرق ولدى الجهة المصرية على وجه الخصوص، حيث احتفل بها الملك النّاصر أيّما احتفال وتحدّث النّاس بهذه الهدايا⁶ دهرا - على حسب تعبير ابن خلدون - وربّما وربّما استطاع السّلطان المريني تجهيز هذا كلّ بعدما دان له المغريين.

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص252.

2- رابح مغراوي، المرجع السابق، ص227.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص373.

4- رابح مغراوي، المرجع السابق، ص228.

5- المقرئ، السلوك... المصدر السابق، ج2، ص44.

6- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص373.

وعلاوة على ما ذكر من أبهة هذه السفارة — التي بلغ فيها الإنفاق والتّرف ما عجب منه أهل المشرق — فإنّ السلطان أبو الحسن بعث رسالة نصّية توصي بالحجيج المغاربة¹، مع الرّغبة في إيصال الرّبعة القرآنية للمسجد النبوي الشريف.

وقد أجاب الملك الناصر نظيره السلطان أبو الحسن بهدية مكافئة لتلك التي بعثها هذا الأخير، ما يشهد بنجاح المهمّة السّفارية المغربية، وما يكافي هداياه المستلغة " ولما فصل أرسال ملك للمغرب، وقد قضوا فرضهم، بعث الملك الناصر معهم هدية لقاء هديتهم وكانت أصنافها حمل قماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية... وعشرة من عتاق الخيل بالمرائب الذهبية الثقيلة ولجمها كذلك... وعينت يومئذ أصناف تلك الهدية"² إضافة إلى أحجار الياقوت، مائتان وخمس وعشرين من قصب الزمرد مائة وثمانية وعشرين، وثلاثة آلاف من حبوب الجواهر الفاخر، والسيّوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة، وسروج مخرزة بالفضة، وحلل كثيرة، وعشر وقايات مذهبة وغيرها من التّحف ما جعلت أبو الحسن يحتفل بها أياما عديدة³.

وعلاوة على ما ذكر من أصناف التّحف والطّرف المشرقية، وجد من بينها هدية أثارت إعجاب واستغراب السلطان أبو الحسن، وهي الخيمة العملاقة المصنوعة في بلاد الشام على منوال القصور السلطانية الفخمة، ذات المرافق الملوكة المتعدّدة، إذ يصف ابن خلدون هذه الخيمة بقوله: " وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام، على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقدة وأواوين للجلوس والطبخ وأبراج الإشراف على الطرقات وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده، ومئذنته حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الأشكال، التي يقترحها المتخذون لها، وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل عالية السّمك مخروطة الرأس رحبة الفناء تظل خمسمائة فارس أو أكثر"⁴، وقد ضربت هذين القبتين بالصفصيف، وحلّ فيها جميع الهدايا، وصفّت فيها جميع جميع الدّواب بجهازها أمام القبتين⁵.

1- المقرئزي، السلوك... المصدر السابق، ج2، ص 447.

2- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 374.

3- المنوي، المرجع السابق، ص 150-154.

4- ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص 374.

5- المنوي، المرجع السابق، ص 150، السلاوي، الاستقصا... المرجع السابق، ج3، ص 130.

وقوفا على ما ذكرناه من الهدية المملوكية السّالفة الذّكر، فإنّ الملك النّاصر كان يرّد على الرّسائل المرينية، ويستخدم في مخاطبة السّلطان أبي الحسن الألقاب السّلطانية التي كانت تفيض مودّة وأخوّّة واحتراما متبادلا، كما تضمنت الرّسالة التي أصبحت الركب المغربي العائد من الحج، دعوة من السّلطان النّاصر إلى أبي الحسن لأداء فريضة الحجّ وزيارة بيت الله الحرام، وروضة المصطفى صلى الله عليه وسلّم¹، ثمّ أردف السّلطان المغربي أبو الحسن سفارتين سنتي 739هـ/1339م و740هـ/1340م وهما الأخيرتين اللّذين استقبلهما السّلطان المذكور محمد النّاصر بن قلاوون قبل وفاته سنة 741هـ/1341م، بعدما جلس على عرش المماليك مدة طويلة وعاصر خمسة من سلاطين بني مرين، غير أن وفاته أدّت إلى انقطاع العلاقات ردحا من الزمن نتيجة للفتن الداخلية، والاضطرابات التي أدّت إلى فقدان الأمن عبر المسالك والطرق، والتي عادت ما كانت تسلكها هذه السّفارات ووفود الحجيج، بدليل ما ساقه إلينا ابن خلدون بقوله: " واتصلت بينه [أبو الحسن] وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين"².

وعليه فقد علّقت السّفارات ووفود الحج المرينية إلى البقاع المقدّسة، إلى غاية استتباب الأمن، واستقرار الأمر لنجل الملك النّاصر الملك الصالح أبو الفداء إسماعيل، الذي جلس على العرش المملوكي سنة 743هـ/1343م، لتستأنف المراسلات والعلاقات بين الدولتين من جديد بعد سنتين من توليته³.

4. سفارة سنة 745هـ/1345م:

بعد فتور العلاقات المغربية المشرقية، بسبب وفاة الملك النّاصر، وبانتفاء العوائق العارضة، التي حالت دون الرّوابط السّلطانية، أعيد بعث هذه العلاقات في عهد خلفه الملك الصالح إسماعيل⁴، وذلك ابتداء من سنة 745هـ/1345م حيث بادر السّلطان أبو الحسن المريني ببعث وانتداب كاتبه أبو الفضل بن أبي

1- المنوي، نفسه، ص155.

2- راجع مغراوي، المرجع السابق، ص230.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص129.

4- الملك الصالح عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن معبد بن قلاوون، تولى الأمر بعد والده الملك الناصر، كان محبا للعلم والعلماء، وله إنجازات مشهورة في باب تحسين المدارس، ابن غني بردي، المنهل الصافي... المصدر السابق، ج2، ص225-227.

مدين¹، في إيصال رسالة للسلطان المملوكي، افتتحها بتعزيتة في والده الملك الناصر، وأعقبها بتهنئته على توليه الديار المصرية والشامية والتوصية بركب الحج المريني كما جرت عليه العادة مع أسلاف الملك الصالح².

كما أن الرسالة قد أسهبت في الحديث حول الأحداث الخطيرة التي جدت بالأندلس بين ألفونس و الحادي عشر - ملك قشتالة - وبين السلطان أبي الحسن³، وذكر الأسباب القاهرة التي أدت إلى تسليم الجزيرة الخضراء وحياسة جبل طارق⁴، كما استوصت الرسالة بالمبعوث المريني أبو عبد الله بن أبي مدين لدى الملك الصالح، والذي عهد إليه بتفقد الأوقاف المغربية المحبسة في الحرمين الشريفين⁵.

وقد أجاب الملك الصالح على كتاب السلطان أبو الحسن برسالة أخرى بتاريخ ست رمضان 745هـ - 1345م يشكره على مواساته بفقد والده، مبديا له ارتياحه من وراثته لأخوة السلطان المريني من والده الملك الناصر، فالوفاء لعهد المودة، يعد من قبيل الوفاء للوالد⁶.

كما طمأنت الرسالة السلطان المريني على المهمة التي كلف بها السفير أبو المجد في الوقوف على الأحباس المرينية بالحرمين الشريفين، ثم تبدي الرسالة على لسان السلطان المملوكي الأسف على سقوط الجزيرة الخضراء والتكبة التي حلت بالأسطول المريني، وبالمقابل فإنه أبدى له اغتباطه وفرحته لاسترجاع جبل طارق⁷، وقد قام الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الشافعي بتحرير نص الرسالة على لسان ومراء الملك الصالح المملوكي⁸.

5. سفارة عام 747هـ/1347م:

تعدّ هذه السفارة آخر سفارة مرينية سجلت على عهد السلطان المريني أبو الحسن قبل وفاته، مع ما وقع فيها من لبس في الحزم بتاريخها المحدد، حيث تأرجحت الأقوال بين سنوات 746هـ/1346م أو

1- هو أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني الفقيه الكاتب الشاعر، سماه ابن خلدون صاحب ديوان الخراج وكاتب الجباية والعساكر، كان شاعرا أدبيا وطالبا لبيبا وكاتبا مصيبا، ذو سمة وظرف وشكل وسيم، المنوني، المرجع السابق، ص 157.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

3- عبد الهادي التازي، نفسه، ص 255.

4- المنوني، المرجع السابق، ص 163.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255.

6- المنوني، المرجع السابق، ص 163.

7- نفسه، ص 164. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 258.

8- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

747هـ/1347م¹، ومن المؤرخين من يجعلها سنة 749هـ/1349م أي أنها أرسلت خلال دخول أبو الحسن المريني إلى تونس شهر ربيع الأول 749هـ/1349م².

أمّا عن موضوع السفارة، فهو طلب مريني من السلطان المملوكي الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، مثلاً في القبض على الشيخ محمد بن تافراجين التينملي الذي كان من حجاب السلطان الحفصي أبوبكر بن أبي زكرياء، بعدما فرّ إلى مصر، غير أن السلطان المملوكي لم يجب طلب السلطان أبو الحسن لاستجارة المذكور ببعض الأمراء المماليك، وانصرافه لأداء فريضة الحج³.

كما اصطحب الركب المصحف الثالث على شاكلة المصحفين المذكورين اللذين أوقفاً على الحرمين، حيث خصّ هذا المصحف الثالث، ثالث الحرمين الشريفين أي أوقف على بيت المقدس⁴ ومنهم من ذكر مصحف رابعاً خصص للمقام الخليلي⁵، وقد أفاد المقرئ في التفح بأنّه وقف على هذا المصحف إلى غاية القرن الحادي عشر⁶.

وكما جرى عليه العمل والتقليد من قبل السلاطين المرينيين وعلى رأسهم أبو الحسن، فإنّ هذه السفارة لم تشذّ عن سابقاتها من الاستكثار في إكرام صاحب مصر بالهدايا، فهذا ابن خلدون يطلعنا على جانب منها حيث بلغت: "... خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة وجمها خالصاً ومغشى، وخمسمائة من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسيج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وأزرا معلمة وغير معلمة..."⁷.

وبطبيعة الحال فقد أكرم السلطان المملوكي الوفد المغربي، وذلك له طريقه إلى مكة بأنواع البرّ والمكرمة، وأسنى لهم هدية كريمة من ثياب الإسكندرية بديعة النسيج، المروقة بالذهب، وأرجعهم إلى مرسلهم، بعد أن استبلغ في إكرامهم وصلتهم⁸.

1- المنوني، المرجع السابق، ص 167.

2- الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج 2، ص 79. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 130.

3- عبد الرحمن بالأعرج، نفسه، الصفحة نفسها.

4- المنوني، المرجع السابق، ص 167.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 255.

6- المقرئ، نفح الطيب... المصدر السابق، ج 2، ص 547.

7- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج 7، ص 265.

8- المنوني، المرجع السابق، ص 172.

وبعد إخضاع أبي الحسن تونس لسلطانه، عزم في نسخ مصحف آخر ليوقفه على الأقصى المبارك، فلم يقدر على إتمامه بسبب منيته، وبذلك فلم تتحقق سِفارة كانت سترسل مع هذا المصحف الجليل - على عادة سلاطين بني مرين - ومع هذا فقدت وضعت لاحقا الأجزاء الخمسة والعشرين من هذا المصحف - الذي خطّه أيضا بخط يده - أوائل عام 753هـ/1353م¹.

وبموت أبي الحسن المريني تطوى صفحة مشرقة جدًا في العلاقات المغربية المشرقية، والتي بلغت الذروة في عهد هذا السلطان.

رابعا - العلاقات في عهد السلطان أبو عنان فارس (749هـ-759هـ/1348م-1358م):

انتهج السلطان أبو عنان فارس نهج أسلافه إزاء العلاقات بين بني مرين والمماليك، وحافظ على جوّ الأخوة وربط العلاقات الحسنة مع سلاطين المشرق، بعد أن صار له الأمر سنة 749هـ-1348م، فقد وجّه السلطان أبو عنان القاضي أبو القاسم محمد الغساني الرجعي الغرناطي²، على رأس سفارة مرينية أيام السلطان أبو المحاسن التّاصر حسن بن الملك التّاصر، وكان الغرض من هذه البعثة هو إيصال رسالة شعرية ونثرية إلى الروضة النبوية جاء في مستعرضها: إن أسباب الجهاد القاهرة هي التي حالت دون وصول السلطان إلى الأراضي المقدسية لتأدية مناسك الحج³.

كما أن أبو عنان قد أوقف في الحرم المقدسي أربعة قرآنية، وعين لقراءتها ثمانية عشر نفسا، خمسة عشر منهم من حفاظ كتاب الله، واشترط أن يكونوا من المغاربة المالكيين، وخادمين وجّاب، وأجرى عليهم من الأعطيات سبعة عشر سهماً لكل نفر، عدا سهم واحد يقتسمه كل القادمين⁴.

يضاف لجملة الأوقاف المذكورة من السلطان أبو عنان وأسلافه من سلاطين بني مرين، وقف حمام كامل البناء بمدينة الرملة وعمارة حانوتين وبئر ماء وبساتين بجوار هذا الأخير، وانتدب لهذا كلّه، وكيلا وأشهد على عقد هذا الوقف⁵.

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص130.

2- المنوني، المرجع السابق، ص218-219.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص258. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص131.

4- المنوني، المرجع السابق، ص174.

5- نفسه، ص175.

ومن مظاهر التواصل بين المغرب والمشرق أيام السلطان أبو عنان فارس ما ورد عن وصول غراب (أي سفينة) رست بسبته قادمة من الإسكندرية محملة بما اقتناه من بضاعة الشرق وطرفه¹، وربما هذا الأمر يدلنا على العلاقات الاقتصادية بين المغرب والمشرق، فإن الدليل يعوزنا في كون هذه البعثة كانت رسمية.

خامسا - العلاقات في عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز الأول:

قد نهج السلطان أبو فارس عبد العزيز الأول 767هـ-774هـ/1367م-1374م، نهج أسلافه، بعد اعتلائه سدة العرش المريني خلفا لأخيه أبو عنان فارس، فكان على اتصال مع دولة المماليك، خاصة مع معاصره السلطان الأشرف شعبان بن التاصر حسن 764-778هـ/1363-1377م².

ونلاحظ من خلال سياسة سلاطين بني مرين اتجاه المشرق، أن كل بادرة حسنة، كان يتبع فيها الخلف السلف، وجعلها سنة حميدة تُتبع لدى كل صاحب شأن في البلاط المريني، بدليل ما قام به السلطان أبو فارس عبد العزيز في بعث رسالة منظومة إلى الروضة النبوية بطيبة، على شاكلة رسالة أبو عنان، تحدث عنها ابن أبي حجلة بقوله: "فقد وقف المملوك... على الرسالة الملكية السلطانية الفارسية العزيزية، المجهزة إلى الحضرة النبوية، المفتحة بالأبيات الدالية... وانتهى إلى ما أنجز في ذيلها من الصراعة والظمأ، إلى صاحب الخوض والشفاعة... فقد بلغ برسائله التي قرأت بحضرة الرسول، وهبت عليها نسمة القبول"³.

كما أورد القلقشندي مقتطفًا من رسالة في شكل جواب من السلطان المملوكي الأشرف شعبان، دون أن يطلعنا على محتواها وهذا له دلالة قاطعة على التواصل المتين والودّي الذي جمع الدولتين⁴، وبالرغم من سكوت المصدر عن الموضوع الذي حملته على بعث الرسالة، فربما تكون تلك المكاتبة التي رفعها المماليك إلى السلطان

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص258.

2- ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج5، ص453-465.

3- المنوي، المرجع السابق، ص184.

4- القلقشندي، المصدر السابق، ج7، صص415-416.

المريني أبو فارس، جاءت قصد إعانتهم على القبارصة الذين شنوا هجومهم على الإسكندرية عام 767هـ - 1366م¹.

فالمصادر المصرية تكشف لنا وجود شخصية من المغرب الأقصى، وهي شخصية الرئيس إبراهيم التازي² الذي استقبله السلطان الأشرف شعبان، وكلفه برئاسة دار الصناعة وفتح قبرص، بعد أن أبحر من الإسكندرية سنة 769هـ/1368م، في قارين فقط، دون اللجوء إلى مقترح السلطان في إمداده بمائة قارب³، وهكذا فقد عاد ابتداء إلى ميناء الإسكندرية يوم تسع شعبان بزورق كبير غنمه هذا الرئيس، واحتفظ بمن فيه من القراصنة المسيحيين في الزورقين اللذين صحباه في فتحه، وكان لهذه الواقعة الأثر البالغ لسكان الإسكندرية، حيث ارتجت هذه المدينة فرحا وغبطة من هذا لإنصار الكبير⁴.

وقد وردت رسالة تهنئة على السلطان المملوكي من قبل السلطان المريني أبو فارس نتيجة لهذه الواقعة المشرفة، يهنئه برفع الضيم عن الأراضي المصرية⁵.

سادسا - العلاقات في عهد السلطان أبو العباس أحمد وابنه أبو عامر:

انبرى السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم للشأن المريني بين 775-786هـ/1373-1384م ثم 789-796هـ/1387-1399م بينما اعتلى الأخير العرش بين سنتي 799-800هـ/1397-1398م.

وقد تزامن حكم هذين السلطانين مع ظهور دولة المماليك الشراكسة، وأول سلاطينها الملك الظاهر بريقوق، والذي استقام له الأمر من عام 784/1382م إلى عام 801/1398م⁶، فقد تمت المهاداة بينهما وبين السلطان المملوكي، الذي أراد أن ينتقي من خيل المغرب، وانتدب لهذه المهمة أحد المماليك الخبراء

1- دخل القبارصة (سكان جزيرة قبرص) الإسكندرية 22 محرم 767هـ وهي خالية من الجيش المملوكي، حيث عاثوا فيها فسادا وأسروا نحو 4000 أسير، واستولوا على أموال وسبوا النساء وأحكموا السيطرة عليها زهاء الأسبوع، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص ص 252-253.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص132.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص259.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع نفسه، ص132.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص260.

6- سيد باز العريني، المرجع السابق، ص268.

بشؤون الخيل يدعى قطلوبغا¹، وذلك بعدما أبطأ عليه وصولها، وقد حمل الملك الظاهر لهذا الأخير مهمة حمل الهدايا إلى السلطان المريني أبو عامر علاوة على إيصال هدايا أخرى مخصصة بصاحبي تونس وتلمسان². كما وصلت حالة الود والإخاء مبلغها بين الدولتين، دلّ على ذلك مسألة الوساطة والشفاعة التي أمضاها سلطان الماليك لدى السلطان المريني أبو العباس أحمد، والمخصصة بحق شيخ عرب المعقل، الذي فرّ من سخط السلطان المريني المذكور، حيث اتصل بالسلطان المملوكي بعد أداء فريضة الحج، فجهّز له هذا الأخير هدية وأرسله إلى موطنه بعد أن بعث رسالة إلى فاس يلتمس فيها الشفاعة لشيخ المعقل والمعروف بيوسف بن علي بن غانم³، وقد تمّ مراد السلطان المملوكي، ممّا يدلّ على المتزلة التي بلغها السلاطين الماليك لدى السلاطين المرينيين.

سابعاً - العلاقات في عهد أبو سعيد عثمان الثاني (800هـ-823هـ/1398م-1420م) :

كان للهجوم المغولي على بلاد الشام دور كبير في دفع وتيرة العلاقات المرينية المملوكية في عهد السلطان أبو سعيد عثمان، الذي عاصر السلطان المملوكي الناصر فرج بن الظاهر برقوق والذي كانت فترة حكمه من سنة 801هـ/1399م إلى 815هـ/1412م⁴، وقد احتفظ لنا القلقشندي على نص رسالتين متبادلتين في هذا هذا العهد إحداهما مغربية وأخرى مشرقية⁵.

فقد بادرت الرسالة المغربية بتهنئة الملك الناصر فرج من إيقاف الزحف المغولي بقيادة تيمورلنك بالشّام ، وما عزم عليه السلطان المريني في صدّ العدوان المغولي في حالة استمراره⁶، كما قام عبد الرحمن بن خلدون بالدور الأساس في نقل هذه الأخبار إلى السلطان المريني، كونه شاهد عيان لهذه الأحداث، حيث رافق الناصر فرج إلى الشام وشهد المناوشات الأولى بين الجيشين المملوكي و المغولي بظاهر دمشق سنة 796هـ-

1- (قطلو) نعت مشهور الاستعمال في أواسط آسيا معناه المبارك ويأتي بعده النعت (بغا) أو (بوغا) ومعناه الفحل أي بمعنى الفحل المبارك، عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص260.

2- المنوني، المرجع السابق، ص185-186.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص260. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص133.

4- سيد باز العريبي، المرجع السابق، ص268.

5- القلقشندي، صبح الأعشى... المصدر السابق، ج8، ص ص103-106.

6- المنوني، المرجع السابق، ص 167.

1394م¹، هذا بعدما قتل السلطان الناصر فرج رسل تيمورلنك واتفق مع العثمانيين على صدّ الهجوم المغولي².

وبعد أن باغتت فتنة السلطان المملوكي والتي اضطرتّه على أثرها للانسحاب إلى الديار المصرية³، نذكر أن القضاة والفقهاء ومن حملتهم ابن خلدون - اتفقوا على طلب الأمان من تيمورلنك الذي أجاهم بذلك - وهكذا وجد ابن خلدون نفسه أمام هذا القائد العظيم، الذي استقبله بصفته قاضي المالكية بمصر، حتّى قيل أنه كان يرتدي زيّ المغاربة في هذا اللقاء⁴، وكان الترجمان بينهما هو الفقيه المعتزلي عبد الجبار بن النعمان الحنفي الحنفي الخوارزمي (ت 808هـ/1406م)⁵ حيث دار بين تيمورلنك وابن خلدون حديث مطول، كان محوره هو التعريف ببلاد المغرب وأشهر مدنها، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل إنّ السلطان المغولي طلب من ابن خلدون أن يؤلّف له كتابا يدقّق له تفاصيل ما ذكر، وقد استجاب له هذا الأخير إلى مراده⁶، واستطاع أن يصرف شرّه بفضل فطنته وكياسته، حيث سمح له بالعودة إلى مصر، ومنها عجل في تحرير رسالة إلى السلطان المريني يفصّل له فيها ظروف الحادثة، ويعرّفه بتاريخ المغول، ويطلعه على الأحداث التي حدثت بالشّام⁷.

ويظهر من خلال ما حدث مع ابن خلدون، أن السلطان تيمورلنك، كان يحاول أن يجمع صورة مجملة عن بلاد المغرب الإسلامي، إذ أنّها البلاد التي تلي الديار المصرية مباشرة، وملاحظتها تكاد تكون منعقدة لدى هذا العنصر الشرقي، يُعزّز هذا الرأي، التّساؤل الذي يطرح بخصوص الفائدة التي يجنيها قائد منهمك بالتوسّعات والحروب في المشرق، من مؤلّف يتحدّث عن بلاد بعيدة، كما يتجلّى من خلال رسالة ابن خلدون، أنّها كانت جوابا على كتاب سابق بعث به السلطان أبو سعيد لابن خلدون.

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص261.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص155-156.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص728-729.

4- المقرئ، نفح الطيب... المصدر السابق، ج2، ص521.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص134.

6- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص261.

7- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص135.

وبعد انقلاب السلطان المملوكي إلى القاهرة — عقب الأحداث المذكورة — راسل سلطان المرينيين برسالة من إنشاء القلقشندي¹، تفيد بوصول السفير المريني، وإحاطة جنابه بالأحداث التي اعترت معسكر المماليك، من إشاعة مفادها أن التتر قد زحفوا على مصر، مما اضطر السلطان إلى العودة إلى مقر الحكم لحماية الدولة²، وانتهى الموقف بالمفاوضة بين الجانبين، وتوج بالصّح وانتفاء الخطر التتري عن أراضي الدولة المملوكية³.

ولقد رأينا من خلال هذا الاستعراض للعلاقات المغربية الشرقية حسب ما توفّر لدينا من معلومات يفهم من خلالها أن السّمت العام الذي جرى عليه سلاطين بني مرين ونظرائهم من المماليك، هو العلاقة الأخوية، والتّقارب في وجهات النّظر حول قضايا العالم الإسلامي، سواء ما تعلّق بمغربه أو مشرقه، كما أن البعثات المغربية عنيت كثيرا برحلة الحج والتّحسيس على الأماكن المقدسة، وكان للمهاداة القسم الأكبر في الإسفار عن عمق المودّة والأخوة الحاصلة بين الطّرفين، وما بلغته من رفاهية يندesh أمامها المترفون.

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص262.

2- المنوني، المرجع السابق، ص188.

3- القلقشندي، المصدر السابق، ج7، ص ص 407-411.

الفصل الثالث

الأوضاع الثقافية في الدولتين المرينية والمملوكية

أولاً - عناية سلاطين الدولتين بالحياة الثقافية

ثانياً - المؤسسات التعليمية

ثالثاً - التعليم وأصناف العلوم

أدّى استقرار الإسلام في البلدان المفتوحة، إلى انفتاح أهلها على العلوم المختلفة، انطلاقاً من دراسة العلوم الدينية ابتداءً¹، ثمّ التفتّح والمشاركة في مختلف ضروب العلم الأخرى، فانطلقت الحركة الفكرية والثقافية الإسلامية مشرقاً ومغرباً، وتجسّدت في حضارة راقية أرخت ظلالها على العالم الإسلامي قاطبة، وأضحت المعين الأساسي لفكر البشرية وعقلها ووجدانها ونمط حياتها²، وذلك بفضل تفاعل وإجماع جلّ شرائح المجتمع الإسلامي - حكّاماً ومحكومين - على العناية بالعلم وأهله، وأخذت حركة التعريب تسري في هذه المجتمعات باعتبارها أداة العلم، وما فتأت أن تبلورت الحياة الثقافية في المجتمعات الإسلامية، حتى أضحت حواضرها محطّ أنظار طلبة العلم بمختلف شرائحهم وفتاتهم، ما جعل العالم الإسلامي يصدر الأمم ذلك الوقت، ويعدّ رافداً علمياً نلت منه معظم الأمم الأخرى، وهذا نظراً لجملة من العوامل نذكر منها:

أولاً - عناية سلاطين الدولتين بالحياة الثقافية:

عرفت الفترة ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين / 13م-15م ازدهار ثقافياً ونشاطاً علمياً ملحوظاً، رغم ما كانت تعانيه هذه الفترة من اضطرابات سياسية، فبرزت عدّة حواضر علمية مغرباً ومشرقاً كفاس ومراكش ومكناس والقاهرة والإسكندرية ودمشق والقدس والحجاز، والتي عُدت من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والديني، وهذا راجع بالأساس إلى انتشار المؤسسات التعليمية كالمساجد والكتاتيب والمدارس، علاوة على الجامعات العريقة كالقرويين بفاس، والأزهر بالقاهرة، والزيتونة بتونس، والتي كان لها دور محوري في بروز العديد من العلماء و انتشار شتى أنواع التخصصات العلمية.

وقد اهتمّ ملوك وسلاطين الدّول الإسلامية في المغرب والمشرق بمختلف جوانب الحركة الفكرية، وهذا ما نجده من الدّولة المرينية، حيث جعل ملوكها من حواضر المغرب الأقصى منارات علمية، فكان لهم قسط وافر من الانجازات في المجال الثقافي وإنشاء المدارس والزوايا وإلحاق خزائن الكتب بها، ومجالسة أهل الصّلاح والعلم والاقتداء بنصائحهم³.

1- يوسف عابد، المرجع السابق، ص110.

2- - بن خيرة نجيب، الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما وراء النهر) بين القرنين الثالث والخامس الهجريين 205- 432 هـ/ 820- 1040 م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، 2004 م، ص174.

3- محمد المنوني، المرجع السابق، ص234.

فكان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق يجلس إلى العلماء بعد صلاة الفجر، ويحب أن تقرأ بين يديه كتب السير والفتوحات، ويستمتع إليها ويناقش الحاضرين في مسائلها، وكان في رمضان يذاكر العلماء على فنون العلم إلى ثلث الليل الأخير¹، أما ابنه الأمير أبو مالك عبد الواحد (ت 672هـ/1271م) فكان محبا للأدب والتاريخ والشعر، عارفا بالأنساب²، ونفس الشأن نلمسه في خلفه أبو ثابت، فقد نهج طريق أسلافه في حضور مجالس العلم ومجالسة العلماء، وكان السلطان أبو سعيد الأول معدودا من العلماء أصلا ومشاركا في جملة من العلوم³، ويذكر لنا ابن مرزوق الخطيب في كتابه المسند فيما يذكر عن أبي الحسن، أنه كان محبا لأهل العلم والأولياء، لذا فقد اتخذهم خاصته وبطانته، وكان يناقشهم في المسائل العلمية ويشاورهم فيما استعصى عليه من الأمور، كما كان حريصا على جلب أجل العلماء من الأصقاع المختلفة لبلاطه⁴، أما ابنه أبو عنان فارس فعلا أصلا من العلماء، ويتجسد هذا من خلال ما وُصف به من قبل ابن الأحمر في الروضة فيقول: "كان فقيها يناظر العلماء الأجله، فيصيب ويخطئهم، و معرفته بالفقه تامة، كان عارفا بالمنطق و أصول الدين وله حظ صالح من العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن، عارفا بناسخه ومنسوخه كثير التمثيل بآيه، حافظا للحديث، عارفا برجاله، فصيح القلم كاتبا مراسلا، بليغا بارع الخط حسن التوقيع"⁵، هذا فضلا عن المنشآت الثقافية التي تم بناؤها و تشييدها بفاس وغيرها من حواضر المغرب الأقصى.

أما عن دولة المماليك فإنها لا تشدّ عن قاعدة تشجيع سلاطينها للعلم والعلماء، فرغم أنهم لم يكونوا من أصول عربية، إلّا أنهم شاركوا في النشاط الثقافي لدولتهم، وذلك بالإنفاق على العلماء والطلبة وتأسيس الأوقاف وإنشاء المؤسسات الثقافية، كما شارك السلاطين والأمراء في الحياة العلمية مشاركة فعالة، فاشتهر منهم الظاهر بيبرس البندقداري بميله إلى التاريخ وأهله⁶، كما اشتهر من السلاطين السلطان المؤيد شيخ

1 - ابن أبي الزرع الفاسي، المصدر السابق، ص264.

2 - مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية..، المصدر السابق، ص154.

3 - المنوني، المرجع السابق، ص235.

4 - ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح..، المصدر السابق، ص260.

5 - إسماعيل بن الأحمر، المصدر السابق، ص27-28.

6 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج7، ص182.

المحمودي (815 . 824 هـ / 1412 - 1421 م) والذي حاز إجازة في الحديث من كتاب صحيح البخاري على يد الشيخ سراج الدين البلقيني، حيث كان يفتخر بها كثيرا، و يصحبها معه في أسفاره ¹.

وكان السلطان الأشرف أبو نصر قايتباي الجركسي (824 - 841 هـ / 1421 - 1438 م) ميّلا إلى مطالعة كتب السير و الرّقائق، مصاحبا لأهل العلم و الصّلاح، مما انعكس على منشآت الثقافة حيث عدّ عصر من أزهى عصور النشاط العلمي بمصر المملوكية ².

كما حرص السلطان الغوري على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة عدّة مرّات في الأسبوع، كان يبحث فيها مع العلماء مختلف القضايا ويناقشها، وكثيرا ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة، فتبدأ كل مسألة بعبارة "قال حضرة مولانا السلطان...." ثم يجيب العلماء عن سؤاله ³.

ومن أمراء المماليك الذين اشتغلوا بالعلوم، وانبروا للتدريس الأمير علّم الدين سنجر بن عبد الله البرنلي (ت 699 هـ / 1300 م) والذي كان مشاركا في الفقه و الحديث، وكان الفضلاء يحضرون مجالسه، ونجده قد تتلمذ على يد شيوخ الحديث بالحرمين والقدس ومدن الشام، و خرّج لنفسه معجما في اربعة عشر جزء ⁴، جزء ⁴، كما اشتهر من أمراء المماليك سودون بن عبد الله (ت 830 هـ / 1427 م) المعروف بالفقيه ⁵، وكان الأمير تغري برمش سيف الدين الجلاي الناصري (ت 852 هـ / 1449 م) معتنيا بعلم الحديث، مشاركا في عديد العلوم و الآداب، وكان الأمير تغري بردي بن أبي بكر الناصري الحنفي (ت 895 هـ / 1492 م) يُقرأ

1- محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ج 2، مطبعة السعادة، القاهرة، 1929، ص 283-284.

2- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 8، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت (د.ت)، ص 164.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري...، المرجع السابق، ص 142.

4- ابن تغري بردي، التّجوم الزّاهرة....، المصدر السابق، ج 8، ص 193. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 8، ص 449.

5- ابن تغري بردي، المنهل الصّافي...، المصدر السابق، ص 164.

صغار المبتدئين¹ كما اشتهر من أبناء الممالك من ذاع صيتهم في التأليف التاريخي، نذكر منهم على سبيل المثال أبو المحاسن بن تغري بردي وبيبرس الداودار صاحب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

ومن عوامل ازدهار الحركة الثقافية ورفيها في دولة الممالك، كثرة المداخل المالية المتأتية عن طريق التجارة الدولية، والتي انعكست على المنشآت الثقافية، حيث زاد الإنفاق عليها، وهو ما كان له دور إيجابي في نمو الحركة العلمية وتطورها.

وقد اهتم الممالك بالتجارة، فاحتكروا تجارة الشرق المتمثلة في التوابل، ولعبوا دور الوسيط مع الجمهوريات الإيطالية وأوروبا عامة كما اهتموا بتجارة الذهب مع السودان الغربي، وربطوا طريقا من مصر إلى مصادر التبر في التكرور²، لذا اعتبرت دولة الممالك من أقوى الدول في تلك الفترة استنادا إلى جملة العوامل المذكورة التي أدت إلى ربطها بعلاقات فرضتها قوتها على الصعيد الإقليمي والعالمي.

ثانيا - المؤسسات التعليمية:

تأما لا ينكره أحد ما كان لأماكن التعليم من دور في تنشيط الحركة العلمية، فهي تشكل النواة الأولى والبيئة الأصيلة التي يشتغل بها العلماء والمتعلمين على حدّ سواء، إذ تنوعت المؤسسات التعليمية والفكرية ذات المرجعية السنية أيام الدولتين المرينية والمملوكية، وهذا بفضل حرص واهتمام سلاطين الدولتين بإنشاء المؤسسات الثقافية، انطلاقا من حرصهم على الظهور في صورة الحماية لهذه العقيدة³، وتمثل أماكن التعليم في عصر الدراسة فيما أنشئ من مدارس وجوامع وما شيد من خوانق وأربطة وزوايا، لتدرّس فيها العلوم الدينية والعلوم اللسانية والعلوم العقلية، وكان إلى جوارها مكاتب صغيرة ملحقة بالمساجد لتعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة وشيء من العلوم الأولية مع تحفيظ القرآن الكريم⁴، وهو الأمر الذي تناظر بين المشرق والمغرب.

1- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج 3، دار مكتبة الحياة، بيروت (د ت ط)، ص 27-34.

2- أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم، تاريخ البحرية...، المرجع السابق، ص 265-266. أنطوان خليل ضومط، المرجع السابق، ص 229-240.

3- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص 56.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 139.

وقد انشئت هذه المؤسسات ضدّ وجود مذاهب أو نحّل أخرى، خاصّة المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني بالشرق، هذا الأخير الذي عمّر في الديار المصرية أيام الدولة الفاطمية، واستطاع أن يتغلغل إلى الحياة العامّة ويؤثّر فيها، لذا نرى أنّ الممالك ومن قبلهم الأيوبيّين قد تعاملوا معه بحزم، وفق مخطط محكم، استعملوا فيه الكثير من الطرق والوسائل لاستئصاله، نذكر من هذا المخطط: إنشاء المؤسسات الثقافية التي جابهت هذا المذهب.

أمّا في بلاد المغرب فبالرغم من انتفاء هذا العامل، إلّا أنّ المؤسسات التعليمية مثّلت عاملاً مهماً في تثبيت أركان المذهب المالكي وكان لها الدور البارز في استمراره، رغم ما ألمّ به من خطوب في تاريخه العريق ببلاد المغرب، يضاف إلى ما سبق ما كان للعوامل الذاتيّة للحكّام، كإنشاء مؤسسات تخلّد ذكر السلاطين والأمراء عموماً وتعلي من شأنهم الاجتماعي، وتعزّز مشروعاتهم السياسيّة، لذلك عملوا على تقريب العلماء والفقهاء من مجالسهم¹، كما انتشر في مصر ثقافة إنشاء أماكن تكون مخصّصة لموازة جثمان السلاطين بعد موتهم²، وتبقي على ذكراهم، ولهذا استكثر سلاطين الدّولتين من إنشاء هذه الهيئات وعملوا على تنويع دورها، وكنتيجة لكثرتها، فقد نشطت وازدهرت الحياة الثقافية في هذا العصر، وسنستعرض نماذج من هذه المؤسسات، وعيّنات منها:

1 - الجوامع و المساجد :

اشتقّت كلمة المسجد من كلمة سَجَدَ يَسْجُدُ سجوداً، فهو بهذا المعنى الموضع الذي يُسجد فيه، وتمثّل ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم " جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً "³، وكانت هذه المساجد تؤدي دوراً دينياً وسياسياً و تربوياً كبيراً⁴، بدليل أنّ المصطفى عليه الصلاة و السلام بادر إلى بناء المسجد

1- هوارية بكاي، العلاقات الزيدانية المرينية سياسياً وثقافياً، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2008، ص131.

2- محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفا لإسكندرية، 2000، ص1006.

3- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت 256هـ)، صحيح البخاري، ج1، باب الصلاة، الحديث 56، دار ابن كثير، دمشق، 2002، ص118.

4- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، ج4، دار الجيل، بيروت، 1996، ص336.

ابتداء بعد مَقْدَمِهِ إلى المدينة المنورة، ومنه انطلق في بناء دولة الإسلام العظيمة، حيث بقي المسجد يؤدي هذه الوظيفة منذ هذا العهد النبوي وإلى أزمنة متأخرة من التاريخ الإسلامي.

وعلاوة على الوظيفة المعهودة للمساجد من إقامة الصلوات والجماعة والجمعات، فإنها أيضا انبرت لتأدية الدور التربوي والتعليمي، سواء ما تعلّق بالنخبة أو ما تعلّق بعامة الشعب، ولهذا فقد رتب لها السلاطين والأمراء ميزانيات خاصة وأوقفوا عليها الأوقاف¹، وزودوها بخزائن الكتب، وبرجوا بها دروسا في مختلف العلوم، ورغم استقلال الكثير من المنشآت القضائية والتعليمية عن المسجد، إلّا أنّه لم يستثنى دوره في هذا العهد من هذه الناحية².

وقد انتشرت المساجد على نطاق واسع جدًا في عصر السلاطين المماليك حتى تعدّت مائة وثلاثون مسجد في القاهرة وحدها³، لتتخطّى عتبة الألف مسجد في باقي المناطق المصرية الأخرى⁴، وفي هذا الصّد وصف القلقشندي مساجد القاهرة بكونها: "... أكثر من أن تحصى، وأعزّ من أن تستقصى بكلّ خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلون"⁵، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ مصر قد شهدت قبل العهد المملوكي عدّة مساجد مشهورة استمرّ أداؤها إلى هذا العصر نذكر منها:

• جامع عمرو:

ويسمّى أيضا بالجامع العتيق وتاج الجوامع⁶، كونه أوّل مسجد أسّس بالديار المصرية بعد الفتح الإسلامي الإسلامي وابتناء مدينة الفسطاط⁷، فقد حمل هذا المسجد الجامع اسم الصحابي الجليل وفتح مصر عمرو بن العاص، كما عمل على توسيعه الصّحابي الفاتح مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 53هـ⁸، وما زال الولاية

1- محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 208-209.

2- عابد يوسف، المرجع السابق، ص 90.

3- المقرزي، الخطط....، المصدر السابق، ج 2، ص 245.

4- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص 57.

5- القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، ج 3، ص 365.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 180. سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص 58.

7- المقرزي، الخطط...، المصدر السابق، ج 4، ص 4.

8- عابد يوسف، المرجع السابق، ص 91.

والحكام يعملون على إصلاحه وترميمه، إلى عصر المماليك الذين لم يقصروا في هذه المهمة، نظرا للرمزية التي يحملها هذا الجامع، بالإضافة إلى دوره التعليمي¹.

• جامع ابن طولون:

سمي هذا الجامع نسبة إلى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون سنة 263 هـ / 877 م²، الذي أوقف عليه الأوقاف و مؤّله بخزانة كتب في مختلف العلوم³، وظلّ محلّ اهتمام العلماء أيام الفاطميين، وخاصة أيام الحاكم بأمر الله الذي زوّد خزانته بكتب في مختلف العلوم العقلية والتاريخ⁴.

أمّا في عصر السلاطين المماليك، فقد كلّف الأمير سنجر بن عبد الله الدواداري بترميمه بأمر من السلطان حسام الدين لاجين (696هـ - 698هـ / 1296 - 1298)، واستؤنفت به دروس الفقه والحديث والطب⁵، كما حذا حذوه السلطان يلغا العمري الخاصكي سنة 467 هـ / 1367م، الذي عيّن عليه سبعة من المدرسين الحنفيين بعدما أجرى على كل واحد منهم أربعون درهما⁶.

• الجامع الأزهر:

يعتبر جامع الأزهر أعظم مسجد جامع بمصر، ذلك لما له من رمزية مرجعية في القطر المصري، وكان الذي عمل على تأسيس هذا الجامع هو القائد جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي بعد بناء مدينة

1- حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، ج 1، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص47.

2- ولي الدين العراقي، الذيل على العبر في خبر من عبر، تح: صالح محمدي عباس، القسم الأول، مؤسسة الرسالة، 1989، ص20.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص180.

4- سيد سيد النشار، المرجع السابق، ص82.

5- ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق، ج6، ص72.

6- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص269. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص180.

القاهرة المعزية سنة 358 هـ / 969 م، وفرغ من انجازه سنة 361 هـ / 971 م¹، وسمّاه الفاطميون بالأزهر تيمّناً بقدر فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وباعتباره مسجداً جامعاً امتاز بتلك الخصائص التي ذكرنا، فقد عمل على تدريس العلوم وفق المذهب الشيعي الاسماعيلي، كونه كان تحت إشراف داعي الدعاة الذي يعدّ أعلى منصب ديني في الدولة الفاطمية². وما إن تقلّد صلاح الدين الأيوبي مقاليد مصر، بعد تقويض أركان الدولة العبيدية، حتى عمل على تغييب أدوار الكثير من المساجد والجوامع ذات المكانة أيام العبيديين، وعلى رأسهم الجامع الأزهر، فقد تعرّض هذا الأخير إلى تعطيل أوائمه أيام صلاح الدين الأيوبي³، وبقي على هذا الحال إلى زمن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري الذي عمل على إصلاحه وترميمه وإعادة مكانته، وأقيمت به أوّل جمعة في 18 ربيع الأول 665 هـ / 1266 م⁴، ومنذ هذا العهد استمر الأزهر في أداء دوره التعليمي إلى جانب دوره التعبدي، وصار شغل العلماء والطلّبة من مختلف أنحاء العالم الاسلامي، الذين انتظموا في أروقة خاصة تعرف كل منها باسمهم⁵، ولقد كان الأزهر محلّ اهتمام السلاطين المماليك الذين عملوا على تحييس الأوقاف عليه لضمان استمرار وظيفته.

• الجامع الحاكمي :

هو ثاني مسجد أسّس بالقاهرة زمن الفاطميين⁶، حيث عمل على إنشائه العزيز بالله بن المعز سنة 380 هـ / 980 م وأتمه عقبه الحاكم بأمر الله سنة 393 هـ / 1003 م ونسب إليه⁷.

- 1- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق ج2، ص 246 - 255. ابن جبیر، رحلة ابن جبیر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987، ص 26.
- 2- سيد سيد النشار، المرجع السابق، ص 83.
- 3- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية و الدول الاسلامية، تج عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، 1997، ص 258.
- 4- المقرئزي، الخطط....، المصدر السابق، ج2، ص 273. النويري، المصدر السابق ج3، ص 135.
- 5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 181.
- 6- نفسه، الصفحة نفسها.
- 7- القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، ج3، ص 360. النويري، المصدر السابق، ج2، ص 177.

وقد انتدب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير¹، لترميمه واصلاحه 703هـ/1303م، بعد الزلزال الذي ضرب القاهرة، فأوقفت عليه الأوقاف لتمويل الدروس الفقهية على المذاهب الأربعة السنية والحديث النبوي الشريف، كما زود هذا الجامع بخزانة كتب ضمت كتباً في مختلف العلوم².

• الجامع الظافر:

يعدّ هذا المسجد أيضاً من المساجد التي يرجع تاريخ بنائها إلى الفترة الفاطمية، حيث ينسب هذا الجامع إلى الخليفة الفاطمي الظافر بنصر الله الذي عمل على إنشائه سنة 543هـ/1143م بسوق السراجين وسط القاهرة³، وقد بقي المسجد مستعملاً في التدريس إلى زمن المماليك⁴.

• جامع الظاهر:

يعدّ هذا الجامع من أبرز وأجلّ الجوامع المملوكية، فهو ينسب إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي أجرى عليه الجرايات، وانتدب له العمّال والمهندسين، وأمر ببنائه خارج مدينة القاهرة ما يوافق سنة 671هـ/1272م⁵، واختطّ السلطان رسم وهيئة الجامع بنفسه، وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية⁶، كما حرص هذا الأخير على تجهيز مختلف اللّوازم من مختلف الأصقاع، وبعد الفراغ منه، تولّى عدد

1- بيبرس الجاشنكير (ت709 هـ / 1309 م) من كبار أمراء المماليك أيام الملك الناصر محمد، وُلّي إليه بالسلطنة مدّة إلّا أن الأمور انقلبت ضدّه وقتل، أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: خيرى سعيد، ج 17، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت.ط)، ص 408 – 409.

2- المقرئى، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص 278.

3- المقرئى، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص 293.

4- السخاوى، الضوء اللامع...، المصدر السابق، ج1، ص 101.

5- ابراهيم بن محمد ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ص119.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص182.

عدد كبير من المدرسين التّعليم به، نذكر منهم المحدث ولي الدّين العراقي (ت 826هـ/1423م)¹، بينما انبرى الفقيه سراج الدّين الكتّاني (ت 829 هـ/1426 م)² تدريس الفقه الحنفي.

كما عمل المماليك على بناء جوامع أخرى كجامع سنقر الذي ينسب إلى الأمير آق سنقر سنة 727هـ/1327م الذي أدّى دورا اجتماعيا في ايواء الأيتام³، وجامع آل ملك في الحسنية، الذي بني بأمر من الأمير سيف الدّين الحاج آل ملك سنة 732هـ/1332م⁴، وكذا جامع شيخو النّاصري سنة 756هـ/1355م⁵ وبعده جامع الملك النّاصر حسن باتجاه القبلة سنة 787هـ/1356م.

بالإضافة إلى مسجد الخضيرى بناحية بولاق وجامع منجك وجامع برقوق وجامع أيتمش وأينال وجامع الكردي و جامع قوصون...، وغيرها من الجوامع التي أدّت الأوقاف دورا هامّا في تمويلها، والعمل على تزويد خزائنها والإجراء على فقهاء⁶.

أما فيما يخصّ الدولة المرينية، فإنّها لم تغفل عن بناء المساجد، وإصلاح تلك العريقة التي ورثتها عن العهود السّابقة لتأسيسها، إلّا أنّ المساجد المرينية تميّزت باتساعها طولا وعرضا، وخاصّة الصّحن، بالإضافة إلى علوّ جدرانها وماذنها⁷، وسنستعرض جملة من المساجد والجوامع المرينية، أهمّها:

• جامع القرويين:

يعدّ أعرق جامع بالمغرب الأقصى، حيث أسّس سنة 245هـ/859م، على يد فاطمة الفهرية، والتي اتّسمت بالعلم والفضل والصّلاح، وقد صار جامع القرويين قبلة لطلبة العلم وفقهاء المواعظ والدروس⁸ والكراسي العلمية أيام المرينيين، وفي هذا الصّد ذكر الجزنائي: "...أنّه لما كثر الواردون عليها في أيام الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس رضي الله عنه كان ثمن قدم علّحها من القبروان محمد بن عبد الله

1- ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، مكتبة الخانجي 1988، ص81.

2- ابن عماد، المصدر السابق، ج7، ص173.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص183.

4- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص313.

5- محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص487.

6- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص60.

7- هوارية بكاي، المرجع السابق، ص134.

8- خرماش محمد، المقال السابق، ص119.

الفهري القروي، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذي وفدوا معه، فمات وترك بنتين وهما: فاطمة - المدعوة بأم البنين - ومريم، وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب، ورغبنا أن تصرفاه في وجوه من البر، فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كلّ عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين المذكورين، فشرعت فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين، ومريم في بناء جامع الأندلسيين، أما جامع القرويين فكان الشروع في حفر أساسه للأخذ في أمور بنائه يوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومئتين...¹، ومنذ هذا العهد أضحى جامع القرويين محلّ اهتمام الدول المتعاقبة على حكم المغرب الأقصى، وصولاً للعهد المريني، وانتقل من كونه مسجداً جامعاً إلى بروزه كجامعة كبرى بما حوته من برامج تعليمية ونظام تعليمي وهيكل تنظيمي².

• الجامع الكبير بتازة:

قام بإنشائه الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي (524هـ-558هـ/1152م-1163م)، وقد شهد مجموعة إصلاحات في العهد المريني، حيث قام بتوسيعه السلطان أبو يعقوب يوسف، وحذا حذوه السلطان أبو عنان فارس، ويعدّ هذا الجامع من أجمل الجوامع في المغرب الأقصى بعد جامع القرويين بفاس³.

• الجامع الكبير بفاس الجديد:

بعد الفراغ من بناء مدينة فاس الجديد، أمر ببناء هذا الجامع السلطان أبو يوسف يعقوب المريني عام 677هـ/1276م واكتملت الأشغال به سنة 678هـ/1279م⁴، وقد تأثرت عمارة هذا الجامع بالطابع الأندلسي⁵.

• مسجد المنصورة بتلمسان:

بعد اختطاط مدينة المنصورة بظاهر تلمسان، والتي بنيت بأمر من السلطان يوسف المريني أيام الحصار، سارع إلى تعميرها سنة 701هـ، فقرّر أن يبني بها عدداً من "...الحمامات العظيمة والفنادق والبيمارستانات وجامعا كبيرا للخطبة أقامه على الصهريج الكبير وبنى به منارا عظيما وجعل على رأسه تفافيح من ذهب

1- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص219.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص152.

3- بكاي هوارية، المرجع السابق، ص132.

4- ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية...، المصدر السابق، ص162.

5- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص219.

بسبعمة دينار...¹، فينبؤنا هذا النص عن عظمة المسجد والفن المعماري المريني، وقد عدت صومعة جامع المنصورة من أعلى المآذن في المغرب الإسلامي²، كما أنشأت بتلمسان جوامع أخرى ك جامع العباد بجوار ضريح القطب الصوفي أبا مدين شعيب³ ومسجد سيدي الحلوي⁴.

• جامع الحمراء:

لا يعرف بالضبط تاريخ تأسيس هذا الجامع، رغم ما يذهب إليه بعض المؤرخين أنه تم في عهد السلطان أبي عنان فارس⁵، وقد تسمى بهذا الاسم استنادا إلى امرأة حمراء أقبلت من تافيلالت⁶، وعملت على تحييس كل ثروتها لبنائه بجانب المحجة الكبرى لفاس الجديد⁷.

• مسجد الزهر:

ويطلق عليه اسم جامع الحجر أيضا⁸، يعود تاريخ تأسيسه إلى أوائل رجب عام 759هـ/1357م من قبل السلطان أبي عنان فارس⁹، وألحق به كُتّاب وسقاية لسقي المارة¹⁰.

2 المكتاتيب:

1- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص387.

2- ابن مرزوق محمد، المصدر السابق، ص402.

3- المصدر السابق، ص403.

4- بورويبة رشيد، المقال السابق، ص181.

5- محمد المنوني، المرجع السابق، ص30.

6- بكاي هوارية، المرجع السابق، ص133.

7- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص220.

8- المرجع نفسه، ص221.

9- بكاي هوارية، المرجع السابق، ص133.

10- المنوني محمد، المرجع نفسه، ص29.

الكتاب أو المكتب هو منشأة علمية ملحقة بالجوامع و المساجد للقيام بمهمة تعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة بعد اقتدارهم على الكلام¹، وهي ثاني أقدم المؤسسة التعليمية في التاريخ الإسلامي بعد المساجد، حيث حيث تجسّد المرحلة الأولى من نظام التعليم عند المسلمين²، والظاهر أنّها جعلت مستقلة عن المسجد مخافة ما يعترض الغرّ الصّغير من النّجاسات وكذلك السلوكيات التي تصاحب الصّبيان، والتي تعمل على إخلال بالنّظام العام للمسجد حيث يقول في ذلك ابن عبدون الأشبيلي: "...المساجد هي بيوت الله ومواقع الذكر، ومواقع العبادة، مشهورة بالطهارة، ويجب ألا يؤدّب فيها الصّبيان، فإنهم لا يتحفّظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم، فإن كان ولا بد ففي السقائف..."³ وقد كانت هذه الكتاتيب تبنى بالعادة في الطّابق الطّابق الأوّل من المسجد، لاحتمالها أكبر عدد من الصّبيان⁴، علاوة على ما حوته من بعض الوسائل الأخرى كالحزائن التي تحتوي على أدوات الكتابة كالدواة والقلم والألواح⁵، وقد انتشرت هذه الكتاتيب بالمجتمع الإسلامي مشرقه و مغربه عددا لا يحصى منها، نظرا للوعي بالدور الذي تؤدّيه هذه الكتاتيب، فعملوا على توفيرها لصبيانهم في جميع الحواضر والأرياف⁶، ذلك أنّ المسلمين كانوا يدفعون بأبنائهم إلى الكتاب منذ سنّ مبكّرة في الخامسة أو السادسة وبعضهم في السابعة أو الثامنة⁷، والسّرّ في ذلك أن "...التربية الدينية يجب أن تبدأ في سن مبكرة، ذلك لأنّ الصّبي في هذه السنّ يكون مستعدا لقبول العقائد الدّينية والإيمان بها دون أن يطلب عليها دليلا..."⁸.

وكان يتولّى التدريس في هذه الكتاتيب مؤدّب يساعد عريف⁹، ويعدّ هذا الأخير بالعادة أول ثمرات الشّيخ من ختم القرآن العظيم على يديه¹، والتّعليم بالكتاب كان يتمّ بالبحّان²، على أن تعطى نفقات المؤدّبين

1- عابد يوسف، المرجع السابق، ص87.

2- بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص165.

3- محمد ابن عبدون، رسالة في الحسبة، تح: ليفي بروفنسال، نشر بالمجلة الآسيوية 1934، ص314.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص185.

5- عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص347.

6- مكيوي محمد، المرجع السابق، ص125. هشام بن سالم، المرجع السابق، ص222.

7- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، المصدر السابق، ص48. عابد يوسف، المرجع السابق، ص87.

8- المصدر نفسه، ج3، ص83.

9- محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تح: محمد عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (دت)، ص91.

المؤدبين من الأوقاف المخصصة للمسجد، أو من التبرعات التي يجود بها أهل البر والإحسان³، وعليه فالتعليم في الكتاب كان عادة ما يكون بالمجان⁴، لتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن وفي هذا المعنى يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالي: " أن يعلم في الكتاب القرآن ، وأحاديث الأخبار و حكايات الأبرار ، لينغرس في قلبه حبّ الصالحين "⁵ كما أن بعض الأئمة شذّوا عن هذا المنهج الدراسي بمناهج ذاتية ، ولم يجعلوا البادرة لتحفيظ القرآن ، و إنما ارتأوا البدء بتعليم الشعر و قواعد اللغة و الانتقال من ذلك إلى تعليم الحساب، حتى إذا أتقن الولد ذلك انتقل إلى حفظ القرآن ودراسته، ومن هؤلاء أبو بكر ابن العربي الذي يقول "... من غفلة أهل بلادنا أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم، و ينصب في أمر غيره أولى بالتقديم منه..."⁶.

وإذا كانت المصادر المرينية قد سكنت عن تسمية بعض الكتاتيب، إلّا أننا نجزم بكثرتها، باعتبارها مؤسسات مهّدت للمراحل اللاحقة من طلب العلم في بلاد المغرب، كما أن التعليم القرآني قد ازدهر في بلاد المغرب الإسلامي قاطبة، ولذا فقد كان أهلها أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم⁷، أمّا عن الكتاتيب المملوكية، فقد اشتهر منها المكتب الملحق بمدرسة الظاهر بيبرس ومدرسة الملك المنصور قلاوون والمدرسة الحجازية والمدرسة القراسنقرية⁸، كما ساهم أغنياء الدولة المملوكية في بناء الكتاتيب والعناية بها من خلال تحييس الأوقاف⁹.

3 المدارس:

- 1- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص21.
- 2- عابد يوسف، المرجع السابق، ص88.
- 3- محمد كرد علي ، الإدارة الاسلامية في عز العرب ، ط، مطبعة مصر، القاهرة، 1934، ص 44.
- 4- عابد يوسف، المرجع السابق، ص87. محمد المنوني، المرجع السابق، ص202.
- 5- نفسه، الصفحة نفسها.
- 6- أبو بكر ابن العربي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، تح: عمار طالي، الجزائر، 1974، ص 12.
- 7- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص506.
- 8- المقرئزي، الخطط ...، المصدر السابق، ج 2 ، ص382.
- 9- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص57.

لقد كان المسجد أو الجامع في بداية العصور الإسلامية هو المركز التعليمي الأساس ، ثم ما لبث أن بدأت بعض المرافق بالاستقلال عنه شيئاً فشيئاً¹ ، كالكليات والمدارس وغيرها من المرافق التعليمية، وهذا تفادياً للحرص الذي قد يلحق المسجد جرّاء كثرة الحلق التعليمية التي خصّصت في ضروب العلم قاطبة، والمدرسة هي: "... منشأة عمرانية أسست من أجل أداء مهمة التدريس يقصدها طلاب العلم من أجل التحصيل العلمي على أيدي أساتذة أكفاء، وقد يكون أولئك الأساتذة من العلماء الأعلام، تعتمد على نظام تعليمي منظم، وتقدم خدمات مجانية للطلبة القاصدين لها وتتكفل بذلك جهات خيرية سواء كانت نظامية أو خاصة..."²، وتعد المدارس ثاني أهم المؤسسات التعليمية بعد المسجد³، وهي تشكّل طوراً متقدماً من التعليم التعليم في العصر الإسلامي⁴، وقد عمل السلاطين والقيّمون عليها على اجتذاب العلماء والفقهاء وإسكان الطلبة بها وإجراء الأعطيات عليهم، وإغداق المدرسين بالأجر المغربي، وهذا نظراً لكثرة أوقافها وعناية السلاطين بها⁵.

ويذهب كثير من المؤرخين إلى أنّه ابتداء من عهد الأيوبيين، بدأ إنشاء المدارس في مصر، حيث اقتدى صلاح الدين الأيوبي بسياسة العادل نور الدين محمود زنكي⁶، وهذا محاولة منه في إبطال عقائد الشيعة التي انتشرت في المجتمع المصري أيام الفاطميين، والذين بدورهم عملوا على إنشاء مؤسسات مستقلة عن المسجد كدار العلم⁷ التي أنشئت خصيصاً لنشر وترسيخ المبادئ الباطنية داخل المجتمع المصري، فعمل صلاح الدين على إنشاء مدرستين ابتداء من سنة 566هـ/1167م، الأولى المدرسة الناصرية بجوار مسجد عمر بن

1- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص60.

2 - أولاد ضياف رابح، المقال السابق، ص313.

3 - هشام بن سالم، المرجع السابق، ص225.

4 - مكوي محمد، المرجع السابق، ص126.

5 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص102.

6- هو الملك نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك أبو سعيد زنكي، وُلِدَ 511هـ بحلب، فتح دمشق و ضمّها إلى حلب، توفي سنة 599هـ، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ج1، ص 277 . النويري، نهاية الأرب ...،

المصدر السابق، ج28، ص 169.

7- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص186.

العاص، خصّصت للفقه الشافعي¹، والثانية غير بعيد عن الأولى سمّيت بالمدرسة القمحية والتي خصّصت للفقه المالكي²، وهذه الأخيرة هي التي تولى التدريس فيها فيما بعد العلامة ابن خلدون³، كما تم إنشاء المدرسة الصّاحية سنة 572هـ/1173م بجوار ضريح الإمام الشافعي، والتي غدت من أهم المدارس المصرية.

وقد حذا المالكي حذو أسلافهم الأيوبيين في بناء المدارس، والتي امتازت بالتخصّص المذهبي، حيث اختصّت كل مدرسة بتدريس مذهب من المذاهب السّنية الأربعة، وهذا الأمر جاء تبعاً لقرار السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي قام بتعيين القضاة من هذه المذاهب⁴، وكذا الحاجة الماسّة إلى تخرّج شيوخ وقضاة وعلماء من المذاهب السّنية مجابهة لمذهب الشيعة الاسماعيلية⁵، يضاف لهذا كلّ أثر الغزو المغولي الذي أدّى إلى فقدان الكثير من التراث العلمي الاسلامي⁶، فأنت الحاجة ملحة في بناء مدارس تعمل على إعادة إحياء هذا التراث، برعاية من السلاطين والأمراء وكبراء القوم في الدولة المملوكية، الذين أجروا عليها الأعطيات والأوقاف أكثر من المساجد والجوامع⁷، بحيث أنّنا نستطيع أن نقول أنّه لم يخل عهد سلطان أو أمير من إنشاء مدرسة، اعتباراً من كونها مظهرًا من مظاهر السّلطة⁸.

وقد عبر القلقشندي عن انتشارها بقوله: "ابتنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط و شحنها"⁹ كما أحصى المقرئزي أكثر من ست وعشرين مدرسة في العهد الأيوبي ناهيك عن التي بنيت في عهد الماليك¹⁰، أدّت إلى نهضة علمية كبيرة خاصة في مصر، نبغ على إثرها مجموعة من العلماء¹¹ ومن أهم هذه المدارس:

1- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص363. النويري، نهاية الارب...، المصدر السابق، ج2، ص363.

2- حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص426.

3- عابد يوسف، المرجع السابق، ص102.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص187.

5- سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص143.

6- عابد يوسف، المرجع السابق، ص102.

7- عابد يوسف، نفسه، الصفحة نفسها.

8- سيد التشار، المرجع السابق، ص89.

9- القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، ج3، ص364.

10- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص363 وما يليها.

11- عابد يوسف، المرجع السابق، ص102.

• المدرسة العادلة:

أنشأها الملك العادل أبو بكر بن أيوب (ت 615 / 1218 م) والتي خصّصها للفقهاء المالكية¹ وهي تقع بدمشق باتجاه باب الظاهرية.

• المدرسة الكاملية:

بُنيت سنة 631 هـ / 1232 م وهي تعدّ مدرسة تابعة لدار الحديث 2 والكاملية، وتقع إلى الجوار من قبة الإمام الشافعي، وكانت مخصصة لفقهاء، وللمشتغلين بالحديث النبوي الشريف.

• المدرسة الفاضلية:

بُنيت سنة 580 هـ / 1196 م بالقاهرة، وأوقفت على فقهاء المالكية والشافعية، وضمت مكتبة في سائر العلوم³.

• المدرسة الظاهرية:

وتسمّى أيضا بالظاهرية القديمة، تميّزها لها عن مدرسة الظاهر برقوق⁴، حيث تنسب هذه المدرسة إلى الظاهر بيبرس البندقداري التي أعطى إشارة بنائها سنة 660 هـ / 1263 م، ورتب وقفها قبل بنائها⁵، وفرغت الأشغال منها سنة 662 هـ / 1263 م، وتعدّ الظاهرية من أجلّ مدارس القاهرة، نظرا لما اجتمع لها من أهل العلم والدروس والقراء، واستنادا لما حوته من خزائن الكتب في ضروب العلم⁶ حتى قالوا فيها: ألا هكذا يبني المدارس من بني* و من يتغالى في الثواب و في الشنا⁷

1- ابن كثير، المصدر السابق، ج 12، ص 79. النويري، المصدر السابق، ج 29، ص 9. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 188.

2- عابد يوسف، المرجع السابق، ص 103.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 188.

4- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج 7، ص 120.

5- المقرئ، الخطوط...، المصدر السابق، ج 1، ص 504. بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص 177.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المصدر السابق، ص 189.

7- بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص 118.

• المدرسة المنصورية :

أنشأها السلطان المنصور قلاوون الألفي الصّالحي سنة 684 هـ / 1285 م، وهذا بعدما استغرقت الأشغال سنتين، وضمت المدرسة في ثنائها بيمارستان والقبة بين القصرين بالقاهرة¹ بعدما وُكِّل على أشغالها الأمير علم الدين سنجر²، وقد رتب بهذه المدرسة دروس الفقه على المذاهب الأربعة³، وعيّن لكلّ مذهب إيوان خاصّ به، وأعطى لكل مدرس فيها أجر راتب يربو عن مائتي درهم⁴.

• المدرسة الناصرية:

تقع هذه المدرسة بجوار المدرسة المنصورية⁵، حيث شرع في بنائها السلطان زين الدين كتبغا المنصوري وأكملها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 703 هـ/1303م، وكانت كسابقتها مخصصة لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وحتوت خزانة كتب كبيرة.

ويمكن إضافة كثير من المدارس التي نشطت في عهد دولة المماليك خاصة في مصر، والقاهرة على وجه التحديد باعتبارها مقرّ الحكم، نذكر من هذه المدارس المدرسة الصّالحية النّجمية التي بناها نجم الدين أيوب⁶، والمدرسة المنكوتمية التي أنشأها الأمير سيف الدين منكوتر الحسامي سنة 698 هـ/1298م⁷ والمدرسة القراسنقرية نسبة للأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي بناها سنة 700 هـ/1300م إضافة إلى المدرسة الصرغتمشية والمدرسة الأشرفية.

أمّا عن الدولة المرينية، فقد عرفت نظام المدارس بعد أن انتقل إليها بعد ثلاثين سنة من إنشاء أول مدرسة حفصية⁸، إلّا أن المرينيين قد فاقوا باقي الدّول المغاربية الأخرى من حيث تشييد المدارس، والعمل على الإنفاق

1- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص62.

2- عابد يوسف، المرجع السابق، ص104.

3- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص379.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق ص190.

5- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص62.

6- سيد النشار، المرجع السابق، ص69.

7- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق ج2، ص387.

8- هوارية بكاي، المرجع السابق، ص134.

الإنفاق عليها¹، وقد ابتنوا هذه المدارس في ربوع بلاد المغرب الإسلامي، خاصةً المغريين الأقصى والأوسط، كمظهر من مظاهر سياستهم التوحيدية²، وخاصةً في عهدي أبو الحسن ونجله أبو عنان فارس، وسنذكر عينات عن هذه المدارس:

• مدرسة الصفارين:

شيدها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المنصور المريني بال قرب سوق صناعة النحاس سنة 670هـ/1271م، وهي أول مدرسة مرينية أنشئت بالمغرب الأقصى³، كما أوقف عليها أحباساً وأجرى وأجرى على الطلبة المرتبات، واستقدم لها خزانة كتب من الأندلس⁴.

• مدرسة المدينة البيضاء:

بناها السلطان أبو سعيد عثمان المريني سنة 720هـ، وقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك بقوله: "...وفي سنة عشرين وسبع مئة أمر أمير المسلمين أبو سعيد أيده الله ببناء مدرسة بحضرته من فاس الجديد فبنيت أتقن بناء، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات المؤونة في كل شهر، وحبس عليها الرباع والجاشر، كل ذلك إبتغاء وجه الله ورجاء مغفرته..."⁵.

• مدرسة الصّهرج أو مدرسة السّبعين:

قام ببنائها أبو الحسن المريني في ولاية عهده في حياة والده أبو سعيد عثمان، وذلك في سنة 720هـ/1320م، وزودهما بأموال وأوقاف ومساكن للطلبة⁶.

• مدرسة العطارين:

أمر ببنائها السلطان أبو سعيد عثمان في مستهل شعبان سنة 723هـ، بجمار جامع القرويين، وأجرى المرتبات والمؤن على الجميع¹.

1 - شارل أنريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، تر: محمد مزالي، وبشرى سلامة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص 240. لعرج عبد العزيز، المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة دراسات إنسانية، العدد 01، السنة 1421هـ/2001م، إصدارات كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، ص312.

2 - هوارية بكاي، المرجع السابق، ص134. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص108.

3 - هوارية بكاي، المرجع نفسه، ص135.

4- ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، المصدر السابق، ج7، ص: 210، الجزناني، المصدر السابق، ص74-75.

5 - ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص411-412.

6- المصدر نفسه، ص412، ابن مرزوق، المصدر السابق، ص405.

• المدرسة المصباحية:

أسست في عهد السلطان أبو الحسن المريني ، ونسبت إلى الإمام مصباح بن عبد الله الباصلوتي (ت755هـ) الذي ولي التدريس بها أول مرة، وتقع في جوفي جامع القرويين².

• مدرسة العباد:

قرّر السلطان أبو الحسن المريني إنشاء مدرسة "...بالعباد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره..."³، وهو الجامع الذي يحوي ضريح الشيخ أبي مدين شعيب (ت590هـ)، وتعتبر مدرسة العباد أول مركز علمي مريني بتلمسان⁴، كذلك عرفت بمدرسة سيدي أبي مدين⁵، وأبانت مدرسة العباد عن عظمة الفن المعماري المريني، وضخامة المنشآت التي شيدها السلطان أبو الحسن في قرية العباد⁶. وقد ترك لنا العصر المريني العديد من المدارس التي يستعصى علينا حصرها، والتي استطاعت أن تنهض بالحركة العلمية بالمغرب الأقصى.

4 المكتبات:

ازدهرت حركة إنشاء المكتبات في مصر المملوكية، فوجدت المكتبات الخاصة والمكتبات العامة ومكتبات المؤسسات التعليمية، والمكتبة هي مجموعة من الأوعية الفكرية نظمت بطريقة تيسر الاستفادة منها⁷، وقد عرفت مصر في العهد الفاطمي نهضة مكتبية كان هدفها نشر الدعوة الشيعية الإسماعيلية، حيث ظهرت أول مكتبة فاطمية في عهد المعز لدين الله، إلا أن الناصر صلاح الدين عمل على القضاء على مكتباتهم محاربة للمذهب الشيعي الإسماعيلي⁸، لذا حرص السلاطين المماليك على الإهتمام بإنشاء المكتبات بأنواعها المختلفة كالمكتبات العامة التي كانت توقف على المؤسسات التعليمية والدينية مثل مكتبات المساجد والجوامع، حيث اهتم الملوك

1- ابن أبي الزرع، المصدر نفسه، ص412-413.

2- ابن أبي الزرع، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- ابن أبي الزرع، المصدر نفسه، ص406.

4- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص229.

5- بن قربة صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، ط1، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، 2007، ص170.

6- بن قربة صالح وآخرون، المرجع نفسه، ص176.

7 محمد عبد الستار عثمان نفسه، ص63.

8 نفسه، ص69.

والأغنياء بوقف الكتب والمصاحف على المساجد والمدارس والزوايا والقباب وغيرها من المنشآت العامة، وكانت المكتبات تتحصل على جديد الكتب عن طريق الاقتناء أو الإهداء أو التّحبيس¹، كما حرص سلاطين المماليك على إنشاء مكتبات وخزائن كتب خاصة، مثل تلك التي بقلعة الجبل مقرّ السلّطة المركزيّة، والتي ضمّت مجموعة كبيرة من الكتب في المعارف والعلوم المختلفة²، والتي وصفت بأنها خزانة كتب جليلة القدر³، وهذا الذي حمل معظم الأمراء المماليك على امتلاك خزائن كتب في قصورهم، مثل الأمير تغري برمش سيف الدين الجيلاي الناصري (ت 852هـ/1449م)⁴، لذا كان لزاما على العلماء والفقهاء والقضاة وحتى بعض السلاطين، والعامة -أحيانا-⁵ امتلاك مكتباتهم الخاصة يرجعون إليها للقراءة والتأليف، حتّى بلغت حركة التأليف في هذا العصر الحدّ الذي لم تشهده من قبل⁶.

كما حرص المرينيون على تخصيص المكتبات لدور العلم وجلب الكتب إليها وأولوها عناية منذ تأسيس هذه الدولة، فهذا أول سلاطين بني مرين يعقوب المنصور يخشي مكتبة كبيرة استقدمها من قشتالة، وأوقفها على مدرسة الصّغارين بفاس⁷، بلغت ثلاثة عشر حملا⁸، حوت مختلف العلوم⁹، كما كانت أماكن المكتبات المكتبات ملحقة بالمساجد والمدارس والرّبط وقصور السلاطين¹⁰، ثم أنشئت مكتبات مستقلة مرصودة للعامة زمن السلطان المتوكل أبي عنان، فأقام مكتبة تحتوي على كتب ومصنّفات في جميع العلوم¹¹، حيث يصفها

1 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص 70-71.

2 - السيد النشار، المرجع السابق، ص 73. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 81. بيبس الدوادر، زبدة الفكرة، المصدر السابق، ص 19. عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 134.

3 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 200.

4 - السخاوي، الضوء اللامع، ج 3، ص 33-34.

5 - الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص 349.

6 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص 108.

7 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص 358-363، الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص 349. Toynbee.A. la rousse encyclopedia of ancient and medieval history.p336.

8 - هشام بن سالم، المرجع السابق، ص 182.

9 - السلاوي، المرجع السابق، ج 3، ص 64.

10 - الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص 349.

11 - المرجع نفسه، ص 350.

الجزائري بقوله: "...وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بالجامع فإنه لما كان من شيم مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله حب العلم وإيثاره، والتهمم به والرغبة في انتشاره والإعتناء بأهله ومتممليه، والتودد لقرائه ومنتحليه انتدب لأن صنع هذه الخزانة وأسع طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتى ضرورها وأجناسها، ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى..."¹، ناهيك على تنظيمها إذ "...عين لها قيما لضبطها، ومناولة ما فيها، وأجرى له على ذلك جناية، وأفاده مكرمة وعناية، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة..."²، ولم تكن المكتبات مقتصرة على العاصمة فاس، وإنما كانت هناك بعض المدن في المغرب الأقصى اشتهرت بكثرة الكتب الموجودة بها في العصر المريني، مثل مدينة سبتة³. وبطبيعة الحال فقد كانت المؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها مزودة بالمكتبات، وهذا نظرا لما تتطلبه وظيفة التعليم من توفير للكتب اللازمة التي يحتاجها الأساتذة والطلاب للدرس والبحث، لذلك كانت الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق والبيمارستانات وحتى الترب والقباب مزودة بخزائن للكتب، ولم تخل مؤسسة تعليمية من مكتبة مزودة بالمراجع العلمية والفقهية الموجهة للاستفادة منها في إطار النشاط الفكري الكبير الذي كان يشهده هذا العصر⁴.

أما فيما يخص مكتبات الجوامع - وهي أول الأنواع نشوء في الإسلام⁵ - نجد الكثير من الم كتبات المسجدية المنتشرة خاصة في مصر كـ مكتبة جامع ابن طولون⁶، ومكتبة الجامع الأزهر حيث أوقف عليها المماليك وزودوها بكتب في شتى فنون الشريعة⁷، ومكتبة جامع الظاهر التي أنشأها الظاهر بيبرس

1- المصدر السابق، ص76.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- الحريري محمد عيسى، المرجع نفسه، ص350.

4- عبد الرحمن بالأعرج: المرجع السابق، ص201. السيد النشار، المرجع السابق، ص80 و ما يليها.

5 حامد الشافعي دياب: المرجع السابق-ص100.

6 المقريري: الخطط-المصدر السابق-ج2، ص267.

7 السيد النشار: المرجع السابق-ص84.

سنة 665هـ/1260م، ومكتبة الجامع المؤيدي التي أنشأها السلطان المؤيد شيخ ، والتي كانت تحتوي على مختلف العلوم¹.

أما مكتبات المدارس فكانت هي الأخرى منتشرة وأكثر شمولية من حيث الأصناف وضروب التأليف، فهي تعدّ معاهد لتدريس مختلف العلوم سواء العقلية أو الثقيلة²، فتتوّد بالكتب المختلفة في شتى العلوم، ومن أبرز هذه المكتبات، مكتبة المدرسة الظاهرية³، ومكتبة مدرسة الأشرافية التي أنشأها السلطان شعبان بن حسين بن الناصر محمد، وكانت من أكبر مكتبات المدارس المملوكية⁴.

كما زوّدت المؤسسات التعليمية والدينية الأخرى بخزائن للكتب أيضا، مثل الزوايا والخوانق والربط والبيمارستانات وحتى القرب والقباب، إذ كانت تقوم هذه المؤسسات أيضا بدور تعليمي يمكن أن نصفه بالمتخصص والمقتصر على فئات اجتماعية بعينها، وكان للمكتبات في هذا الوقت نظم خاصة وموظفون، منهم خازن الكتب الذي كان يضطلع بالإشراف على اقتناء الكتب وحفظها وتسيير طاقم المكتبة وفق شروط معينة للإعارة⁵.

5 المنشآت الصوفية (الزوايا والربط والخوانق):

الزوايا هي جمع زاوية وهي ركن من الدار، يُصَرَف هذا المفهوم ويخلق على البيت الصغير الخاص بإقامة الصوفية، فهي إذن منشآت نخبوية مقتصرة على هذه الفئة من العباد، يعكفون فيها على الصلاة والذكر وقراءة القرآن الكريم وتدبره وإنشاد السماع⁶، كما اتسعت هذه الدار لأشخاص آخرين،

1 ابن ثغري بردي: المنهل الصافي-المصدر السابق-ص310. السيد النشار: المرجع السابق-ص86.

2 - سي عبد القادر عمر ، المرجع السابق، ص71.

3 ببيرس الدوادار، زبدة الفكرة: المصدر السابق-ص17. المقرئزي، الخطط..، المصدر السابق، ج2، ص379. ابن ثغري

بردي، النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج7، ص120. محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص135.

4 السيد النشار، المرجع السابق، ص91.

5 - عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص132-135. النشار، المرجع السابق، ص113. عابد يوسف، المرجع السابق، ص108.

6-عبيد بوداود، المرجع السابق، ص415.

حيث تعدّ إقامة لبعض المغتربين والأيتام وغيرهم من أهل الصّلاح والورع¹، وعن هذه الوظيفة يذكر ابن مرزوق "... أنّ الزّوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدّة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين..."² وصارت توازي معنى الخانقاه³، بل نستطيع أن نزعّم أنّ تعاريف كلّ من الخانقاه والرباط والزاوية قد تداخلت، لاسيما بعد ما أصبحت وظائفها في مصر المملوكية متطابقة⁴، إلّا أنّ مفهومها قد تطور في بلاد المغرب ابتداء من العهود السابقة لهذه الفترة⁵، كما أنّها تميّزت في العصر المملوكي بأنّها كانت تنشأ في الغالب برسم شخص واحد وهذا بغرض الانقطاع والاختلاء للعبادة⁶، كما كانت تعتبر مدافن لبعض الأمراء وشيوخ الطّرق الصّوفية الملازمين لها، تيمّنا وتبركا بمقامها، مع ما كانت تؤدّيه هذه الزوايا من دور تعليمي وتأديبي واجتماعي لصالح التلاميذ والمريدين الصّوفية⁷، كما أنّ المرينيين استكثروا من الزّوايا في ربوع المغرب الأقصى والأوسط⁸، ونحنا نخوهم في هذا السّلاطين المماليك، لما كان لهم من اعتقادات في شيوخ الطرق⁹، ومن أمثلة الزوايا في العصر المملوكي:

• زاوية الشيخ خضر:

- 1 المقريزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص430. السيد النشار، المرجع السابق، ص104. حياة ناصر حاجي، المرجع السابق، ص163.
- 2- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص413.
- 3 - نفسه، الصفحة نفسها. هوارية بكاي، المرجع السابق، ص143.
- 4 - عاصم رزق، المرجع السابق، ج1، ص102-103. عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، المرجع السابق، ص169.
- 5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص197. يوسف عابد، المرجع السابق، ص94.
- 6 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص67.
- 7 - يوسف عابد، المرجع السابق، ص94.
- 8- هوارية بكاي، المرجع السابق، ص143.
- 9 - ابن تغري بردي النجوم الزاهرة..، ج7، ص276-277. المقريزي، الخطط، ج2، ص431. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص10. ابن الملن، طبقات الأولياء، ص431. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص278. النويري، نهاية الأرب، ج30، ص376.

أنشأها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري خارج مدينة القاهرة وخصّها بالشيخ خضر بن أبي موسى المهراني العدوي، الذي توفي سنة 676هـ/1277م، وجعل لها أوقافاً تعود بالنفع عليها، كما أنشأ السلطان عدّة زوايا بالشّام، وهذا نظراً لتعظيم السلطان لمقام المتصوفة¹.

• زاوية الرّكراكي:

هي الأخرى أنشأت خارج القاهرة، نظراً لملازمة الشيخ أبي عبد الله محمد الرّكراكي المغربي المالكي (ت794هـ/1393م) لها²، وكان فقيهاً مالكياً اعتاد الناس على التبرك به، وكان منبرياً لخدمة المغاربة³.

• زاوية الجعبري:

تنسب إلى الشيخ برهان الدّين إبراهيم بن معضاد بن شدّاد بن ماجد الجعبري المعتقد الواعظ (ت687هـ/1288م) وكان يجلس فيها للوعظ ورواية الحديث، بالإضافة إلى معرفة بالطّب، كما كان ينظم الشعر على دأب الصّوفية⁴.

• زاوية الدميّاطي:

أنشأها الأمير عزّ الدّين أبيك الدّميّاطي الصّالح النّجمي في أيّام الملك الظّاهر بيبرس البندقداري، ودفن بها سنة 676هـ/1277م⁵.

• زاوية الخلاوي:

1 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص67.
2 - المقرئزي، الخطط، ج2 ص433 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج1، ص134.
3 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج1، ص134.
4 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص374-376 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص163 - السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص30 - ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص399 - ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص31 - المقرئزي، الخطط، ج2، ص434 - الشعرائي، المصدر السابق، ج1، ص173-174. ابن الملّقن، طبقات الولياء، ص412.
5 - المقرئزي: الخطط-المصدر السابق-ص430.

أقيمت بالقرب من الجامع الأزهر ، وقد أنشأها الشيخ مبارك الهندي الحلوي سنة 688هـ/1286م ولازمها إلى أن توفي بها ودفن وسطها¹.

كما عرف من زوايا العصر المملوكي زاوية ابن منظور العسقلاني الشافعي الصوفي المتوفي سنة 696هـ/1296م²، وقد ساهمت كثرة الطرق وتعدد الشيوخ إلى انتشار الزوايا وتعدد فروعها، ومن أبرز الطرق الصوفية في الدولة المملوكية الطريقة الرفاعية، التي تنتسب إلى الإمام أحمد الرفاعي المتوفي سنة 575هـ/1182م³، وكذلك الطريقة القادرية والأحمدية⁴.

وهكذا فقد ساهمت الزوايا والخوانق والربط مساهمة دينية واجتماعية وعلمية أثرت بها على الوضع الثقافي المملوكي، شأنها في ذلك شأن الواقع الفكري المريني حيث عدت الزاوية المكان الأمثل لامتناع فائض الطلبة الذين غصت بهم دور العلم كالجوامع والمدارس⁵، فقد اضطلع سلاطين بني مرين بمهمة إنشائها، فبنيت فبنت زاوية القراء⁶، والزاوية الحديثة بفاس⁷، والزاوية القديمة والحديثة بمدينة مكناس⁸، ورباط الشيخ أبي محمد محمد بمدينة آسفي⁹، وزاوية الحاج عبد الغني بمدينة سلا¹⁰، وزاوية سيدي الحلوي¹¹، علاوة على الزاوية التي أسسها السلطان أبو عنان فارس قبل حملته الشهيرة على قسنطينة وبلاد الزاب سنة 758هـ/1356م¹²، حيث يقول ابن الحاج التميمي عنها: "...وفي تلك الأيام جاز مولانا أيده الله إلى عدوة سلا، وعبر الوادي

1- المقرئ: الخطط-المصدر نفسه، ص432.

2- المقرئ: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص432.

3- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص68.

4- محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص185. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي بيروت 1981، ط2، ص4.

5- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص224.

6- الجزنائي، المصدر السابق، ص76-77.

7- ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب، ص312.

8- السلاوي، المرجع السابق، ج2، ص66.

9- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص71.

10- ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الحسن، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط 1965م، ص84.

11- هوارية بكاي، المرجع السابق، ص143.

12- عبيد بوداود، المرجع السابق، ص418.

الذي حلي في العيون وحلا، ودخل الزاوية التي أمر ببنائها للفقراء والمساكين وجعلها على شرف همته من أوضح الدلائل والبراهين فجاءت من أبرع الزوايا وأنفس الخبايا، وخصها الحسن بأرفع المزايا، وحبها الجمال بالمرباع والصفايا فما شئت من ترتيب فائق، ومنظر رائع رائع، ووثاقة مبان، وأوضاع حسان، وإتقان اختطاط، وبراعة استنباط...¹.

أمّا الرّبط فمفردها رباط، وكانت هذه الرّبط منتشرة على حدود الدّولة الإسلاميّة المتاخمة لأرض العدو، خاصة في بلاد الشّام والمناطق التي كانت في جهاد مستمر مع الصّليبيين، استعداد للغزو والجهاد²، وبالرغم من الدور الجهادي الذي مثله الرّبط على امتداد الثّغور الإسلاميّة، إلّا أنّه جمع بين حياة الحربية والحياة الروحيّة، بل وتغلّبت عليه الصّفة الدّينيّة في العهد المملوكي، خاصّة بعد أن ضعف الخطر الصّليبي بالشرق³، لذا فقد صارت هذه الرّبط مأوى للصّوفيّة والفقراء⁴، بل صارت في كثير من الأحيان لا تؤدّي الغرض الأوّل المذكور، وقد ساعد انتشار الطّرق الصّوفيّة في هذا العصر على تنشيط دور الرّبط وتحويلها إلى دور الصّوفيّة⁵، على أنّ الرّباطات كانت أقلّ انتشارا في بلاد المغرب منها في المشرق استنادا لما ذكره ابن مرزوق: "... وأما الرّبط على ما هو المصطلح عليه في المشرق فلم أر في المغرب على سبيلها ونمطها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح والزاوية المنسوبة لسيدنا أبي زكرياء يحيى بن عمر (نفع الله بهم) بسلا غربي الجامع الأعظم منها، ولم أر لهما ثالثا على نحوهما في ملازمة السّكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر نفع الله بهم...⁶.

وقد اهتمّ سلاطين المماليك - كما اهتمّ أسلافهم من حكام الدولة الإسلامية - بإنشاء الرّبط، لما تقدّمه هذه المؤسسات من أغراض دينيّة واجتماعيّة، لما تؤدّيه هذه الرّبط من خدمات لفئات مختلفة⁷، وتبعهم في ذلك الأمراء المماليك وبعض السيّدات الصّالحات، وقد دلّ على هذا الاهتمام ما أحصاه المقرئ من عدد معتبر منها، فقد عدّها بلثني عشرة رباطا.

1- المرجع نفسه، ص 418.

2 المقرئ الخطة...، المصدر السابق، ج 2، ص 427. حياة ناصر حاجي، المرجع السابق، ص 164.

3 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 196. سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص 67.

4 السيد النشار: المرجع السابق، ص 104.

5 - عاصم رزق، المرجع السابق، ج 1، ص 100 - عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 182-183 - عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري...، المرجع السابق، ص 168.

6- المصدر السابق، ص 413.

7 - محمد عبد الستار عثمان المرجع السابق- ص 188.

ثالثا- التعليم وأصناف العلوم:

1 -التعليم:

لقد اهتمّ الممالك بالتعليم بقدر اهتمامهم بالعلماء والفقهاء، لذا فقد كان منتشرا ومتاحا لعامة أفراد الشعب المصري¹، دلّ على ذلك - ما شهدناه من - انتشار للمؤسسات الفكرية والدينية، باعتبار أن الممالك أنفسهم كانوا يحضون بنصيب من التعليم قبل التحاقهم بالخدمة في الجيش أو في البلاط، حيث كان يتعلّم المملوك في الطّباق² مبادئ الخطّ وحفظ القرآن والشّرائع في المرحلة الأولى، ثمّ يتعلّم الفروسيّة والرّماية وفنون الحرب في مرحلة لاحقة، وكان يشرف على هؤلاء الممالك الفقيه أو المؤدّب الذي كان يعمل على تربيتهم وتنشئتهم تنشئة دينيّة³، وقد كان التعليم ينقسم في هذا العصر إل مرحلتين:

أ. مرحلة التعليم الأولي أو الابتدائي:

كانت تتمّ هذه المرحلة بالكتّاب، كما أطلق عليها أيضا مكاتب الأيتام⁴، لكثرة وفود هذه الشريحة على هذه المنشآت، حيث كانت الكتاتيب مخصّصة لأولاد المسلمين، وكانت تعدّ مدارس ابتدائية، وكان يشرف على تعليمهم المؤدّب أو العريف⁵، وقد يوجد في الكتّاب أكثر من عريف⁶، حيث يشترط في المؤدّب أن يتحلّى بشروط المهنية كالأهلية والحصول على الإجازة العلمية، هذا بالإضافة إلى التحلي بلباس الوقار والتواضع والربّانية والتّدين⁷، وأن يترفّق بالمتعلّمين وأن يعلمهم قصار السّور من القرآن، بعد أن يعود الصّبيّة على الصلاة، ثمّ يتعلمون الحروف بضبطها⁸، ومن أراد تعلّم الخط ابتغاه من أهل صنّعته¹، كما يلقّن أصول

1 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص71.

2 - المقرئ، الخطط، المصدر السابق، ج3، ص327. سيد باز العريبي، المرجع السابق، ص84. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص201.

3 - عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص16-18.

4 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص201. سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص72.

5 - هناك فصل بين الوظيفتين بالمؤدّب غير العريف، ويجعل هذا الأخير مساعدا للأول. ينظر نقولا زيادة، "المعلم"، مجلة العربي، ع516، نوفمبر 2001، ص57.

6 ببيرس الدوادار، زبدة الفكرة، المصدر السابق، ص22. سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام-المرجع السابق-ص328. عبد الستار عثمان، المرجع نفسه، ص148.

7 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص111-112.

8 - نفسه، ص110.

الحساب ومبادئ الإنشاء دون إغفال الأخلاق الحميدة، كبرّ الوالدين، وينهون عن العادات السيئة دون إفراط في التأنيب لمضرته²، على أن تدفع لهذا المؤدّب أجرته من الأعطيات أو التبرعات أو من عائدات الأوقاف التي يجسّها أهل البرّ والإحسان، فالتعليم في الكتاتيب كان دون مقابل³، عدا ما يصرف لهذا المؤدّب من مكافأة بعد ختم الصبي القرآن - كما سيأتي-.

أمّا عن طريقة التدريس بالكتاتيب فقد نوّه ابن خلدون إلى اختلافها بين المغرب والمشرق، فقد وصف تعليم الصّبيان في مصر بأنّ: "... عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشّبيبة، ولا يخلطونه بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد، كما تتعلم سائر الصنائع، ولا يتداولونها في مكاتب الصّبيان، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من المهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنّعته"⁴، وكان دأب المشاركة إذا أتم الصّبي حفظ القرآن، أن يُحتفلَ به احتفالاً كبيراً كان يسمى "الإصرافة" وهو ما يقابل الختمة في بلاد المغرب⁵، فيزيّن الكتاب وكذلك الصّبيّ، ويركب على فرس، ويسير أمامه بقية الصّبيان منشدين حتّى يصلّون إلى بيته فيدخل المؤدّب ويسلم اللّوح لأم صاحب الإصرافة ويتقاضى قدرًا من المال⁶، فيؤهل بموجب هذا التّوزيع للانتقال إلى المرحلة الثّانية من التّعليم⁷، أمّا الصّبيّ الذي لم يحصل حفظ القرآن حتّى سنّ البلوغ فإنّه كان يصرف ليحلّ محله أحد صغار الأيتام⁸.

-
- 1 ابن خلدون، المقدمة، المصدر نفسه، ص741. محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق-ص146.
 - 2 - ابن خلدون، المقدمة، ص 1042 - 1043. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 151. عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 145-149. عابد يوسف، المرجع السابق، ص 115. أحمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، المكتب الإسلامي، بيروت، 1394هـ، ص 14-15.
 - 3 - محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة 1934، ص44. عابد يوسف، المرجع السابق، ص87.
 - 4 - ابن خلدون، المقدمة، ص1040.
 - 5 عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص202.
 - 6 - سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص152.
 - 7 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص72.
 - 8 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب. التعليم العالي:

كان يتم هذا الطّور في المؤسسات التعليمية كالجوامع والمساجد والمدارس والبيمارستانات، إذ كانت تقدّم هذه المؤسسات دروساً في مجالات معيّنة ومحدّدة من قبل أساتذة متخصصين في الميادين العلمية، وكذلك لما كانت توفره هذه المؤسسات للطلبة من خدمات كالمسكن¹ والمطعم والملبس، كما كان يُخلع على المدرّس أفخر الخلع² ونتيجة لما مثلته وظيفة التدريس من جلاله قدر لدى عموم المجتمع، كانت الأوقاف الأوقاف تلعب دوراً هاماً في تغطية نفقات هذه الدّور، وعادة ما كان الواقف، والذي يكون في كثير من الأحيان يمثل السلطان نفسه³، يحدّد ما يدرّس بمدرسته من فقه على المذاهب الأربعة أو غيرها من العلوم كالحديث والتّحقيق وغيره⁴، وبالنسبة لأهم العلوم، فقد حدّد علماء هذا العصر مجموعة من التّخصّصات العلمية تمثّلت على الخصوص في أصول سبعة هي: العلوم الشرعية، العلوم اللّغوية، العلوم الطّبيعية، علم الهندسة، علم الهيئة، علم العدد والأرتماطيقي، والعلوم العملية كالسياسة والأخلاق⁵، واختير في هذا ذوي الكفاءة والفضل والعلم من أهل المذاهب السّنية الأربعة المعتمدة⁶، والطلاب يحصلون منه م على الإجازات العلمية⁷.

2 الحركة العلميّة وأعلامها:

إنّ حركة إنشاء المؤسسات التعليميّة وكثرتها ونوعاً، والرّعاية الرّسمية لها، انعكست إيجابياً على الحركة العلميّة في دولة المماليك، فازدهرت أصناف العلوم خاصّة الشرعية منها، وكثرت التّأليف في مختلف الفنون، وشارك كثير من العلماء في عدّة تخصصات علميّة، والتي انقسمت عند المسلمين إلى صنفين، علوم

- 1 - مثل رباط البغدادية الذي أنشأته السّتّة تذكّار باي خاتون ابنة السلطان الظاهر بيبرس سنة 684هـ/ 1285م ورخصت للطلبة بالإقامة فيه، ينظر: عابد يوسف، المرجع السابق، ص109.
- 2 - عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص136-139.
- 3 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص203.
- 4 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص117.
- 5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص470-480. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص202.
- 6 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، ج1، ص387- عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص144-145.
- 7 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص119. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص83. سيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام...، المرجع السابق، ص327.

نقلية وتشتمل على العلوم الشرعية واللغة العربية يأخذها المتعلم عن وضعها، وعلوم عقلية وتشمل الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية وعلم الهندسة، علم الهيئة وغيرها من العلوم التي يهتدي إليها الإنسان بفكره¹.

أ - العلوم التقليدية:

كانت العلوم الدينية أو الشرعية تلقى رعاية السلاطين والعلماء والطلاب على حد سواء، نظراً للمكانة الاجتماعية التي كان يتبوّؤها صاحبها في المجتمع، وما تخوله له من مناصب رفيعة في الدولة كالقضاء والفتيا والتدريس، وهي مقسّمة إلى عدّة تخصصات نذكر منها: علوم القرآن كالتفسير والقراءات، علوم الحديث والرجال، علوم الفقه وأصوله، علم الكلام²، كما أنّ هذه العلوم كانت محلّ اهتمام جميع أفراد المجتمع باعتبارها من الضروريات التي على الفرد تعلمها لأهميتها في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية. وقد عرفت هذه الفروع ازدهاراً كبيراً في هذه الفترة خاصة بعد أن أصبحت مصر مقصد للعلماء والفقهاء إثر الهجمات المغولية والصليبية وكذلك تراجع دور الأندلس³، ممّا سبب هجرة العلماء من العراق والشام خاصة بعدما أصبحت القاهرة مركز الخلافة العباسية، وما مثله الأزهر من رمزية في العالم الإسلامي، وهذا بعدما استعاد دوره في العصر المملوكي، قاصدين من ورائه إنشاء قلعة للمذهب السني، حيث كانت آثار التشيع لا زالت قائمة أوائل عصر المماليك، بالرغم من الجهود التي بذلها الأيوبيون قبلهم عقب إسقاط الخلافة الفاطمية⁴، ففي سنة 665هـ/1264م قام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بمنع أي مذهب ما عدا المذاهب السنية الأربعة، ولم تعد تقبل شهادة ولا يرشح للقضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا إذا كان

1 ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص549.

2 - ابن خلدون، المقدمة، ص 782-838 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 470-474 - أبو حامد الغزالي، المتصفي من علم الأصول، ج1، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1937، ص 3-4 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، تح: سعيد المنذوق، دار الفكر، بيروت، 1996، ص 25-30 - جلال الدين السيوطي، ألفية السيوطي في علم الحديث، تصحيح و شرح: أحمد محمد شاكر، دار الرجاء، الجزائر، 1934، ص2 وما يليها - بن قدامة، المصدر السابق، ص9. بدر الدين بن جماعة، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، ط2، تح: محي الدين عبد الرحمن، دار الفكر دمشق، 1986، ص 29.

3 - السيد النشار، المرجع السابق، ص56.

4 - أبو شامة، المقدسي، المصدر السابق، ص688. المقرئ، الخطط، ج2، ص 343. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص 380-385. النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 362.

الشخص من أتباع أحد المذاهب السنية المعتمدة¹ و كنتيجة لهذا الانتصار السني برز العديد من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمشتغلين بالقراءات، وكثرت التأليف بأنواعها، من تفاسير وموسوعات ومختصرات المصنفات الأساسية.

ب - العلوم العقلية:

رغم التطور الكبير الذي شهدته العلوم العقلية سواء في مصر المملوكية أو في دولة بني مرين، إلا أن هذا لم يمنع من تطور وازدهار العلوم العقلية والتمثلة خاصة في الفلسفة والطب والهندسة وعلم الفلك والحساب والتعاليم² وغيرها من ضروب هذا الباب، فقد اهتم عدد كبير من العلماء بهذا النوع من العلوم، بل إن هذا الصنف قد تطور في هذه المرحلة بشكل ملفت، باعتبار أن هذا العصر قد شهد مرحلة النضج في هذا الميدان، كونه حوى عصارة وتراكم العهود السابقة لهذا العصر، كما أن العلوم العقلية في هذه الفترة يمكن اعتبارها رافدا حضاريا وجسرا لنقل معارف الشرق إلى الغرب، غير أن هذه العلوم - وخاصة الفلسفة - لم تقابل كلها دائما بالقبول من عموم العلماء والحكام، إذ كانت في كثير من المخططات التاريخية تتعرض للنكبة وإحراق مؤلفاتها، أو على أقل تقدير من هذا، كان أعلامها يتعرضون للإقصاء من بلاطات الحكام، وبالمقابل قوبلت العديد من العلوم بالقبول والاحتراف كعلوم الطب والصيدلة والتي تعرّف بالطب العام³، والرياضيات وعلم الهيئة أو الفلك⁴، وكعينة عن هؤلاء العلماء في ميدان العلوم العقلية في الدولة المرينية نذكر:

- عمر بن محمد الرجرجي عبد العالي الفاسي : (ت 810هـ) الذي كان إماما في علم الفرائض والحساب فهو من صدور العلماء⁵، وأحمد العباس أحمد بن شعيب الطبيب والأديب والبارع في علم التعاليم، وله معرفة كبيرة بالأشجار والنبات⁶، كما عرف منهم عبد الرحمن الهزميري أبو زيد

1 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، ج7، ص 134.

2 - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 629. القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، ص 475.

3 - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 40.

4 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 223.

5 - التمكني أحمد بابا، المصدر السابق، ج 1، ص 339-341.

6 - بن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 375.

زيد (705هـ) وهو عالم بالهندسة وشيخ ابن البناء فيما يستشكل عليه من مسائل هذا الباب¹ والقاضي الفرائضي محمد بن أحمد بن عبد الله اليفريني الفاسي (ت 918هـ)².

أما عن الدولة المملوكية فهي بدورها قد برز في ربوعها العديد من الأعلام ممن اشتغل بهذا الباب، أو شارك بينه وبين العلوم النقلية، ونذكر منهم:

برهان الدين إبراهيم بن عبد الله الأخلاطي (ت 799هـ / 1396م) كان عالماً في الصيدلة والطب والكيمياء³ وبرهان الدين بن زقاعة (ت 816هـ / 1413م)⁴، الذي كان بارعاً في معرفة الأعشاب، وتحضير العقاقير النباتية⁵، والطبيب عبد الرحمن بن محمد بن علي بن أحمد البسطامي (ت 858هـ / 1454م)⁶، أما في ميدان علم الكلام والفلسفة، فلقد برز في مصر عددٌ كبير من الأعلام، نذكر منهم: نظام الدين بن عيسى السيراقي (ت 833هـ / 1430م)⁷ الذي اشتغل بالحكمة والمنطق، وسراج الدين الدين القاسم بن مسافر بن زكريا الرومي (ت 856هـ / 1452م)⁸، عرف بالفقه وعلم الكلام وجلال الدين المحلي (ت 864هـ / 1460م)⁹.

ونذكر ممن اشتهر في دولة المماليك من علماء الرياضيات عمر بن سراج الدين الفيومي (ت 801هـ / 1399م)¹⁰، جمال الدين عبد الله بن خليل بن يوسف المارداني (ت 809هـ / 1406م)¹ الذي اشتهر بعلم الميقات والهيئة أو الفلك².

1- التمبكي أحمد بابا، المصدر السابق، ج 1، ص 262-263.

2- نفسه، ج 2، ص 270.

3- ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6، ص 356.

4- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 14، ص 126. المنهل الصافي، ج 1، ص 152. السخاوي، الضوء اللامع، ج 1، ص 130.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 221.

6- ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 293.

7- ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 207.

8- السخاوي، الضوء اللامع، ج 3، ص 243.

9- السخاوي، الضوء اللامع، ج 7، ص 39-41. السيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص 209. خليفة، كشف الظنون، ج 4، ص 76.

10- ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 9.

وخلص القول أن الحياة الفكرية في الدولتين، لا يمكن اختزالها في هذه الأسطر المحدودات، كونها مثلت مشهدا بارزا طبع الحياة العامة لهذه المجتمعات الإسلامية، والتي كانت تولي للعلم وأهله المكانة الرفيعة، والدور الأبرز.

1- ابن حجر، إنباء العهر، ج6، ص18 . السخاوي، الضوء اللامع، ج5، ص19. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص84.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص222.

الفصل الرابع

مظاهر الروابط الفكرية بين المرينيين والمماليك

أولا - الوحدة السّنية

ثانيا - تأثير طرق التدريس.

ثالثا - رحلة الحج

رابعا - الرحلة العلمية

خامسا - التصوف والطرق الصوفية

سادسا - الإجازة العلمية

سابعا - المناظرات العلمية

ثامنا - الكتب المعتمدة

إنّ الحديث عن الروابط الفكرية بين المغرب الأقصى وبلاد المشرق، يجرّنا إلى التركيز على آليات هذه الروابط، فإذا كانت العلاقات السياسية انتسجت عن طريق المراسلات بين ملوك الدولة المرينية وسلاطين المماليك، فإنّ الروابط والصّلات الفكرية توطّدت عن طريق الرّحلة العلمية والحجّية مغرباً ومشرقاً، بين مختلف الفئات المجتمعية وخاصّة بين الطّلبة والعلماء، ما نجم عنه احتكاك علمي وفكري بين المغاربة والمشاركة، ما مكّن كذلك من نسج علاقات متنوّعة فيما بينهم، الأمر الذي تمخّض عنه تبادل ثقافي طبيعي واسع النّطاق، نظراً للخصائص التي جمعت بين المغرب والمشرق منذ عهود سبقت تأسيس كلّ من الدولتين، لتشمل هذه الروابط الميادين الدّينية والروحيّة والعلميّة بمختلف مجالاتها.

أولاً - الوحدة السّنية:

لقد عيّى ملوك بني مرين على إعادة الاعتبار للمذهب المالكي، الذي عرف محنة أيام الموحدين، حيث اتّبع هؤلاء سياسة مذهبيّة رسم معالمها محمد بن تومرت، وتلخّصت في الاعتراف بالمذهب الظاهري¹، إضافة إلى التّلفيق بين بعض الأفكار المقتبسة من المذاهب الأخرى، مثل فكرة الإمامة والمهدوية والعصمة²، ورغم محاولات التّضييق التي تعرّض لها مذهب مالك، إلّا أنّه مع سقوط دولة الموحدين، سقطت معها سياستها المذهبية، ورجعت بلاد المغرب الإسلامي قاطبة — بما فيها المغرب الأقصى — إلى الوفاء لمذهب أهل المدينة، ونتيجة لذلك عادت كتب المالكيّة التي اشتهرت ببلاد المغرب إلى الواجهة في المؤسسات العلمية الكبرى، كالموطأ للإمام مالك، والمدوّنة على رواية الإمام سحنون (ت 240هـ/850م)³ والرّسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب التهذيب للبرادعي

1- المذهب الظاهري كان يلتزم بنصّ القرآن والسّنة والجماع ونبذ القياس والرأي في الدّين، وساد هذا المذهب في بلاد المغرب أيام المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وأحرقت كتب الفروع بعدما جرّد ما فيها من قرآن وأحاديث. انظر: المكي قلاينة، "التعديل عند ابن حزم"، مجلة الحضارة الإسلاميّة، ج1، أبريل 1993، ص 188-203. ابن خلدون، المقدمة، ص 799-800.

2 - محمد ابن تومرت، أعز ما يطلب، تح: عمار طالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 229-234.

3 هو سحنون بن سعيد التنوخي قاضي القيروان. انظر: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، ج1، تح: بشير بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص 376-385. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، تر: محمود فهمي حجازي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978، ص 138.

(ت: 392هـ/983م)¹ والتلقين لعبد الوهاب البغدادي، والواضحة لابن حبيب والعتبة للعتي، والأسدية التي جمعها أسد بن الفرات وغيرها²، كما عزّز هذا المذهب دخول المؤلفات المصرية المشهورة، خاصة مختصري ابن الحاجب، وخليل بن إسحاق، وعلى وجه الخصوص هذا الأخير الذي كان يعدّ من أجل كتب فروع المالكية، وعرف عناية الطلبة والعلماء مغربا ومشرقا³، وعادت الوحدة المذهبية لأقطار بلاد المغرب، ولم يخرج المغاربة عن نطاقه⁴.

أما بالشرق فقد فرض حكام الدولة الأيوبية منذ قيامها على الناس إتباع المذاهب السنية الأربعة المعتمدة عند أهل السنة⁵، حيث عمل سلاطينها على محاربة المذهب الشيعي الإسماعيلي، وأغلقت المدارس التي كان هدفها نشر قيم الفاطميين⁶، وقد حذا الماليك نفس السياسة في القضاء على هذا المذهب، واجتثاث عقائده وآرائه، وبالرغم من أن الماليك قد حكموا بعد قرن من سقوط الدولة الفاطمية، ورغم الجهود المذكورة التي بذلها الأيوبيون في محاربة المذهب الإسماعيلي، إلا أن هذا المذهب لم تستأصل شأفته بالمرّة، بل بقيت بعض معتقداته منتشرة في بعض المناطق كأسوان وإدفو وإسنا وغيرها من مدن الصعيد⁷، ولذا فقد انبرى السلاطين الماليك لمحاربة هذا المذهب رسميا، وفي مقدمتهم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي قام سنة 665هـ/1264م بمنع أي مذهب ما عدا

- 1- أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي، كان من كبار أصحاب أبي زيد القيرواني أنظر: الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1969، ج2، ص 359-360.
- 2 - حاجيات، أبو حمو موسى الثاني (حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 39.
- 3 - أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي وآخرون، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 169. أبو العباس أحمد بن زكري، غاية المرام في شرح مقدمة الإمام، تح: محمد أويدير مشنان، ج 1، دار التراث ناشرون، الجزائر، 2005. ص 213-214. حركات، المرجع السابق، ج2، ص204.
- 4 - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 96. محمد بوشقيف، تطور العلوم بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14م-15م)، رسالة دكتوراه في المغرب الإسلامي، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2011، ص 100-101.
- 5 - المقرئ، الخطوط...، المصدر السابق، ج2، ص 344. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج7، ص 134.
- 6 محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص68.
- 7 - فوزي أمين، المرجع السابق، ص210.

المذاهب السنية الأربعة المشهودة، بل وضيّق على أصحاب هذه التحل كثير من المزايا كقبول الشهادة و اعتلاء القضاء أو المنابر أو التدريس ¹، كما قام الظاهر بيبرس ومن بعده من السلاطين المماليك، بتعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة ²، وتعزّز كل هذا بتفعيل دور المدارس التي كانت تنشط بربوع الدولة المملوكية، سواء ما انشئ في العصر المملوكي أو العصور السابقة له، حيث أشركت هذه المؤسسات في هذه السياسة المذهبية الواضحة، كطرف أساس لاجتثاث بقايا الأفكار التي تربط الناس بالفكر الباطني، فمن هذه المؤسسات ما خصّص لتدريس المذاهب الأربعة، مثال ذلك المدرسة الظاهرية ³، وكذلك المدرسة الصالحية التّحمية التي بناها نجم الدين أيوب، ومنها ما خصّص لتدريس مذهب بعينه، كالمدرسة القمحية التي خصّصت لتدريس المذهب المالكي ⁴، و المدرسة الجمالية التي أنشأها الأمير علاء الدين مغلطي الجمالي، والتي كان دورها مكرّسا لتدريس المذهب الحنفي ⁵، ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير بالمذاهب السنية فقد انتشرت بعض الكتب الهامة والمعتمدة في المذاهب الأربعة مثل: كتاب مجمع البحرين والجامع الكبير ومختار الفتوى في فقه الحنفية ⁶، أما كتب المالكية فمنها مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل والتّوادر لابن أبي زيد، والذخيرة للقراقي ⁶، أمّا فيما يخصّ كتب الشافعية فبرزت بعض الكتب المعتمدة مثل: المبهمات على الرّوضة لجمال الدين الإسوي، والوسيط للغزالي، ومنهاج الطّالبيين للتّووي، يضاف إلى هذا المغني لابن قدامة والنهاية الصغرى لابن رزين في فقه الحنابلة وغيرها ⁷.

وقد ساهمت هذه الوحدة السنية بين المشرق والمغرب، في حمل كثير من علماء والفقهاء في الانتقال والتأثر بمختلف المذاهب، خاصّة من علماء المغرب الأقصى الذين زاروا المشرق، وتأثروا بمذاهب أخرى، إمّا مزاججة مع المذهب المالكي كما هو الحال بالنسبة لأبي القاسم محمد بن أحمد

1 - عبد الرحمن بالأعرج ، المرجع السابق ، ص272.

2 القلقشندي، صبح الأعشى، المصدر السابق، 4، ص36.

3 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة..، المصدر السابق، 7، ص12.

4 ابن خلدون، التعريف..، المصدر السابق، ص 279. أحمد مختار العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي...، المرجع السابق، ص104.

5 حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، 2، استانبول، 1941، ص1284.

6 المقرئزي، الخطوط...، المصدر السابق، 2، ص312.

7 - القلقشندي، صبح الأعشى...، المصدر السابق، 1، ص 473-474.

السبتي الشريف الحسيني (ت: 760هـ/1360م) الذي جمع بين المذهبين الشافعي والمالكي¹ أو من تحوّل جملة عن مذهب المغاربة، كما هو الحال بالنسبة لمحمد بن موسى الدكالي المراكشي (823هـ/1425)، الذي يعود أصله إلى المغرب الأقصى، والذي جال أقطار المشرق وتخصّص في علوم الحديث، وكان على مذهب الشافعية²، يضاف إليهم تاج الدين محمد بن إبراهيم المراكشي (ت: 752هـ/1353م)، الذي استقرّ بدمشق وكان من فقهاءها يفتي بالمذهب الشافعي، حيث صنّفه السبكي في كتابه "طبقات الشافعية"³ ومحمد بن أبي بكر الوتري (ت: 663هـ/1264م)، 663هـ/1264م)، الذي يعود أصله إلى المغرب الأقصى، ودرس بمختلف أقطار العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، وقد عاد إلى المغرب وعرف بالوعظ، وتخرج على يديه بمراكش ابن رشيد السبتي وغيره، وكان من فقهاء الشافعية وعلى هذا المذهب كان يناظر ويحاجج⁴.

هذه الوحدة السنية تعدّ من أبرز الروابط التي جمعت بين المغرب الأقصى في عصر المرينيين، والمشرق الإسلامي في عهد المماليك، كما اشترك القطرين في سياسة تضيق الخناق على باقي المذاهب التي لم تجد لها منفذاً في مجتمع البلدين، علماً أنّ هذه السياسة عمل على تكريسها دول سبقت كل من المرينيين والمماليك من حيث الحقبة الزمنية، نقصد بها كلّ من الموحدين والفاطميين، اللذين طبّقوا سياسة مذهبية حاولوا من خلالها إرساء الحكم نتيجة للولاء الروحي الذي يحظى به حكام هذه الدول، وعلى العموم فقد نجح كلّ من الحكام المرينيين والمماليك، في تضيق الخناق على أصحاب المذاهب الأخرى، خاصّة المذهب الشيعي الذي أعلن المماليك حرباً ضروساً عليه، وإحلال بدله مذاهب أهل السنة⁵، رغم أن مذهب الشيعة كان أقلّ انتشاراً في بلاد المغرب الإسلامي بشكل عام، بغض النظر عن بعض المحاولات التي أوردها ابن خلدون⁶ في بعث هذه الفرقة ببلاد المغرب،

1 - حركات، المرجع السابق، ج2، ص318.

2 - نفسه، الصفحة نفسها.

3 - السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، حلب، 1964، ص7.

4 - حركات، المرجع السابق، ج2، ص317.

5 - المقرئ، الخطط، ج2، ص343. ابن خلدون، المقدمة، ص804-805.

6 - ابن خلدون، التعريف، ص827.

فربما ساهمت السياسة الفاطمية في بلاد المغرب والقطيعة المذهبية أيام المعز بن باديس في انحسار هذه النحلة.

لقد كان المذهب المالكي هو المذهب السني المشترك بين بلاد المغرب الأقصى وأقاليم معتبرة من ربوع الدولة المملوكية، حيث يعدّ هذا المذهب من أبرز السمات في مجال العلاقات الثقافية في جانبها المذهبي بين المغرب والمشرق، ولا شك أنّ حكام المغرب عموماً قد أدركوا أنّ هذا المذهب هو المنتشر بين عموم المغاربة، لذا عزّزوا مكانته وعملوا على تدعيمه رسمياً وإنعاشه بعد عدّة محن، خاصة أيام العبيدين والموحّدين، كما كان المالكي كانوا على دراية تامّة بأهمية الوحدة المذهبية لمجتمعهم، لذا فقد نظّموا الحياة الدينية، وضبطوا بدقة ممثلي المذاهب السنيّة الأربعة، وحدّدوا لكلّ مذهب قاضي¹، ومن هؤلاء القضاة، بعض أعلام المالكيّة من المغاربة بمصر، نذكر منهم عبد الرحمن بن خلدون الذي انبرى لهذا المنصب برغبة من السلطان الظاهر برقوق²، كما رشّح أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب لهذا الخطة بمصر³، علماً أنّ العلمين المذكورين يعتبران شخصيات ائتلافية مغاربية شغلت خططاً رسمية لدى البلاطات المغاربية ومنها البلاط المريني.

ثانياً - تأثير طرق التدريس:

إنّ مهمّة ومهنة التعليم، تعدّ عاملاً أساساً من عوامل رقيّ وازدهار السلطنة والمجتمع على حدّ سواء، حيث ارتبطت الدّعوة الإسلامية بالتعليم منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وردت في هذا الصّدّد آليّات كثيرة تأمر بالقراءة والتعلّم⁴، عزّزتها أحاديث نبوية شريفة، وهو العامل الذي طبع التعليم في بلاد الإسلام بالطابع الديني ابتداءً⁵، ذلك أنّ العلم يعدّ مقياساً مهماً لقياس مدى حضارة الأمم ورقّيتها، وكذا حاجة السلطنة إلى النخب الـ علمية لتسيير أجهزتها المختلفة، وإضفاء هالة من

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 35 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، ج7، ص 121.

2 - ابن خلدون، التعريف...، ص1223-1224 - الشوكاني، البدر الطالع...، ج2، ص 237.

3 - ابن خلدون، التعريف...، ص848.

4-خطيف صابرة، فقهاء تلمسان والسلطة الزيرية، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص:258.

5-المرجع نفسه،الصفحة نفسها.عابد يوسف، المرجع السابق، ص110.

النظام والأبهاء عليها، مما يمنحها الشرعية والقبول الاجتماعي¹، خاصة وأن الدولتين المرينية والمملوكية، لم تقم على أسس مذهبية تضمن الولاء لهذه الدول في أوساط العامة²، ومن هنا كان لزاما على هذه الدول أن تنشئ نظاما تعليميا متينا، وهذا الذي انعكس إيجابا على الدولتين، حتى بلغ التعليم من النضج في هذه المرحلة الشيء الكبير، وبلغ التعليم ومناهجه أوجه في عصر هذه الدراسة³، واعتبر التعليم صناعة من الصنائع الراقية، وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون "...أن تعليم العلم صناعة... شأن الصنائع كلها؛ فدل أنها صناعات في التعليم..."⁴.

وعليه فقد شهدت المدن المملوكية وخاصة القاهرة مقر الخلافة والسلطنة المملوكية، حركية علمية كبيرة، ما دفع بالعلماء من مختلف أصقاع العالم الإسلامي - ومن جملتهم علماء الدولة المرينية - إلى النزوع إليها قصد الاستفادة من علمائها ومناهج التدريس بها⁵، نظرا لبروز مناهج جديدة في هذه الفترة، ومواكبة لطبيعة الحركية الجديدة أيام المماليك⁶، فنتج عن هذه الحركية إطلاع علماء المغرب الأقصى على مناهج جديدة في تلقين وتدريس العلوم في مختلف الأطوار⁷، فعمل هؤلاء على الاقتباس من هذه المناهج، وتوظيفها في المدن المرينية، وكعينة عن العلماء الذين رحلوا من المغرب الأقصى نحو الديار المصرية قصد النهل من أعلامها، أبو عبد الله بن شعيب الدكالي، الذي وصف بـ: "تعليمه المفيد"⁸، مما جعله ينقل مناهج التعليم المشرقية لتلامذته⁹، وهذا نظرا لسند التعليم الموصول في مصر، كما عبّر عن ذلك ابن خلدون بقوله: "بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال

1- بوزيدي أحمد، العلماء السلطة والمجتمع بالمغرب المريني، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر الميزان، فاس 2008، ص 69.

2- بوزيدي أحمد، المرجع السابق، ص 67.

3 - هشام بن سالم، المرجع السابق، ص 190.

4- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 393.

5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 281.

6 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص 110.

7 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 281.

8 - ابن خلدون، المقدمة، ص 772.

9 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 281.

ال عمران الموفور واتصال السند فيه ¹، وأكد عن هذا المعنى في موضع آخر بقوله: "...كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة ²".

ونسستعرض بعضا من هذه المناهج التي وفدت على المغرب الأقصى من المشرق في مجال التدريس، نعملها كما يلي:

— طريقة السماع: هي من أقدم المناهج التعليمية وأشهرها بالعالم الإسلامي، وقد سبق انتهاجها في المغرب الأقصى لفترة الدراسة، إلا أنها طريقة بقيت معتمدة في التدريس إلى أزمنة متأخرة، وهي أن يقرأ الأستاذ المدرس من كتابه أو من ذاكرته على تلامذته، كما يمكن أن يقرأ الطالب من كتاب أو إحدى الكتب المعتمدة بحضور الأستاذ المجاز فيها، سواء أُملي عليه أم لم يمل وهذا ما يسمى "العرض"، شريطة أن يكون الطالب منتبه لما يقرأ عليه ³، والسماع يعرفه القاضي عياض بقوله: "...الضرب الأول السماع من لفظ الشيخ وهو منقسم إلى إملاء وتحديث، وسواء كان من حفظه أو القراءة من كتابه، وهو أرفع درجات أنواع الرواية عند الأكثرين ... ⁴".

— طريقة الإملاء والإلقاء: كذلك هي من الطرق القديمة والشهيرة في العالم الإسلامي، حيث كانت تعتمد هذه الطريقة في الكتابات ⁵، سواء في التعليم القرآني، أو أن يملئ الأستاذ المدرس على جموع الطلبة من كتابه أو من حفظه، وعندما يتعذر على الأستاذ تلقين التلاميذ بفعل العدد الكبير، فإن هذا الأخير يستعين بالمستلمين أو المعيدين ⁶، فقد يتعدّد هؤلاء حسب كثرة عدد الطلبة ⁷.

1 - ابن خلدون، المقدمة، ص 775.

2 - صابرة خطيف، المرجع السابق، ص 258.

3 - صابرة خطيف، المرجع نفسه، الصفحة نفسها، صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط 12، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 88.

4 - الصمدي خالد، مجالس الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري، مجلة الحضارة الإسلامية، ع 1، المعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية، وهران، 1993، ص 141-142.

5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 162. محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص 73.

6 - هشام بن سالم، المرجع السابق، ص 196.

7 - منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، دار المريح، الرياض، 1981، ص 63.

– طريقة اختيار كتاب معين في صنف من أصناف العلوم وشرحه: وهي أن يسند الأستاذ المدرس إلى أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب معتمد بشكل تفصيلي ، في المادّة من المواد ، فيقوم الأستاذ المدرّس بضبط متن النص وتحليله وشرحه ، وفي هذا الصّدّد يقول ابن خلدون: "... ومن قبيل إلقاء الغايات في البدايات ما تسمعه من الأساتذة في بعض المدارس، ... يعربون البسملة في بداية درس النحو..."¹ ، فيقوم الطلبة بتقييد ما يسترعي اهتمامهم² ، وما لقّن لهم من قبل الأستاذ، وقد انتهجت هذه الطّريقة في الطّور العالي من التّعليم³.

– طريقة السؤال والجواب أو المحاورّة : عن هذه الطريقة حيث كان المبتغى من هذه الطريقة تعويد الطلبة على المحاورّة والنقاش واستخدام عقولهم للوصول إلى الإثراء الفكري، وساعد على نجاعة هذه الطريقة استعمال المختصرات لتسهيل تلقين العلوم ، كانت هذه الطّرق الأكثر شيوعا وانتشارا، وتقليدا متعارفا عليه في عصر الدّراسة ، وسنرى دور العلماء في تطوير هذه الطّرق وموقفهم منها، ومعها كيف دفعوا عجلة التّعليم إلى التّقدم ، وهي من أهمّ الطّرق التي وفدت متأخّرة على المغرب الأقصى، وفي هذا الصّدّد يقول ابن خلدون "...وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللّسان بالمحاورّة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها ..."⁴ ، فالمبدأ الأساس لهذه الطريقة، هي أن يكون للطّالب دور محوري في الوصول إلى المعلومات وهو أساس العملية التعليمية، فيصبح الأستاذ مجرد مشرف ومنسق لأفكار الطلبة التي استقوها ونهلوها من مختلف الكتب، ومسير للنّقاش الذي يدور بينه وبين الطلبة⁵ ، وقد لقيت هذه الطريقة القبول لدى العلماء والطلبة، ونتيجة لذلك ازدهر التّعليم بالمدارس والمساجد، وقد زعم بعض المؤرخين أنّ انتقال هذه الطريقة كان ابتداء إلى إفريقيّة، ومنها إلى بقية المدن في المغربين الأوسط والأقصى عن طريق ابني الإمام وعمران المشدالي⁶.

1 – ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 140.

2 – المصدر نفسه، ص 438.

3 – عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 163.

4 – ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 394.

5 – فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج 2، ص 353.

6 – عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 282.

– طريقة الكراسي العلمية: انتقلت هذه الطريقة من مصر بفعل الرحلة العلمية¹، وتقتضي هذه الطريقة أن يجلس الشيخ أو الأستاذ وسط الطلبة على كرسي – وبه تسمت هذه الطريقة – وهذا بغرض إلقاء درس من الدروس في فن من فنون العلم لخاصة هذا الشيخ²، كما عقدت بعض الكراسي العلمية للعامة من أجل الوعظ والإرشاد، وقد تميزت هذه الطريقة، كونها تعدّ خطوة من النظم الرسمية للدولة، كولاية القضاء والفتيا والوزارة، وكان إسناد هذه المناصب يشرف عليه السلاطين بأنفسهم على من تتوفر فيهم المؤهلات العلمية³، إلّا أنه من الجدير بالإشارة أنّ هذه الكراسي لم تكن محلّ إجماع بين الفقهاء من ناحية المشروعية، فقد عدّ بعض العلماء التدريس على الكرسي بدعة⁴ بينما اعتبر بعضهم أنّ اعتلاء الشيخ على الكرسي هي الطريقة مجدية لإيصال المعلومات لجميع الطلبة⁵.

وقد بلغ عدد الكراسي العلمية بجامع القرويين في عهد المريني، أربعون كرسيًا، كلّ له أسم يميزه عن باقي الكراسي، ككرسي الفقه والحديث والتفسير والنحو والقراءات....، وكان العلماء يتعاقبون عليها للتدريس⁶.

ثالثاً- رحلة الحج:

يعدّ الحجّ من أركان الإسلام الخمس، ولذا فقد حرص عامّة المسلمين على أدائها، ومن جملتهم حجاج الدولة المرينية، فرغم المشقة، وطول المسافة، وكثرة العوائق والمخاطر التي تكتنف طريق الحجّ، إلّا أنّ المغاربة عموماً آثروا على أنفسهم إلّا أن يتخطّوا كلّ هذه المصاعب استرضاء لوجه الله الكريم،

1 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2 - الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 177-178.

3 - إدريس عزوزي، "الكراسي العلمية بجامعة القرويين أيام ازدهارها وإشعاعها الفكري"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، أبريل 1993، ص 103.

4 - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 486.

5 - عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص 349.

6 - إدريس عزوزي، المرجع السابق، ص 105-112.

و هذا ما عبّر عنه ابن عبّاد الرّندي¹ في إحدى رسائله حيث يقول: "المشي إلى الحجّ في هذه الأزمنة ممّا يعظم حرص الناس عليه وتميل نفوسهم إليه، ويؤثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والإقامة"²، ولما كانت الديار المصرية في طريق الحجّاج من الدولة المرينية، فإنّ وفود المغرب الإسلامي اعتادوا على الإقامة في مصر³، ابتداء بالإسكندرية⁴ نحو القاهرة⁵، والتي عرفت بمنشآت إكرام المغاربة، على اعتبار أنّ أغلب الرّحلات الحجازية في هذه الفترة كانت تتمّ عن طريق البحر، نظرا للعوائق التي كانت تعترى المسالك البرية في بلاد المغرب⁶، على أنّ هذه الإقامة كانت لأغراض علمية دراسة وتدرّسا⁷، ومنها إلى ميناء عيذاب المطلّ على البحر الأحمر ومنه إلى ساحل جدّة ثم إلى مكّة المكرّمة⁸.

وقد عمل ملوك وسلاطين وأمراء الدولة المرينية على العناية بوفود الحجّ، انطلاقا من مراسلة سلاطين المماليك عن طريق دليل الحجّاج، الذي كان يعيّن من قبل البلاط المريني، وإيفاد الوفود الرّسمية على السلاطين المماليك، والتوصية بحجّاج الدولة المرينية، وشكرهم على إنجاح مواسم حجّ

1 - هو الشيخ الصّوفي أبو عبد الله محمّد بن عباد النفري الحميري الرندي (733-792 هـ / 1332-1390 م) من كبار علماء الأندلس، له كتاب التنبيه الذي وضعه على حكم ابن عطاء الله السكندري (709 هـ / 1309). ابن عباد الرندي، المصدر السابق، مقدّمة المحقّق.

2 - ابن عباد الرندي، المصدر السابق، ص 66.

3 - جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة، المصدر السابق، ج 2، ص 34. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام..، المرجع السابق، ص 342.

4 - عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص 99.

5 - أبو الحسن القلصادي رحلة القلصادي تمهيد الطالب ومنتهى الرّغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تح: محمد أبو الأحناف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978. ص 125-126. علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، دار طلاس للدراسات والنشر، 1989، ص 119.

6 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7 - يوسف عابد، المرجع السابق، ص 126.

8 - ابن جبّير، رحلة ابن جبّير، المرجع السابق، ص 48. سحر عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 196.

المغاربة إلى البقاع المقدسة¹، والأعمال الجليلة: كالقيام بكسوة الكعبة² والإنفاق على الفقراء³، ولا يستثنى من هذه الجهود الثنائية بين دولتي الماليك والمرينيين، ما كان يبذله حكام هذه الدولة الأخيرة من جهود ذاتية، في بذل المال وتحييس الأحباس وتمهيد الطرق وتأمينها⁴، كما اعتادوا بعث الرِّبعات الشريفة والمصاحف الجليلة المنمقة مع كبار الشخصيات المرموقة في الدولة وجهابذة العلماء لتحسيسها على البقاع المقدسة⁵، وقد ضمّ الرّكب الحجيجي المغربي عدّة فئات اجتماعية على رأسها الوفد الرّسمي المريني بالإضافة إلى فئة الطلبة والعلماء الذين ضمّنوا في كتاباتهم رحلاتهم الحجازية، واستعرضوا إجازاتهم العلمية التي جمعوها خلال ذات الرحلة⁶.

وبعدما أصبح الماليك أوصياء على خدمة البقاع المقدسة، صاروا يعنون بالحجيج على اختلاف مشاربهم، وخاصة الحجاج المغاربة الذين يشتركون مع الوفد المصري في جزء من طريق الحجّ، لذلك فقد كان المغاربة عموماً - ومن جملتهم الوفد الحج المريني - ينطلقون إلى الحجاز بمعية المصريين في يوم مشهود يسمى يوم الحمل⁷، في شهر رجب من كلّ عام خصّصوه بمناسبة انطلاق ركب الحجّ⁸، الحجّ⁸، حيث كان يشهده القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمختسين والحراس والسّقاء وأعلام الفقهاء والأمراء، والظاهر أنّ عموم المغاربة كانوا يشهدون هذه المراسيم على مختلف فئاتهم، فيقصد الكلّ مقرّ السلطنة بباب القلعة، فيخرج السلطان إلى الوفد، وأمامه أمير الحجّ المقرّر في تلك السنة، فيُطاف بالحمل في شوارع القاهرة ويستعدّون منذ ذلك الحين للمسير إلى الحجّ⁹، لذا فقد تلقّب كلّ

1 - القلقشندي، صبح الأعشى... المصدر السابق، ج 8، ص 86.

2 - المقرئزي: السلوك... المصدر السابق، ج 1، ص 445. ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، المصدر السابق، ص 300. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 237.

3 - ابن شداد، المصدر السابق، ص 300.

4 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 229.

5 - ابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 319. التنسي، تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص 211. ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص 1156.

6 - القلصادي، رحلة القلصادي، المصدر السابق، ص 149-150.

7 - المقرئزي، السلوك، المصدر السابق، ج 2، ص 9.

8 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 229.

9 - محمد بن عبد الله ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: محمد محمد عبد المنعم العريان، ج 1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1996، ص 65، البتوني، الرحلة الحجازية، ص 140.

من السلاطين المماليك بلقب "خادم الحرمين الشريفين"¹، ومن مظاهر هذه الخدمة، إقدام السلطان الظاهر بيبرس على المسير مع هذا الوفد سنة 667هـ-1269م²، وقام بغسل الكعبة بيديه، كما قام بتعيين الأمير شمس الدين مروان نائبا عنه في مكة³، بعد أن جهّز كسوة الكعبة التي كان على المماليك حياكتها كل عام، بعد يكتب عليها اسم السلطان⁴.

كما عرفت الفترة ظاهرة المجاورة بالحرمين الشريفين⁵، ويقصد بها البقاء بجوار الحرمين مكة أو المدينة المنورة، لدوافع مختلفة أهمها غرض الانقطاع للعبادة والتفرغ لها، وقد برزت الظاهرة بشكل جليّ في عصر الدراسة⁶، خاصة في القرن التاسع الهجري الذي بلغ فيه المجاورون بالحرمين الذروة، وأصبح هؤلاء يشكلون نسبة معتبرة من السكان⁷، وقد غدّى هذه الظاهرة كثرة الأوقاف والتفقات والمؤسسات العلمية التي تعني بهذه الفئة⁸، والتي كانت تختصّ أحيانا بجالية من المجاورين كرباط الموفق الذي كان مخصّصا للمغاربة، والذين كلّفوا بتسيير شؤونهم⁹، وقد ذكره ابن بطوطة في رحلته: "وهو من أحسن الرّباطات، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة"¹⁰، كما قام جماعة من أهل دكّالة من أهل المغرب الأقصى، بإنشاء رباط لهم في المدينة المنورة بنفقاتهم

أشرف أبو اليزيد، "رحلة الحج رحلات المحمل الشريف"، مجلة العربي، ع 566، يناير 2006، ص 100-104.

- 1 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص230.
- 2 - عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص100.
- 3 - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص229.
- 4 - أبو الطيّب تقي الدين الفاسي المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج2، مكتبة النهضة الحديثة - دار إحياء الكتب العربيّة، مكّة المكرمة، 1956، ص 298-299.
- 5 - وقع خلاف بين الفقهاء في حكم المجاورة، فأعلام المذاهب قد استحبوها، وهناك من قال بكرهاتها. أنظر: عبد العزيز بن راشد السنيدي، "المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية"، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ.
- 6 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص237.
- 7 - عبد العزيز السنيدي، المرجع السابق، ص3.
- 8 - الجابري، المرجع السابق، ص145-146.
- 9 - ابن مرزوق الخطيب، المناقب...، المصدر السابق، ص216.
- 10 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص97.

الخاصّة عرف " برباط دكّالة " ، وكان أغلب ساكنيه من المغاربة ¹ ، كما وجد من المجاورين طائفة طائفة من كبار رجال الدّولة المملوكية الذين فضّلوا قضاء بقية حياتهم بجوار الحرمين الشريفين ² .

رابعاً - الرّحلة العلميّة:

الرَّحْلَةُ لغة من رَحَلَ يَرَحُلُ رَحِيلاً وَتَرَحَّلاً، أي ذهب وغادر بلده، فهي الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين، والرحلة عموماً يقصد بها النّاحية التي يقصدها المسافر³، وقد برزت الرحلة الرحلة كمظهر من مظاهر الحياة في الفترة الوسيطية⁴، حيث شهدتها العالم الإسلامي مبكراً، بعد اتصال أرجائه بفضل الفتوحات الإسلامية، وركونه تحت جناح الخلافة الإسلامية، التي أُرِخَتْ ظلّالها عليه مشرقاً ومغرباً، نظراً لانتفاء عوائق الإتصال بين أمصار العالم الإسلامي⁵، فبرزت حرية التّنقل بين مختلف أقطار العالم الإسلامي، واختلفت أهداف ومشارب هذه الرّحلة من فئة لأخرى.

وقد أشاد الكثير من العلماء بالرحلة العلمية⁶ على وجه الخصوص، - باعتبارها موضوع الدراسة - واعتبروها ضرورية لاستكمال شرط التّعلّم، لذا رَغِبَ فيها الكثير من العلماء كقول محمد بن ادريس الشّافعي:

من راحة فـدع
الأوطـان واغـترب
وانصب فإنّ لذة العيش في النّصب

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
سافر تجدد عوضا
عم من تفارق

7 إن ساح طاب وإن لم يسح لم يطب

إِنِّي رَأَيْتُ

رکود

- 1 - ابن مرزوق، المسند ...، المصدر نفسه، ص221.
- 2 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص237.
- 3- عبد الحكيم عبد اللطيف الصعدي، الرحلة في الإسلام، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة1996، ص15.
- 4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص225.
- 5- بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص75،
- 6 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 7- محمد بن ادريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، دار المعرفة، الجزائر، ص20.

وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون أن الرحلة لأبد منها في طلب العلم واكتساب المعارف، وفي ذلك يقول: "...والسبب في ذلك: أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب، الفضائل: تارة علما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا..."¹ وهكذا فقد كان الطلبة يشدون الرحال إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي من أجل التعمق في العلوم²، كما يمكننا اعتبار فترة القرن الثالث الهجري/09م مرحلة التفتّح في الرحلة المغربية الشرقية³، حيث شهد هجرات مغربية نحو المشرق، وازدادت الظاهرة بشكل طردي خلال القرون الموالية⁴، لتشهد فترة القرن السابع الهجري/13م حركية نشيطة في هذا الباب، وتنافس العلماء في هذا المضمار⁵، بدليل مقولة الخطيب البغدادي: "...ولو كان حكم المتصل والمرسل واحدا لما ارتحل كتبة الحديث، وتكلفوا مشاق الأسفار إلى ما بعد من الأقطار للقاء العلماء والسماع منهم في سائر الآفاق..."⁶، فحقّق العلماء وحدة قطرية رغم تعدد حكامها⁷، واستمرّ تنقل الأساتذة والشيوخ والطلاب في مختلف الأقطار الإسلامية حتّى في أوقات الأزمات السياسيّة وأزمة القطيعة الساسية بين الدّول⁸.

كما ازدهرت الرحلة داخل المدن المغربية، فعرفت هذه الحواضر رحلات لطلبة العلم قصد الإستزادة من مناهل العلم المعروفة، كالزيتونة بتونس، والقرويين بفاس، وجامع قرطبة وغيرها من الجوامع الإسلامية ذات العراقة الفكرية، وهذا أبو عبد الله المقرئ ألف كتاب في الرحلة بعنوان "نظم

1- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص532.

2 - عبدلي الخضر، المرجع السابق، ص99. أحمد أمين، ظهر الإسلام، المرجع السابق، ص23.

3- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص225.

4 - مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص420.

5- عابد يوسف، المرجع السابق، ص126.

6-البغدادى،الكفاية فى علم الرواية،بيروت،دار الكتب العلمى1988م،ص:402.

7- بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص 136.

8 - رشيد الزواوي، "التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع 1، أبريل 1993، ص 325.

الثالثي" الذي استعرض فيه رحلته عبر مراكز العلم بالمغرب الإسلامي، وذكر حملة الأعلام الذين أخذ عنهم بهذه الحواضر، أو تذاكر معهم انطلاقاً من تلمسان، فبجاية، ثم تونس، ثم المغرب الأقصى حيث دخل فاساً ولقي بها عدد من فطاحل العلماء¹.

ومن هنا يمكننا أن نتعرف على الدوافع التي حملت الكثير من علماء المغرب الأقصى إلى الانتقال نحو الحواضر المملوكية، والعكس صحيح بالنسبة للاتجاه العكسي، مع التنويه أن الظاهرة الأخيرة كانت بوتيرة أخرى أقل، وسنستعرض أهم الدوافع التي تشجّع أدب الرحلة العلمية، فنجملها كما يلي :

- الحالة السياسية المستقرة نسبياً في الدولة المملوكية، ما جعلهم يتفرغون لتكريس هذا الواقع بتأمين المسالك وإصلاح السبل²، والتي كان لها الأثر الواضح والدور البارز في ظهور الرحلات العلمية نحو حواضر هذه الدولة³، حيث اعتبرت الديار المصرية محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء⁴، وقد وقد حرص سلاطين المماليك على تشجيع الناس للهجرة إلى المناطق المملوكية، نظراً للأثر الذي ينعكس عنه، أمّا من الناحية الاقتصادية والفكرية والسياحية، وغيرها من الآثار الإيجابية التي انجرت عن هذه الرحلة، وقد أصدر السلطان المنصور قلاوون منشوراً رسمياً أعلن فيه عن تشجيع الهجرة نحو الديار المملوكية، ومّا جاء فيه : "... ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفاؤها وأفنائها، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن فطن، ومسلة لمن تغرب عن الوطن، و نزهة لا يملها بصراً، والمقيم بها في ربيع دائم، وخير ملازم، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه"⁵، بينما كانت الحالة السياسية في بلاد المغرب على العموم متردّية¹، خاصة بعد

1- بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص77.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص226.

3- زكري لاميعة، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تمتين الصلات الثقافية خلال القرنين 13م-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2010م، ص28.

4- جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة...، المصدر السابق، ج2، ص86.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 340-342. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص226.

بعد سقوط الدول المركزية القوية، كالمرابطين والموحدين، وظهور دول ذات سلطة هامشية، تسيطر على مناطقها القبائل البدوية، والتي عملت كأدوات هدم للإستقرار وتأمين السبل والمسالك، يضاف إلى هذه الحالة، اشتداد حركة الاسترداد النصرانية بالأندلس، مما دفع ببعض العلماء إلى شدّ الرّحال نحو المشرق والاستقرار بها²، دلّ على هذا مقولة المقرئ: "اعلم جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال أن حصر أهل الإرتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد الخال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من الأعلام لطل الكتاب وكثر الكلام"³.

- تشجيع العلماء والعناية بالعلوم ومنشأها التي كانت تأوي الطلبة والمرتلين إلى المشرق، خاصة إذا كانوا من بلاد المغرب⁴، حتى اختصّ بهم رواق في الجامع الأزهر⁵ إلى جانب دار المغاربة بالإسكندرية⁶، فلقد سعى الحكام إلى تقريب أصحاب الكعب العالي في ميدان العلم والسلوك كالمتصوفة والعمل على إكرامهم، وتهيئة المناخ الملائم للإقامة علاوة على إجزال العطاء لهم⁷. كما نحا نحوهم في ذلك أهل مصر، الذين عرفوا بالإيثار للفقراء والغرباء والحجيج⁸.

- جمع الكتب وحيازتها وجلب أمّهات الكتب التي كانت تنتشر بالمشرق أكثر من المغرب، وهذا نظرا لجملة من العوامل - ليس الموضوع مناسباً لاستعراضها - لعلّ أبرزها ازدهار صنعة الوراقة في المشرق⁹، كما تهيأت الظروف المناسبة لطلب العلم وأخذ الإجازة من شيوخها وعلمائها¹⁰ في مختلف الحواضر والمراكز العلمية كالقاهرة والإسكندرية وبلاد الشام والحجاز، والتي شهدت ازدهارا فكريا

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع نفسه، ص 227.

2- عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 16.

3- المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج3، ص346.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص226.

5- عابد يوسف، المرجع السابق، ص126.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص116. سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص96.

128. عابد يوسف، المرجع السابق، ص7 -

8- أبو الحسن بن جبير، رحلة ابن جبير، ص258-259.

9- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص178.

10- سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص96.

كبيرا، كما كانت تشرف على تلقين الطلبة الوافدين بالبحان¹، بل اعتلى بعض هؤلاء بعض المناصب الراقية السياسية والقضائية²، مثال ذلك تولية عبد الرحمن ابن خلدون لقضاء المالكية بالديار المصرية³، المصرية³، كما التزم الرحالة بالمقابل بآداب طالب العلم⁴ والتحلّي بلصّير على المشرق وتحمل متاعب متاعب السفر⁵.

لذلك كانت الرحلة العلمية بين بلدان العالم الإسلامي، دليلا على تمتين وربط أواصر الوحدة الإسلامية مشرقا ومغربا، حيث عملت على سدّ الهوة والحدود بين النطاقين، رغم البعد الجغرافي، فعملت الرحلة على الجمع بين شعوب بعدما جمع بينهما الإسلام والعربية ابتداء⁶. وكعيّنة عن العلماء المرتحلين من المغرب إلى المشرق، نفتصر على أشهرهم لكثرة عدد هؤلاء العلماء المرتحلين فنذكر منهم:

أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاج (ت 744هـ/1344م)⁷، دفين القاهرة، من كبار متصوفة بلاد المغرب، ارتحل إلى مصر وأخذ عنه جملة من علمائها منهم عبد الله المنوفي والشيخ خليل⁸.

محمد العبدري صاحب "الرحلة المغربية" (مجهول تاريخ المولد والوفاة)⁹ هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحياحي نسبة إلى حاحة بنواحي مراكش¹⁰، ارتحل إلى بلاد المشرق سنة 688هـ/1279م لأداء فريضة الحج، كان عالما مشاركاً بعلوم كثيرة.

1- بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص138.

2- عابد يوسف، المرجع السابق، ص126.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف.. المصدر السابق، ص1223.

4- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص178.

5- ابن الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث-تحقيق نور الدين عتر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1375هـ، ص29-31.

6- نقلا عن بن خيرة نجيب، المرجع نفسه، الصفحة نفسها. Nicolson. A literary history of the Arabs. p281.

7- مخلوف، المصدر السابق، ص208.

8- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص255.

9- ابن القاضي، جذوة الإقتباس، 5، ص96. مخلوف، المصدر السابق، ص217.

10- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص240.

محمد بن إبراهيم الآبلي (ت 757هـ/1356م) نزيل مراكش ودفن فاس، من بين خاصّة السلطانيين المرينيين أبو الحسن وابنه أبو عنان فارس، مع كونه من المغرب الأوسط، ارتحل الآبلي إلى بلاد المشرق، وقد التقى بجملة من علماء مصر أمثال ابن دقيق العيد، و ابن الرّفعة، والصفى الهندي، والتبريزي¹، ثمّ حجّ ورجع إلى تلمسان، ومنها إلى المغرب الأقصى، حيث انتشرت أخباره في آفاق القطر المريني، وغصّت مجالسه بالطلبة واستطاع عرض آراءه التي كانت تعدّ سابقة في زمانه، ولم تصل إلا عن طريق تلامذته خاصّة عبد الرّحمن بن خلدون².

عبد الرّحمن بن خلدون (ت 808هـ/1406م): يعد عبد الرّحمن بن خلدون من أبرز الشخصيات العلميّة التي شق على الباحثين تصنيفه ونسبته إلى بلد من البلدان، حيث قام بدور منقح النّظير في ربط الصّلات الفكرية مختلف الأقطار المغربية من جهة وبين هذه الأخيرة و بين المشرق الإسلامي من جهة أخرى، حيث كانت رحلاته المتعدّدة إلى المدن المغاربية ثمّ إلى مصر والشام قد مكّنه تجميع صورة شاملة عن واقع الأمّة الإسلامية مشرقاً ومغرباً، وأمّكنه من وضع أسس المقارنة بينها، وعوامل تشابهها واختلافها³ حيث قام ابن خلدون برحلته إلى مصر سنة 784هـ/13م⁴ فلتصل بالسلطان الظاهر برفوق فولّاه التدريس بالمدرسة القمحية، كما انبرى للدّرس بالمدرسة البروقية والصرغتمشية⁵ والجامع الأزهر⁶ والخانقاه البيرسية، وتولى قضاء المالكية بالديار المصرية⁷، وتمكّن من غرس عدّة

1 - ابن خلدون ، التعريف...، ص 325-828.

2 - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 120 . ابن مريم، المصدر السابق، ص 214. المقرئ، نفح الطيب...، ج6، ص 202-205. علي رحومة سحبون، الآبلي نابغة المغرب الكبير وأستاذ ابن خلدون 681-757هـ)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009، ص45.

3 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص259.

4 - ابن خلدون، التعريف...، ص 1058.

5 - المصدر نفسه، ص 1121.

6 - المصدر نفسه، ص 1138.

7 - المصدر نفسه، ص 1223.

مناهج لعلوم مختلفة لكعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ و الفلسفة¹، وغيرها من العلوم في عقول طلبته أمثال المقرئزي²، وهو مظهر من مظاهر تأثير المغرب في المشرق.

الشيخ خليفة المعتقد المغربي (ت 829هـ/1425م)³: أصله من المغرب، كان من المتصوفة نزل بالجامع الأزهر وأقام به مدة ناهزت الأربعين سنة، وكان يُقصد للزيارة وصار للناس فيه اعتقاد، قال عنه ابن تغري بردي: "رأيت غير مرة، وحضرت مجلسه، كان عليه حرمة ومهابة وخفر زائد، بحيث أن الناس لا يتحدثون معه في الغالب إلا جواباً..."⁴.

أما عن الأعلام الذين زاروا بلاد المغرب فهم كثيرون، حيث عرفت بلاد المغرب توافد الكثير من المشاركة منذ الفتح، ابتداء من العرب الفاتحين ومن والاهم من الأعلام الذين كان لهم الفضل في تعريب بلاد المغرب، إلّا أنّه من الجدير بالذكر أنّ رحلة المغاربة نحو المشرق كانت أنشط من الرحلة العكسية وذلك كون المشرق موطن الحج⁵، كما أن المشاركة كانوا في غنى عن الانتقال إلى بلاد المغرب بغرض طلب العلم باعتبار أنّ الحواضر المشرقية كانت مناهل المعرفة⁶، وقد تركز هذا الواقع الواقع زمن الدول المستقلة ببلاد المغرب، وهذا نظراً للمخاطر التي تعتري المسالك والطرق ببلاد المغرب، بفعل أعمال الحرابة وقطع الطريق بهذه البلاد، وكثرة العوائق في الاتصال بين النطاقيين برّا وبحراً⁷، لذا فقد عزف المشاركة عن القدوم إلى بلاد المغرب للأسباب المذكورة، ولم تتضمن كتب التراجم إلّا نزرًا من بعض من وفد على الديار المرينية، نذكر منهم:

- 1 - الشوكاني، البدر الطالع، ج1، ص 237. سعيد محمد رعد، "دور بجاية الحمادية في تكوين نظرية ابن خلدون التاريخية العمرانية عن العمران البشري، وأثر ذلك في تاريخ الفكر الإسلامي"، الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية، 1974، ص 533.
- 2 - قاسم عبده قاسم، "المقرئزي"، مجلة العربي، ع 566، يناير 2006، ص 154.
- 3 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق، ج5، ص231. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق، ج15، ص134 - السخاوي، الضوء اللامع، المصدر السابق، ج3، ص187.
- 4 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق، ج5، ص231.
- 5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 261. عابد يوسف، المرجع السابق، ص 126. سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص96.
- 6 - بالأعرج، نفسه، الصفحة نفسها.
- 7 - سي عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص96.

جلال الدين الأقفهري (731هـ/1330م): هو محمد بن أحمد بن أمين التركي القونوي،
 دفن في المدينة المنورة سنة 731هـ/1330م¹، ذكر عنه لسان الدين بن الخطيب بأنه قدم بلاد
 المغرب فاستوطن بعض بلاده، واستفاد من علمائه وشيوخه أمثال أبو بكر محمد بن محمد بن معنصر
 المومنان²، وهو نفس الخبر الذي أكدّه ابن الحجر العسقلاني في كتابه الدرر بقوله: "ورحل إلى
 مصر ثم إلى المغرب، فسمع من ... محمد بن محمد بن عيسى بن معنصر بفاس، وغيرهما، وجمع
 رحلته إلى المغرب والمشرق في عدة أسفار"³. ويظهر من خلال هذه الأخبار أنّ هذا العلم، قد زار
 زار أهم حاضرة بالمغرب المريني، وهي مدينة فاس.

ابن طراد النحوي الحجازي (709-788هـ/1309-1386م)⁴: هو عالم الحجاز ورأس
 المالكية به⁵ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد المعطي بن طراد الأنصاري المخزومي المصري المعروف
 المعروف بالنحوي، درس بمسقط رأسه بالقاهرة، فأخذ علوم العربية على الشيخ أثير الدين بن حيّان،
 كما أخذ الفقه المالكي على يد الشيخ عبد الله المنوفي، انتقل مع والده إلى بلاد المغرب، وسمع المدونة
 من الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي⁶، ثمّ رجع إلى مكة للدراسة على يد شيوخها وعلى
 وعلى يد العلماء الحجاج القادمين إليها، والذين لا نستثنى أن يكون كثير منهم من علماء بلاد
 المغرب الأقصى.

وهكذا فقد ساهمت الرحلات العلمية في تمتين الروابط العلمية بين المشرق والمغرب، رغم
 تراجع هذه الظاهرة - كما رأينا - في القرون الأخيرة، إلّا أنّ أواصر التواصل بقيت بفضل توصية
 الحكّام المرينيين بالركب الحجيحي وبعلماء الدولة المرينية المتجهين نحو الديار المملوكية، ما جعل
 كثير من هؤلاء يفضلون الاستقرار بالحاضرة المملوكية وتولي الوظائف العلمية أو السلطانية مثل

- 1 - المنوي، ورفقات، المرجع السابق، ص258.
- 2 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص261.
- 3 - ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق، ج3، ص309.
- 4 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق، ج2، ص ص 155-157 - ابن القاضي، درة الحجال،
 المصدر السابق، ص80.
- 5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص262.
- 6 - ينتسب إلى قبيلة جزولة البربرية بالمغرب الأقصى، كان يلقب بشيخ المدونة، وكان من أعلم الناس بمذهب
 الإمام مالك وتخرج به الكثير من العلماء توفي سنة 741هـ/1340م. ابن القاضي، درة الحجال، ص 329،
 ترجمة رقم 1001.

التدريس أو الفتيا أو القضاء، على اعتبار أن أغلب هؤلاء العلماء نأوا بأنفسهم عن جو الصّراعات السياسية في بلاد المغرب الإسلامي عموماً، واستجابة لجو الإقامة الطيبة التي وفّرها السلاطين المماليك لهم.

خامساً - انتشار التصوّف والطّرق الصوفيّة:

اعتبرت ظاهرة التّصوف¹ في أقطار العالم الإسلامي، ومن جملتها ربوع الدولتين المرينية والمملوكية خلال الفترة المدروسة، من أبرز مظاهر الروابط الفكرية التي نشأت بين البلدين، وعاملاً لتعميق الروابط الروحية بينهما، إذ أصبح أغلب الطرق الصّوفية تنتشر انتشاراً واسعاً في هذا النطاق الجغرافي الواسع، حيث انتسب الكثير من شرائح المجتمع في القطرين إلى هذه الطرق².

والتّصوف ظاهرة قديمة في المجتمع الإسلامي، ظهر في القرن الأول³ بشكله البسيط، لكنّه ازدهر خلال القرن الثاني⁴ للهجرة، وهو يدعو إلى نبذ مظاهر التّرف والإرتقاء بالنّفس البشرية عن طريق الصّفاء الرّوحي، ومحاولة تصحيح المسار الذي نجم عن ذلك الانحراف في مسار العبادات في العالم الإسلامي، والدّعوة إلى الزّهد والورع، في ضوء الكتاب والسنة⁵، وهذا ما نستخلصه من تعريف ابن خلدون للتصوف، حيث يذكر عنه بأنّه: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى،

1 - اختلف في اشتقاق هذه الكلمة، انظر: عبد الرّحمان بن خلدون، شفاء السائل لتهديب المسائل، تح: الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959، ص 27 - عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1966، ص 470.

2 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 274.

3 - عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص 116.

4 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 274.

5 - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج 2، ص 384.

والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما أقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة و العبادة " ¹ ليتطور هذا المفهوم حتى صار نظاما للعبادة واتجاهاً نفسياً وعقلياً خالصاً ²، وهكذا انقسم التصوف في عمومته إلى تصوف سني وتصوف فلسفي ³، وقد تصدى لهذا الصنف الأخير جملة من العلماء أيام الدولة المملوكية نذكر منهم العلمين الشهيرين: ابن تيمية والعز بن عبد السلام ⁴، هذا الأخير الذي ناظر المتصوف المغربي الكبير أبو الحسن الحرّالي التحيي المراكشي (ت 637هـ / 1239م) ⁵.

ومن الجدير القول أن التصوف خلال الفترة، زواج بين صبغته الدينية والصبغة الاجتماعية، لما بلغه مقام الصوفية من مكانة اجتماعية راقية، وما أدّاه هؤلاء من أدوار في الحياة العامة خلال ذات الفترة، حيث كانت لمؤسساته من زوايا وخوانق الدور الأبرز لنشر دعوتهم ⁶، يضاف إلى هذا العامل معتقد السلاطين والرعية فيهم، لذا فقد سعى بعض السلاطين إلى احتوائهم والسيطرة على الزوايا نظرا لما كانوا يتمتعون به من قبول اجتماعي ⁷ وقد انتصر الموحدون ومن جاء بعدهم للتصوف، حيث شهد ازدهارا وانتشارا سريعا منذ نهاية القرن 6هـ / 12م ⁸، وهذا بعدما شهد محنة أيام المرابطين. المرابطين.

1 - ابن خلدون، المقدمة، ص 863.

2 - مختار فيلالي، المرجع السابق، ص 11.

3 - عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص 116.

4 - محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربي، (ب ت)، ص 163.

5 - الغبريني، المصدر السابق، ص 87.

6 - محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 84.

7 - حركات، المرجع السابق، ص 139-142.

8 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 275.

وكما أشرنا سابقا التصوف من أبرز مظاهر العلاقات بين المغرب والمشرق الإسلاميين عموما، حيث دخل التصوف إلى المغرب الإسلامي - ومن جملته المغرب الأقصى - عن طريق المهاجرين المشاركة نحو المغرب أو عن طريق الحجاج أو الرحالة المغاربة نحو المشرق¹.

أمّا بمصر والشام فقد ازدهرت بها حركة التصوف في عهد المماليك، فقد كان التصوف من أبرز السمات التي طبعت الحياة الدينية، خاصة بعد ضعف وتضعف حكم العبيديين²، ويبدو أن الأحداث والأحوال التي شهدتها العالم الإسلامي خلال الفترة، خاصة الحملات الصليبية والاجتياح المغولي للمشرق، قد كما صاحب هذا كله تشجيع السلاطين للطرق الصوفية وتمويل المؤسسات العلمية الخاصة بالصوفية كالخوانق والزوايا وإيقاف الأوقاف عليها، هذا كله أدى إلى نزوع العامة نحو التصوف³.

كما أضحت مصر مقصداً لرجال التصوف من بقية الأقطار الإسلامية الأخرى، بسبب هجرة عدد من مشايخ التصوف إليها، ومن جملتها بلاد المغرب⁴، نظرا للجو المناسب الذي توفر لرجال التصوف في نشر طرقهم، ومن أبرز هذه الظروف هي عناية السلاطين المماليك الذين كانوا يتقربون من رجال التصوف ولهم فيهم اعتقادات حيث ظهرت فكرة الاعتقاد في المشايخ والأولياء وظاهرة التبرك برجال التصوف⁵، كاعتقاد السلطان للظاهر بيبرس في الشيخ خضر بن أبي بكر حيث بنا له زاوية وحبس عليها أرضا⁶ واعتقاد السلطان الظاهر برقوق في طلحة المغربي الذي أنزله بقلعة الجبل ودفنه بتربته سنة 694هـ/1294م⁷، كما أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرية

1- حميدي خميس، نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط، اتجاهاته، مدارسه وأعلامه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص24.

2 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص137.

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري...، المرجع السابق، ص 162-163. سحر عبد العزيز سالم، العراقيون في مصر، المرجع السابق، ص50.

4 - عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص116.

5 - نفسه، ص 117.

6- ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، المصدر السابق، ج5، ص218.

7- ابن تغري بردي، المنهل الصافي..، المصدر نفسه، ج6، ص433. المقرئ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان الفريدة، تح: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، 2002، ص200.

سريا قوس وبني بجانبها مسجد وحمام¹ وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي² وهكذا تنافس السلاطين المماليك ببناء الخوانق والزوايا وإيقاف الأوقاف عليها³، ونتيجة لذلك ازدهرت الحركة الصوفية، وأسست عدة طرق صوفية، كانت في معظمها وافدة على ربوع الدولة المملوكية⁴ سنقتصر على تلك تلك التي كان لها علاقة بالمغرب الأقصى إما امتدادا أو أصلا، نذكر منها منها:

- الطريقة القادرية: وهي من أمّهات الطرق الصوفية وأشهرها⁵، والتي اعتمدت في سلوكها وأصولها وأصولها على الكتاب والسنة، أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي (ت: 561هـ/1165م)⁶، وقد انتشرت طريقته في مصر والشام وربوع بلاد المغرب الإسلامي⁷.

- الطريقة الأحمدية: تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها سيد أحمد بن علي البدوي (ت: 675هـ/1276م)⁸، الذي ارتحل من فاس إلى الحجاز ومنه إلى مصر حوالي 634هـ/1237م⁹.

1- المقرئزي، الخطط...، المصدر السابق، ج2، ص420.

2- عمر سي عبد القادر، المرجع السابق، ص117.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر...، المرجع السابق، ص321.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص276.

5- نفسه، الصفحة نفسها.

6- ابن الملّقن، طبقات الأولياء...، المصدر السابق، ص246. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ط3، دار الثقافة، القاهرة، 1979، ص236، مني بهجت، المرجع السابق، ج1، ص125

Louis Rinn, Marabouts et Khouans, Alger, 1884, p.173.

7- استقر في مصر أحد أبناء عبد القادر الجيلاني وهو الشيخ عيسى صاحب كتاب لطائف الأنوار في التصوف ونشر طريقة أبيه. Louis Rinn, op.cit, p.178، عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر

الجيلاني وانتشار طريقته، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص342 وما يليها.

8- الشعرائي، المصدر السابق، ج1، ص155-159. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة...، المصدر السابق،

ج7، ص252. ابن الملّقن، طبقات الأولياء...، ص422.

634هـ/1237م¹، حيث انتشرت طريقته بشكل واسع في هذا القطر، ليخلفه تلميذه عبد العال الأنصاري (ت 733هـ/1333م)².

— الطريقة الشاذلية: هي أشهر طريقة صوفية مغربية انتشرت بالشرق³، تنسب للشيخ أبو الحسن الشاذلي (ت 656 هـ/1258م)⁴، الذي يعود أصله وموطنه إلى قبائل غمارة بالقرب من سبتة بالمغرب الأقصى، ليرتحل بعدها إلى شاذلة بإفريقية وبها عرف⁵، ومنها إلى مصر مع جملة من مريديه مريديه وتلامذته، حيث نزلوا بمدينة الإسكندرية حوالي سنة 642هـ/1243م وكونوا بها مدرسة صوفية⁶، زاوجت في تعاليمها⁷ ومنهجها بين نموذجين، الأول مغربي وهو منهج أي مدين شعيب الغوث⁸، شيخ عبد السلام بن مشيش⁹ الذي يعدّ الشاذلي تلميذا له وخليفته، والآخر مشرقى وهو منهج الإمام أبي حامد الغزالي¹⁰، وكان لتلامذة الشاذلي الأثر البارز في انتشار طريقته ومن أبرزهم الشيخ أبو العباس أحمد المرسى الذي انبرى لمشيخة الطريقة الشاذلية حتى وفاته بالإسكندرية سنة

1 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص277.

2 - التفتازاني، المرجع السابق، ص 242 . منى بمحت، المرجع السابق، ج1، ص 126.

3 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص277.

4 - ابن الملقن، طبقات الأولياء، المصدر السابق، ص458. ابن الأثير، نكت الهميان، المصدر السابق، ص213. الشعراني، المصدر السابق، ج2، ص 4-11 . ابن تغري بردي، المنهل الصافي...، ج2، ص 43. السيوطي، حسن المحاضرة...، ج1، ص 52 . الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص 12 . ابن العماد شذرات الذهب، ج5، ص 278 . محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 186 . ابن قنفذ، الوفيات، المصدر السابق، ص 50.

5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص277.

6 - التفتازاني، المرجع السابق، ص 240 . حركات، المرجع السابق، ج2، ص 137-142.

7- تتلخص تعاليمها في خمسة أصول هي: تقوى الله في السرّ والعلانية - إتباع السنّة في القول والفعل - الإعراض عن الخلق في السرّ والعلانية والإقبال والإدبار - الرضا عن الله في القليل والكثير - الرجوع إلى الله في السراء والضراء. التفتازاني، المرجع السابق، ص 241.

8 محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 186. Louis Rinn, op.cit, p211.

9- هو أحد أقطاب التصوف بالمغرب والأندلس. وكانت مدرسته في التصوف أصل المدرسة الشاذلية. عبد الغني قاسم عبد الحكيم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 178-179.

10 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص278.

686 هـ/1284م¹، ليخلفه تاج الدين بن عطاء الله السكندري المصري صاحب كرسي التعليم بالأزهر²، ومؤلف كتاب لطائف المنن الحكم العطائية³.

كان لهذه الروابط بين الطرق الصوفية صلات أخوية بين صوفية المغرب والمشرق، كما اشتهرت بين صوفية القطرين التصوف المعتمدة مثل: مقالات الهروي وإحياء علوم الدين للغزالي والحكم العطائية ورسالة القشيري وكتاب الشفاء للقاضي عياض⁴.

سادسا- الإجازة العلمية:

تجدر الإشارة أنّ أسمى مقصد من مقاصد الرحلة العلمية هي الحصول على الإجازة العلمية، وهي تعرف على أنّها الشهادة التي يقوم الأستاذ بتسليمها للطلاب⁵، والذي بدوره يستطيع بموجبه أن يباشر التدريس أو الفتوى⁶، حيث كانت تمنح في البداية لدراسي علمي القراءات والحديث التي تستوجب السند والإجازة⁷، وهي الوثيقة التي تدلّ على المستوى العلمي الذي بلغه الطالب⁸، لذا عدّها الشيخ أبو سعيد بن لب من تواتر الرواية¹، فالإجازة تتضمن سند

1 - الشعراي، المصدر السابق، ج2، ص 11. المقرئ، نفح الطيب، ج2، ص 330.

2 - عابد يوسف، المرجع السابق، ص138.

3 - الشعراي، المصدر السابق، ج2، ص 18. ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص 19-20. محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 204. أحمد بن عجيبة، إيقاظ المهمل في شرح الحكم، ج1، المطبعة الجمالية، مصر، 1913، ص9. المقرئ، نفح الطيب، ج2، ص330. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 421.

4 - ابن خلدون، المقدمة، ص 866. الغبريني، المصدر السابق، ص 320-321. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج2، ص 401. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص280.

5 - حركات، المرجع السابق، ج1، ص 43. هشام بن سالم، المرجع السابق، ص180.

6 - بوشقيف، المرجع السابق، ص80.

7 - محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة1998، ص414.

8 - ابن سحنون، المصدر السابق، ص90. عبد الرحمن بالأعرج: المرجع السابق، ص159.

سند العلم المتصل بالشيخ مباشرة، باعتبار أن الإجازة لم تكن تبرز في ثناياها دائما كل الشيوخ المأخوذ عنهم، لتعذر ذكر سلسلة السند في الإجازات المتأخرة²، وعلى هذا الأساس : "...أصبح السماع على الشيوخ أو عرض المعلومات جزءا أو كلا من كتاب معين أو عدة كتب أو كذا مجرد مناولة الشيخ كتبه للطالب مما يمكن بتحويل الأستاذ لطالبه الإجازة التي يريدها، وهذا على الأقل، ما أصبح عرفا غير محدود، لدى الكثيرين من العلماء عبر العالم الإسلامي، وإذا طلب أحد الإجازة فهو يستجيز، أو يستدعي شيخه إجازة..."³، وقد حرص العلماء المحيزون على الحفاظ على الإجازة، فاشتروا لها شروطا منها: أن يكون المحيز عالما بالفن الذي يحيز به تلامذته، ثقة في دينه وروايته، متشددا في امتحان الطلبة، حتى لا يتساهل في شأن الإجازة ومصداقيتها، ويحرص على التكوين الجيد للطلبة⁴، وأن يكون المحاز قد تأهل في ضرب العلم الذي أخذ فيه الإجازة، ملما بالمواضيع التي يمكن أن يطرحها عليهم الطلبة فيما بعد⁵، معدودا من أهل العلم متوشحا بأداب طالب العلم ووقاره⁶، تتميز مكانته في المشيخة العلمية⁷، والإجازة أنواع منها إجازة الإفتاء وإجازة التدريس وإجازة الروايات⁸، كما انقسمت الإجازة العلمية إلى قسمين فهناك الإجازة الخاصة⁹ والعامة لهم¹⁰، فأما الإجازة الخاصة هي التي يمنحها الشيخ العالم لطالبه الذي قرأ عليه كتاب في أحد العلوم، أو لقنه فنا من فنون، والإجازة العامة هي التي تعم جميع ما لقنه أو درسه الشيخ العالم من علوم لطلابه ويمنحها

- 1 - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص15.
- 2 - هشام بن سالم، المرجع السابق، ص180.
- 3 - ابن رشيد، ملء العيبة، تح: محمد الحبيب بلخوجة، ج2، تونس، 1982م، ص417.
- 4 - أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، ج2، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974، ص509. يوسف عابد، المرجع السابق، ص123.
- 5 - أحمد شلي، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1973، ص245-246.
- 6 - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص64. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص101.
- 7 - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج2 ص357.
- 8 - القلقشندي، صبح الأعشى..، ج14، ص222.
- 9 - السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراکش وأغامت من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ج2، ط2، الرباط، المطبعة الملكية، 1993، ص244.
- 10 - ابن مريم، المصدر السابق، ص19.

وقد دأب كثير من طلبة العلم بالمغرب الأقصى على الإرتحال إلى الأفطار الإسلامية المختلفة، خاصة مصر التي عدّت من أبرز المناطق التي عجت بالعلماء، قصد الإستزادة من العلوم ونيل الإجازات منهم، وهو ما عبّر عنه أحد الباحثين بقوله: " وذلك ما يمكن تسميته بالتبادل الثقافي بين بلدان المغرب والمشرق، حيث لعبت هذه الطريقة دوراً هاماً في توحيد الثقافة والعلم وامتزاج طرائقها وأساليبها المتعددة في الهيئات العلمية ثمّ وحد المناهج التعليمية وطرائق البحث في العالم الإسلامي"¹.

وكانت الإجازات تكتب بالعادة في آخر الكتاب الذي يجاز فيه الطالب² فيكتب اسم الطالب وشيخه وتاريخ الإجازة ومذهبه³، وينوّه بمقدرته العلمية، وجملة الكتب التي درسها على الشيخ⁴ كما كان بعض الشيوخ يكتب نسب المجاز له في الإجازة⁵، والواقع الحاصل في تلك الفترة، أنّ الطلبة لم يكونوا يكتفون بإجازة واحدة، وإنّما كانوا يستكثرون من الإجازات العلمية وحتى الإجازات الشرفية التي كانت تمنح من عالم ذو شهرة واسعة، ذو كعب عال في ضرب من ضروب العلم، إلى أعلام أقلّ شهرة على أساس التشريف، ومثال ذلك ما أصدره العلامة ابن خلدون من إجازة لجملة من العلماء المصريين، وعلى رأسهم الحافظ ابن حجر العسقلاني، جاء فيها: " الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أجزت هؤلاء السادة العلماء القادة، أهل التحصيل والإفادة والفضل والإجازة والإبداء في الكمال والإعادة جميع ما سألوه ورجوه من الإجازة وأملوه على شروطه المعتبرة عند العلماء البررة..."⁶ وانطلاقاً من هذه الإجازة، يمكن الحكم أنّ هذه الأخيرة كانت تستند إلى الأساس العلمي، وليس إلى النطاق الجغرافي، باعتبار أنّ المغرب كان يعدّ أقلّ علمية من المشرق، انطلاقاً من تعداد علمائه وحواضره العلمية.

1 - لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 101.

2 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 285.

3 - ببيرس الدوادار، المصدر السابق، ص 18.

4 - يوسف عابد، المرجع السابق، ص 123.

5 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 285.

6 - القلقشندي، صبح الأعشى، المصدر السابق، ج 14، ص 325.

وَمَا سَبَقَ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُنا اعتبار تبادل الإجازات العلمية مظهر من مظاهر الروابط والصّلات الثقافية بين الدولتين المرينية والمملوكية، حيث مكّنت الطّلبة من الأخذ من مناهل مختلفة، والتي استطاعت أن تؤثر في مناهج التدريس، وتوحيد المعارف العلمية بين المشرق والمغرب.

سابعاً- مجالس المناظرات العلمية:

شهد العالم الإسلامي ظاهرة المناظرات العلميّة منذ عهوده الأولى، ذلك أنّ ظاهرة الاختلاف وحرية الفكر برزت منذ الفترات الأولى، فبرزت ظاهرة المناظرات العلمية لتشجيع الحوار الفكري بين علماء البلدان الإسلامية على اختلاف نحلهم ومذاهبهم¹، كرّس هذا تفتح العلماء على غيرهم، وتحري كل واحد منهم لسبيل الحقّ، لذا عمل الكثير على تعلم تقنيات المباراة ودحض حجّة الخصم بالدليل، الذي يحتاج إلى سعة الإطلاع والتضلع بعلم الكلام² ودحض الشبهات بالحجّة البيّنة الدامغة³، والرد على المخالفين⁴، كما تعدّ المناظرة فرصة تمكّن الطالب من تبادل الآراء والأفكار مع أقرانه ونظرائه⁵، وتبدي مهارة في اقناع الغير اعتماداً على قاعدة " رأينا صواباً يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأً يحتمل الصّواب" لذلك ظهرت مجالس المناظرة العلمية⁶، والمناظرة العلمية هي "المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته في النسبة بين الشئيين إظهاراً للصواب"⁷، وكذلك "المقصود من المناظرة إما أن يكون قطع الخصم فقط وإظهار الغلبة كيف كان، أو إظهار الحق فقط كيف كان، أو هما جميعاً"⁸، وقد عرف العصر

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص286.

2 - أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، ج1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1927، ص406. مني بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، 1 مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002، ص135. وصفى أبو مغلي، "مساهمة الحضارة والفكر الإسلامي في مختلف مجالات العلوم والفنون"، الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، المجلد 2، بجاية 1974، ص887.

3- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص186.

4- بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص222.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص285.

6- نجيب بن خيرة، المرجع نفسه، ص222.

7- الجرجاني، المرجع السابق، ص:231-232.

4- الحنبلي نجم الدين، علم الجدل في علم الجدل، تحقيق قولفهارت هاينريشس، ص07، نقلاً عن بن منصور آمنة، المناظرة في الأندلس (الأشكال والمضامين)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2012م، ص11.

العبّاسي - خاصة أيام المأمون - بازدهار ظاهرة المناظرات العلمية التي كانت تعقد في بلاط الخلفاء¹، كما سميت مجالس المناظرة، بمجلس النظر، والذي عرفه صاحب كتاب مفتاح السعادة بقوله: "...وعلم النظر يتناول كيفية إيراد الكلام بين المتناظرين، وموضوعه الأدلة التي يثبت بها المدعي دعواه بما على الغير، والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة والقدرة على التناظر، لئلا يقع الخط في البحث الذي يناقشه فيتضح الصواب...".² كما عرف ابن خلدون علم الجدل بقوله: "...وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران، عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا، وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب، في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره...".³ لذا فقد نشطت هذه المناظرات العلمية، التي كان تختار مكانا وزمانا وموضوعا⁴، حيث ازدادت المناظرات بصفة طردية تبعا لعملية بناء المدارس، والتي عُدَّت المكان الأمثل لعقد هذه المناظرات⁵، والظاهر أن "...مجالس المناظرة كانت تعقد أحيانا بمحض الصدفة، إذ يقصد أحد العلماء شيئا بارزا ليناقشه، ويتطور النقاش بينهما إلى مناظرة... وهناك مناظرات كان الغرض منها هو إثبات تفوق أحد الطرفين المتناظرين، ويعين عادة في هذه الحالة حكم... وربما تمت مثل هذه المناظرات دون أن يحصل اللقاء بين المتناظرين...".⁶

1- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 285.

2- طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص 303.

3- المقدمة، المصدر السابق، ص 416.

4- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص 187.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 286. هشام بن سالم، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- منير الدين أحمد، المرجع السابق، ص 57.

وقد عمل ملوك المغرب الأقصى على إحياء مجالسهم بالمناظرات العلمية، واستقدموا لغرضها العلماء الأجلة من جميع الأصقاع¹، فعجّ البلاط المريني بجملة من العلماء الأفذاذ أمثال: ابن البناء المراكشي، وابني الإمام، والآبلي، وابن مرزوق الخطيب، والمقري الجد، والسّطي، والفشتالي وابن رشيد السّبي وغيرهم من علماء هذا العصر، وعلاوة على تنافس وتباري هؤلاء العلماء فيما بينهم، فقد اشترك جملة من حكام الدولة المرينية في هذه المناظرات، حيث يذكر أنّ أبا الحسن أنّه محبا لأهل العلم والأولياء، لذا فقد اتخذهم خاصّة وبطانته، وكان يناقشهم في المسائل العلمية²، وكان ابنه أبو عنان فارس، "...فقيها يناظر العلماء الأجلة، فيصيب ويخطئهم"³.

كما اعتنى المماليك بالمناظرات كوسيلة لدحض العقائد المخالفة كالشيعة وآراء الشّيخ ابن تيمية⁴، حيث شهدت مناظراته إحدى مميزات الفترة المملوكية، خاصّة في باب الفقه⁵، وصارت وصارت مكّة في موسم الحجّ أيام الدولة المملوكية، من أكبر المراكز العلمية التي تعقد فيها مجالس المناظرات العلمية، وفرصة لسطوع نجم علم من الأعلام⁶.

وقد جرت عديد المناظرات بين علماء المغرب الأقصى وعلماء المشرق في هذا العصر نذكر

منها:

- مناظرة الشيخ محبّ الدين ابن رُشيد السبي (ت 721هـ/1321م)⁷ للشيخ شمس الدين أبو أبو المكارم الأصبهاني (ت 688هـ/1287م)⁸ في علوم اللغة: وكان موضوع المناظرة هو دلالة الحرف في اللغة العربية واختلاف علماء اللغة في كون أن الحروف العربي يحمل دلالة مستقلة - وهو

1- هشام بن سالم، المرجع السابق، ص 189.

2- ابن مرزوق الخطيب، ص 260.

3- إسماعيل بن الأحمر، المصدر السابق، ص 27-28.

4- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 286.

5- أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ج2، ص 77-113.

6- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 286.

7- مخلوف، المصدر السابق، ص 216.

8- محمد بن محمود بن محمد الأصبهاني الشافعي، إمام وقته في المناظرات وعلم الخلافات والقواعد الصوفيات، أنظر: ابن رشيد السبي، ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الجبهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ج3، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1982، ص 351-354.

رأي السبتي - أم أنه يحتاج لأن يضاف إلى حروف أخرى حتى يصير له دلالة¹ وقد استند الأصبهاني في هذا على رأي ابن الحاجب، حيث ضمن رأيه شرح كتاب المحصول.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن هذه المناظرة تعدّ من أهم المناظرات التي وتوضح جلياً مدى سماحة كل من العلمين في دحض حجة خصمه، وتبرز آداب المناظرة العلمية، وتجلّي دماثة اخلاق ابن رشيد السبتي لآداب المناظرة وتوقيره لشيخه الأصبهاني، فمع كونه كان محيطاً بالمسألة إلّا أنه اعترض بأدب على رأي شيخه في المسألة، واستبين نيّة شيخه التي تتحرّى الصّواب في المسألة، واستسمح شيخه في الكلام محاولاً الاستدلال والاستشهاد بأقوال العلماء، وعلى رأسهم ابن الحاجب - الذي تحجّج به الشيخ الأصبهاني - حيث أقرّ ابن الحاجب باستشكال حدّ الحرف في نظم الوافية:

فإن يكن معناه لا في نفسه

فالخرف وهو مشكل في جنسه²

كما بينت هذه المناظرة مدى تضلّع علماء المغرب الأقصى في شتى العلوم³، وظهرهم - في بعض المسائل - حتى على شيوخهم المشاركة، وانتفاء عقدة تفوق المشاركة على المغاربة في جانب علوم اللغة⁴.

- مناظرة الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي العبدري لأحد شيوخ الشافعية في مسألة البيع بالإشارة: حرص الشيخ أبو عبد الله العبدري في رحلته الحجازية بالبحث عن العلماء بغرض التحصيل وأخذ الإجازة، وقد حضر مجلس الشيخ زين الدين الواسطي بالإسكندرية⁵ ناظر من خلاله أحد العلماء الشافعية لم يسمه⁶، فرأى هذا الأخير عدم مشروعية هذا البيع - استناداً لرأي الشافعية

1 - عبد السلام شقور، المرجع السابق، ص 119.

2 - أبو عمرو عثمان بن الحاجب، شرح الوافية نظم الكافية، تح: موسى العليلي، مطبعة الآداب، النجف، 1980، ص 122.

3 - ابن رشيد، المصدر السابق، ص 352-353.

4 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 287.

5 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6 - العبدري، الرحلة، المصدر السابق، ص ص 123-124.

عموماً - إلا إذا تعذر على أحد أطراف البيع الكلام¹، بينما استند العبدري إلى رأي المالكية في مشروعيته كونه يعدّ عرفاً².

ثامناً- الكتب المعتمدة بين المغاربة والمشاركة:

يعدّ الكتاب وعاء العلم و الأداة الأساسية لتحصيله، وهو المرجع والمساعد الأكبر بعد الشيوخ في تحصيل المعارف، خاصّة كتب المتقدّمين التي صارت مرجعاً أساساً في تلقي العلوم المختلفة، لذا نجد أنّ أغلب الدروس - خاصّة دروس الكراسي العلمية - كانت تعقد على عمدة كتاب من الكتب ، دراسة وشرحاً وإجازة، ولا يخفى على أي دارس أو مهتمّ بهذا العصر ، مدا الزّخم الكبير الذي تمّ إنتاجه في هذا الوقت خاصّة في دولة المماليك، فقد احتلّ الكتاب منزلة عظيمة، ومكانة رفيعة، حتى أنك لعجب في مدا التغزّل الذي حظي به الكتاب ، وكثرة الشوق إليه³، لذا فقد استكثر العلماء والأثرياء والسلاطين من جمع الكتب، وتزويد مكتباتهم بأندر المؤلفات، والعمل على تحميلها وتحليلها وتنميقها وتحبيسها⁴، فقد بلغت مكتبة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري حمولة عشرة جمال، وكلفّ وكلفّ عليها قيماً يدعى خازن المكتبة⁵، كما أنشأ أول سلاطين بني مرين يعقوب بن عبد الحق مكتبة بمدرسة الصّقارين، زوّدها بعدد معتبر من الكتب النادرة بلغت ثلاثة عشر حملاً⁶، وقد حذا حذوه السلطان المتوكل أبو عنان الذي حوت مكتبته مصنفات في مختلف العلوم⁷، حتى وصفها الجزنائي بقوله: "...وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بالجامع فإنه لما كان من شيم مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله حب العلم وإيثاره، والتهمم به والرغبة في انتشاره

1 - عبد السلام شقور، المرجع السابق، ص113-115.

2- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص287.

3- نجيب بن خيرة، المرجع السابق، ص198.

4- الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص349.

5- يوسف عابد ، المرجع السابق، ص108.

6- ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب...، المصدر السابق، ص 358-363. محمد عيسى الحريري ، المرجع

السابق، ص349. Toynbee.A. la rousseencylopedia of ancient

and medieval history.p336.

7- محمد عيسى الحريري ، المرجع نفسه، ص350.

والإعتناء بأهله ومتحمليه، والتودّد لقرائه ومنتحمليه انتدب لأن صنع هذه الخزانة وأسع طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشقّ ضرورها وأجناسها، ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى...¹، ناهيك على تنظيمها إذ "...عين لها قيما لضبطها، ومناولة ما فيها، وأجرى له على ذلك جناية، وأفاده مكرمة وعناية، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمئة...².

وقد اتسع نطاق صناعة الكتاب كنتيجة لتطوّر الوراقة، وتطوّر حوامل الكتابة³، فقد دخل البردي إلى بلاد المغرب من مصر عن طريق التجار⁴، وعليه فقد ظهر بالمغرب والمشرق الإسلاميين فئة فئة من الورّاقين اهتموا بنسخ كتب التراث، واتّخذوها حرفة لهم⁵، والوراقة "...هي العناية بالكتاب بالكتاب نسخا وضبطا وتجليدا وتجميلا وبيعا وشراء...⁶ ويذكر السبكي عنها أنّها: "...من أجود الصنائع فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثائق الناس وعهدهم...⁷، ونظرا لنبل الصنعة وشرفها، فقد ثبتت عن السلاطين نسخ بعض الكتب بأيديهم، خاصّة المصاحف الشريفة، أو ما أطلقوا عليه بالربعات المشرفة التي حبّست على الحرمين وعلى القدس الشريف وعلى رواق المغاربة بالجامع الأزهر⁸.

1- الجزنائي، المصدر السابق، ص76.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 - ابن خلدون، المقدمة، ص 755.

4 - حسين محمد سليمان، التراث العربي الإسلامي دراسة تاريخية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 188-190. الكتاني، المصدر السابق، ج2، ص 242-243.

5- تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1986، ص 101. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 293.

6- كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، 286، نقلا عن بن خيرة، المرجع نفسه.

7- السبكي، معيد النعم...، المصدر السابق، ص 102.

8 - عبد العزيز فيلاي، المرجع نفسه، ص 58.

ومن أبرز مظاهر التمايز بين الوراق مغربا ومشرقاً، هو نوعية الخط، حيث تميّز الخط المغربي بأنواعه عن الخطوط المشرقية، إلّا أن هذا الأمر لا يعتبر قاعدة مجردة، فقد تأثر بعض الخطاطين في المغرب الإسلامي بالخط المشرقي، مثل ابن مرزوق الخطيب الذي كان يحسن الكتابة بالخطين معاً¹.

وقد لقيت عدّة كتب مشرقية عناية علماء بلاد المغرب عموماً ومن ضمنها المغرب الأقصى الذين عكفوا على عقد الحلق واعتلاء الكراسي لتدريسها باختلاف فنونها، ومن أشهر هذه المؤلفات:

الكتب المعتمدة في فروع المالكية:

يعتبر المذهب المالكي من أبرز مظاهر التواصل والروابط التي جمعت بين المغرب والمشرق، ذلك أنّ هذا المذهب يعتبر المذهب الأوفى بالنسبة للمغاربة استناداً إلى جملة من العوامل يطول الحديث عنها، ورغم ما تعرّض له هذا المذهب من محن كثيرة على الطول الفترات والدول المتعاقبة، إلّا أنّه بقي صامداً في أوساط العامّة، وهذا بفضل الأدوار التي قام بها الشيوخ والعلماء والأئمّة من خلال المؤسسات العلمية المختلفة، ولا شكّ أنّ المؤلفات المالكية قد أدّت دوراً كبيراً في هذا الشأن على مختلف الأطوار، كما أن المذهب المالكي قد انتشر بنطاق كبير في الديار المصرية، واعتبر أحد أهم المذاهب المعتمدة في السّلطنة المملوكية، وانطلاقاً من تشجيع السلاطين للمذاهب السّنية الأربعة، فقد انعكس هذا الأمر على حركة التّأليف المذهبية بهذا القطر، خاصّة وأنّها تعدّ أحد وسائل مجابهة المذاهب المخالفة، ولذا فقد برزت بعض الكتب المعتمدة والمشهورة في المذهب المالكي، والتي درّست في المشرق كما تمّ تناولها في المغرب، نذكر منها:

* مختصر ابن الحاجب في فروع الفقه المالكي: المسمى بـ "جامع الأمّهات" وعرف باسم مؤلفه الشيخ أبو عمرو عثمان الدوين المعروف بابن الحاجب (ت 646 هـ / 1248م)²، هو

1 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 293. عبد العزيز فيلال، المرجع السابق، ج 2، ص 336.
2 - هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوين ثم المصري الفقيه المالكي الذائع الصيت المعروف بابن الحاجب والملقب بجمال الدين. كان أبوه حاجباً لأحد الأمراء وكان كردياً، واشتغل ابن الحاجب بالقرآن في القاهرة، ثم تفقه على مذهب مالك وفي العربيّة والقراءات وبرع فيها، ثمّ انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة، وأكّب عليه الطلبة، ألف في الفقه المختصر الفرعي والأصلي وفي العربيّة والأدب والقراءات. توفي بالإسكندرية سنة 646 هـ وكان مولده سنة 570 هـ / 1174م. انظر ترجمته في: النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 2،

أول مؤلف يجمع بين آراء المدرستين المصرية والمغربية في فقه المالكية¹، وصار يدرس بالنطاقين بعد أن انتقل إلى سائر أقطار بلاد المغرب² وبعد أن أصبح أحد مصادر الفقه المالكي المعتمدة³، وجائي، قد نقله إلى فاس أبو الربيع سليمان اللجائي واشتهر من أساتذته أبو الحسن علي الصياد الفاسي⁴، كما كتب التوازلي أحمد بن يحيى الونشريسي مؤلفاً جاء كتعليق على مختصر ابن الحاجب في ثلاثة أسفار⁵.

- مختصر خليل: نسبة للشيخ أبو ضياء خليل بن إسحاق المالكي المصري (ت: 767هـ/1367م)⁶، وهو عبارة عن مصنف في الفقه المالكي، جمع وأتم من قبل أصحاب وتلاميذ خليل بعدما وجدت مسودات الكتاب في تركته⁷، ولقد عكف الناس على دراسته مشرقاً ومغرباً، بل إن هذا المؤلف صار الأشهر ببلاد المغرب الأقصى في مختلف مؤسسات العلمية، وآل الحال إلى هذا المؤلف أكثر من غيره من الكتب المعتمدة⁸ بل إن هذا المختصر قد ألّفت فيه شروح وحواشي⁹.

التواصل في علوم اللغة:

ص 3. ابن فرحون، المصدر السابق، ص 189. ابن كثير، البداية و النهاية، ج 13، ص 176. ابن دقماق، نزهة الأنام، ص 180-181. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 492. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 36. المنهل الصافي، ج 7، ص 421-423. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 5، ص 234. محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 167. ابن قنفذ، الوفيات، ص 49-50. محمود زيتون، المرجع السابق، ص 185-186. حاجي خليفة، كشف الظنون...، ج 2، ص 162-593.

- 1- ابن خلدون، المقدمة، ص 808.
- 2- ابن خلدون، المقدمة، ص 809. الغبريني، المصدر السابق، ص 200. محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 167-218. ابن قنفذ، الوفيات، ص 54.
- 3- ابن مريم، المصدر السابق، ص 99.
- 4- محمد المنوي، المرجع السابق، ص 199.
- 5- ابن مريم، المصدر السابق، ص 54. محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 275.
- 6- ابن العراقي، المصدر السابق، ج 1، ص 196. ابن مريم، المصدر السابق، ص 96. الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 364. محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 223.
- 7- ابن مريم، المصدر السابق، ص 100.
- 8- خليل بن اسحق، مختصر العلامة خليل، تعليق: أحمد نصر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1981، ص 6.
- 9- ابن مريم، المصدر السابق، ص 99.

إنّ مسألة التواصل بين المغرب والمشرق، لا نستطيع أن نحصره في الجانب الديني أو المذهبي كميدان واحد من الميادين، وإنّما اشترك النطاقان في كثير من الميادين التي لا يمكن للجانب من الجوانب أن يكتمل إلّا بالآخر، ولا شك أنّ اللغة على رأس هذه الضروب، حيث تمت عملية تعريب بلاد المغرب منذ الفترات الأولى عقب الفتح، وانتشرت بها هذه اللغة العريقة وعدّت أصلا من البلاد العربية، وكان للمؤسسات التعليمية الدور الأبرز والبادرة الأولى لانتشار اللغة، باعتبار أنّ اللغة هي أداة العلم، وتعزّز هذا كلّهُ بالهجرة المالكية التي أثّرت على اللسان المغربي عموما، وانطلاقا من هذا فقد اهتمّ المغاربة شأن المشاركة بعلوم اللغة، بل برع الكثير منهم في فنونها المختلفة، ونظموا فيها الأراجيز والمصنّفات المعتمدة، ومن هذه التصنيفات:

- ألفيقي ابن مالك في النحو: التي سماها " الخلاصة " ألفها الشيخ العلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي المعروف بابن مالك النحوي دفين دمشق (ت 672هـ / 1273م)¹، ونكاد نزعّم أنّ الألفية تعدّ أهمّ التأليفات والمنظومات التي صنّفت في علوم اللغة العربية، التي لم تخل الأقطار كلّها من تدريسها²، وعلى رأسها بلاد المشرق - مستقر ابن مالك - وقد وضع عليها شروح وتعليقات وحواشي، نذكر منها: تعليق الشيخ جلال الدين السيوطي³، كذلك من تأليفات ابن مالك المعتمدة، كتاب " تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد في النحو " الذي بدوره صنّفت فيه الشّروح كشرح ابن مرزوق الحفيد⁴.

المؤلّفات في السلوك والتّصوف:

مما لا يمكن انكاره - كما رأينا - ما كان للتّصوف من مكانة مرموقة في المجتمع مغربا ومشرقا، ومدا مساهمة التّأليف في انتشار هذا المذهب السلوكي، حيث قعّدت هذه المؤلّفات للمريدين الجوانب السلوكية، والآثار المشيخية، والعناية بعلم الإشارة، لذا فقد شهد القرن السّابع وما بعده كمّا كبيرا من التّأليفات التي عرفت بها الطّرق الصوفية، كون مؤلّفيها من هذه الفئة، مع أنّ

1 - ابن العماد، شذرات الذهب، المصدر السّابق، ج5، ص 339.

2 - عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 298.

3 - حاجي خليفة، المرجع السابق، ص 152.

4 - ابن مريم، المصدر السابق، ص 211.

مواضيعها ليست بالضرورة من اهتمامات هذه الطبقة فقط، وسنستعرض بعضا من هذه التأليفات التي ذاع صيتها مشرقا ومغربا:

- البردة للبوصيري: كما وردت باسم "الكواكب الدرية في مدح خير البرية" أشهر قصائد شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المصري دارا، الصنهاجي أصلا (ت 696 هـ / 1296م)¹، نظمها البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مريض فشفي من مرضه، ولذا سميت "بالبردة"²، وقد انتشر هذا النظم ببلاد المغرب، بل وألفوا فيه الشروحات الكثيرة³.
- الحكم العطائية: وهي عبارة عن أقوال نثرية موزونة في باب التزكية، ألفها تاج الدين أحمد المعروف بابن عطاء الله السكندري نسبة للإسكندرية (ت 709 هـ / 1310م)⁴ رئيس الكرسي الأزهرى في التصوف على الطريقة الشاذلية⁵، وهي بدورها أسيلت فيها أقلام الشراح مشرقا ومغربا⁶.

إن هذه الوحدة الفكرية بين المشرق والمغرب، غدتا هذه العيّنات من المصنّفات التي انتشرت واشتهرت مغربا ومشرقاً، وسهّلت في انتقال الأفكار بين المشرق والمغرب، كما عمل العلماء على اختلاف أقطارهم بتدريسها ومناقشتها، ساعد على هذا كله انتشار المؤسسات التعليمية التي اتّبعَت مناهج تدريس مشتركة، وهي أسمى مظاهر التمازج الفكري، فقد ساهمت حركة التأليف في تتين الروابط العلميّة لدى طلبة وعلماء المغرب الأقصى والمشرق على حد سواء، وأثر هذا التبادل العلمي من خلال المؤلفات أيضا في انتقال الأفكار المشرقية إلى المغرب والعكس صحيح، وصار طالب العلم لا يجد كبير فرق بين مناهج التدريس، ولم يكن من عوائق بين بين الدولتين غير عائق البعد الجغرافي

1 - ابن العماد، شذرات الذهب، المصدر السابق، ج5، ص 432. صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وآخرون، ج3، دار إحياء التراث العربي، ص 105. عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 298.

2- محمد بن سعيد البوصيري، ديوان البوصيري، دار المعرفة، بيروت، 2007، ص 227.

3 - السخاوي، الضوء اللامع، المصدر السابق، ج7، ص 279. المنوي، المرجع السابق، ص 534-535.

4- يوسف عابد، المرجع السابق، ص 138.

5- عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص 300.

6- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 2004، ص 114.

والظروف السياسية المتردية والتي لم تشكل لطلبة العلم حجر عثرة في تحصيل معارفهم بسبب علو همهم.

الختامة

إن الحديث عن العلاقات بين المغرب و المشرق الإسلاميين ممثلا في الدولة المرينية من جهة ودولة المماليك من جهة أخرى ، يعدّ تواصلا لتلك الملازمة التاريخية التي بقيت على امتداد التاريخ الإسلامي، انطلاقا من العلاقات المشتركة بين هذين النطاقين الجغرافيين المهمين في تاريخ العالم الإسلامي، والتي عزّزتها جملة من العوامل المهمة، أهمها الحوار الجغرافي، والدين الإسلامي، والوحدة السنية، والخطر المشترك.

_____ كان لسقوط الدول المركزية ممثلة في دولة الموحدين بالمغرب الاسلامي والدولة الأيوبية بالمشرق، الأثر البارز في إفراز واقع جديد، تجلّى في ظهور كيانات سياسية في النصف الأول من القرن السابع الهجري/13م وإيدانها بظهور فوضى شملت بلاد المشرق وبشكل أوضح بلاد المغرب، حيث شهد هذا الواقع ظهور شقاق وصراع بين الإخوة الفرقاء، الأمر أفرز لنا دولتين ترفع كلّ منها شعار توحيد نطاقها ومجالها الجغرافي، ممثلة في دولة بني مرين بالمغرب، بفضل تزعم الجهاد في الأندلس والسعي إلى توحيد المغرب الإسلامي تحت راية واحدة، ناظرها في هذا دولة المماليك بالمشرق، التي تصدت للأخطار الخارجية سواء الخطر الصليبي أو المغولي وعملوا على إخضاع الجبهة المشرقية في مصر وبلاد الشام ، وهو الأمر الذي أعطى للعلاقات المرينية المملوكية تميزا عن باقي أقطار المغرب الإسلامي الأخرى، حيث شهدت متانة وتعاوننا ونديّة بشكل رسمي جلّي، ولذا حرص الطرفان على التواصل السياسي، كونها الدول الأكثر تأثيرا بالعالم الإسلامي.

_____ إنّ اعتراف المرينيين برسم الخلافة العباسية بالقاهرة - بعد سقوط بغداد - عزّز من أواصر التواصل بين الدولتين، خاصة وأن المرينيين قد تجاوزوا في هذا غرماءهم الحفصيين الذين نافسوا المماليك على أحقية لقب خدمة الحرمين الشريفين، كما ارتبطت دولة بنو مرين مع الدولة المملوكية بعلاقات دبلوماسية متينة ، ولم تتوقف المراسلات خاصة بين الفترة الممتدة بين القرنين 7-8هـ/13-14م، وكانت مواضيعها مختلفة بين ثمنّة أو طلب وساطة ، أو توصية بالحجيج ، صاحب هذا كلّ التنافس في التهادي، وانتقاء أهم الشخصيات في الدولة لحمل رسائل السفارات، ساهم في هذا حرص الدولتين تأمين السبل والطرق، وتنشيط الحركة الاقتصادية عن طريق الممرات البحرية، والتي استخدمت أيضا في الرحلة الحجازية.

_____ شهد عصر السلطان محمد الناصر بن قلاوون أزهى فترة لمد جسور العلاقات بين المماليك والمرينية، حيث عاصره في فترة حكمه خمسة من ملوك الدولة المرينية، فقد سجلت أولى السفارات المرينية في عهد السلطان أبو يعقوب يوسف الملقب أيضا بالناصر، وصولا إلى عهد السلطان البارز أبو الحسن المريني، بينما كان لهذا الأخير التّصيب الأبرز في مظاهر العلاقات بين الدولتين، حيث شهد عهده انتداب تسع سفارات من فاس إلى القاهرة، وهو مظهر يدلّ على كثرة السفارات المرينية نحو المماليك.

_____ أما من المجال الثقافي ، فلم تختلف طبيعتها عن الشق السياسي، فقد عرفت الدولتين حركية علمية منقطعة النظير، دلّ على ذلك حجم التأليف الهائل الذي دوّن في هذه الفترة التاريخية

الهامة، والذي استند إلى الاهتمام سلاطين الدولتين البالغ بالحياة العلمية، وبتقريبهم للعلماء وإجراء التفقات عليهم، وتوليتهم للنصب الرفيعة، حيث يعدّ نشاط الحياة العلمية انعكاسا لحركة إنشاء المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وبيماريستانات ومكتبات وزوايا، وهذا في مختلف المدن الإسلامية، خاصة بحاضرة القاهرة التي أصبحت المركز الثقافي والعلمي الأول، وقبله العلماء من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وهذا بفضل بروز معالم وصروح علمية كبيرة وعلى رأسها الأزهر الشريف، بينما برزت فاس - الحاضرة المرينية - كصرح علمي بفضل مدارسها العريقة، وعلى رأسها جامع القرويين، دلّ على ذلك كثرة ألقاب الفاسيين من رجالات العلم، ومن هنا يمكن القول أن الحياة الثقافية بالمغرب المريني والمشرق المملوكي كانت تشهد معادلة، خاصة خلال القرن الثامن الهجري/14م، ما جعل التبادل الثقافي بين هذا القطر أو ذاك يكون لقيًا، وهو الأمر الذي ساهم في تشكيل معالم الوحدة الإسلامية بين البلدان الإسلامية مشرقا ومغربا، خاصة في الجانب الثقافي.

كما توطدت العلاقات بشكل أكبر عن طريق الرحلة بين المغرب والمشرق، سواء كانت رحلة الحج أو الرحلة في طلب العلم، والتي عدّت من الفرص الثمينة التي توفرت لطلاب العلم، ومكنتهم من لقاء المشايخ والعلماء، ونيل أسمى الشّهادات والإجازات، وعقد مجالس العلم والمناظرة، فقد غصّت بهذه المجالس طلبة العلم، خاصة المرتحلين من المغرب إلى المشرق، وهو الأمر الذي أوجد لنا دورا مخصوصة بهذه الفئة، كدار المغاربة بالإسكندرية، ورواق المغاربة بالأزهر، وظاهرة المجاورة بالحرمين، والتي عبّرت عن كثرة هذه الجالية بالمشرق، فقد كانت هذه المنشآت تسيّر وفق شروط معينة، والتي نالت قسطا وافرا من الأموال نظرا لوفرة المداخل المالية من عائدات الأوقاف والتجارة الدولية، كما شهدت تشابها من حيث المناهج وطرق التدريس، وتبادل الكتب والمصنفات، بفضل العلماء المرتحلين بين المشرق والمغرب، والذين استطاعوا نقل خبرات أقرانهم إلى بلدانهم، ونسج علاقات قوية كانت أبرز مظاهر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب.

لم يقتصر الاتصال الثقافي بين المغاربة والمشاركة على الجوانب العلمية، وإنما تعدّاهما إلى المظاهر والآثار الروحية، فعمّ التصوف القطرين، وأصبح من أبرز مظاهر الحياة الدينية، وانتشرت تعاليم الطرق الصوفية بفضل اعتقادات السلاطين في رجالها، وتخصيص الكثير من المنشآت لهذه الفئة بعينها، كالزوايا والرباطات والخوانق، ويمكن ملاحظة الكثير من الطرق التي انتشرت بين المشرق والمغرب، وعلى رأسها الطريقة الشاذلية، التي تعتبر الطريقة المغربية التي ذاع صيتها بالمشرق، وخلفت به أهم أقطابها.

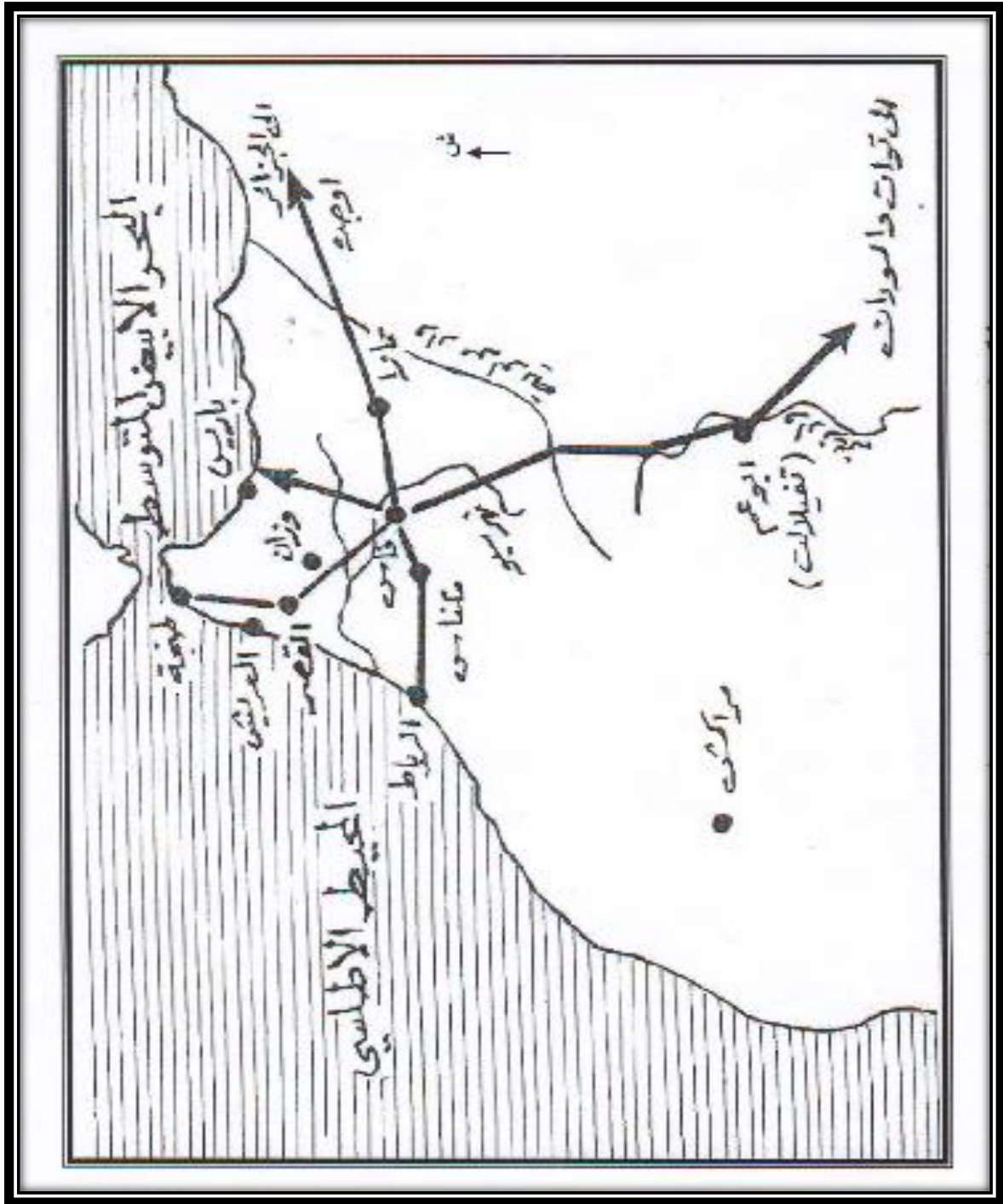
الاحق

الملحق رقم: 01.



حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام** الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987، خريطة رقم 89 - ص 167.

الملحق رقم 03 : مدينة فاس ملتقى هام للطرق في العصر المريني.



محمد عياش، المرجع السابق، ص: 150.

الملحق رقم 04: مخطط مدينة فاس الجديد في العصر المريني .



محمد عياش، المرجع السابق، ص: 155.

الملحق رقم 05 : سلاسل حكام دولتي بني مرين والمماليك

جدول رقم (1): سلاطين دولة بني مرين

أسماء السلاطين	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
أبو محمد عبد الحق المريني	637/613	1240/1217
أبو معروف محمد بن عبد الحق	642	1244
أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق	647	1249
أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق	685	1286
أبو يعقوب يوسف الناصر بن يعقوب	707	1307
أبو ثابت عامر بن يوسف	708	1308
أبو الربيع سليمان بن يوسف	710	1310
أبو سعيد عثمان بن يعقوب	731	1331
أبو الحسن علي بن عثمان	746	1348
أبو عنان فارس بن علي	758	1358
أبو زيان السعيد محمد بن فارس	758	1358

1359	759	أبو يحيى أبو بكر بن فارس
1361	761	أبو سالم إبراهيم بن علي
1366	767	محمد بن يعقوب
1372	774	أبو فارس عبد العزيز بن علي
1373	775	أبو زيان السعيد محمد بن عبد العزيز
1384	786	أبو العباس أحمد بن إبراهيم
1387	789	أبو فارس موسى بن فارس
1393	796	أبو العباس أحمد بن أحمد
1396	798	أبو فارس عبد العزيز بن أحمد
1398	800	أبو عامر عبد الله بن أحمد
1420	823	أبو سعيد عثمان بن أحمد
1428	830	أبو محمد عبد الحق بن عثمان
1465	869	أبو محمد عبد الحق

جدول رقم (2): سلاطين المماليك البحرية

أسماء السلاطين	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
المعز لدين الله أيك	648	1250
المنصور نور الدين علي بن المعز	655	1257
المظفر سيف الدين قطز	657	1259
الظاهر ركن الدين بيبرس	658	1260
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن بيبرس	676	1277
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	678	1279
المنصور سيف الدين قلاوون	679	1279
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	689	1290
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	693	1292
العادل زين الدين كتبغا	694	1294
المنصور حسام الدين لاجين	696	1296
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	698	1298

1308	708	المظفر ركن الدين بيبرس (الثاني) الجاشنكير
1309	709	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)
1341	741	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد
1341	742	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد
1342	742	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد
1342	743	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد
1345	746	الكمال سيف الدين شعبان بن الناصر محمد
1346	747	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد
1347	748	الناصر ناصر الدين بدر الدين الحسن بن الناصر محمد
1351	754	الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (سلطنته الثانية)
1354	755	الناصر ناصر الدين بدر الدين الحسن بن الناصر (سلطنته الثانية)

1361	9 جمادي الاخر 761	المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجي بن الناصر محمد
1364	15 شعبان 764	الأشرف ناصر الدين زين الدين شعبان بن حسن بن الناصر محمد
1376	ذي القعدة 778	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين بن الناصر بن محمد
1381	783	الصلاح صلاح الدين زين الدين حاجي بن شعبان بن حسين بن الناصر

جدول رقم (3): سلاطين المماليك البرجية / الجراكسة

أسماء السلاطين	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
الظاهر سيف الدين برقوق	784	1382
الصلاح حاجي بن شعبان (سلطنته الثانية)	791	1388
الظاهر سيف الدين برقوق (سلطنته الثانية)	792	1389
الناصر ناصر الدين أبو السادات فرج	801	1398

1405	26 ربيع الأول 808	المنصور عبد العزيز علي
1405	5 جمادي الآخر 808	الناصر ناصر الدين فرج (سلطنته الثانية)
1412	15 شوال 815	الخليفة العادل المستعين بالله العباسي
1412	20 جمادي الآخر 815	الملك المؤيد أبو النصر شيخ الحمودي
1421	محرم 824	المظفر بن المؤيد شيخ
1421	شعبان 824	الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر
1421	ذو الحجة 824	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر
1421	825	الأشرف سيف الدين برسباي
1438	841	العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي
1438	842	الظاهر سيف الدين جقمق
1453	11 محرم 857	المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق
1453	13 ربيع الأول 857	الأشرف سيف الدين إينال
1461	14 جمادي الأول 865	المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال
1461	19 رمضان 865	الظاهر سيف الدين خشقدم

1467	4 ربيع الأول 872	الظاهر سيف الدين بلباي
1467	جمادى الأول 872	الظاهر تمرغا
1467	رجب 872	الأشرف سيف الدين قايتباي
1495	901	الناصر محمد بن قايتباي
1498	904	الظاهر قانصوه الأشرفي
1499	905	الأشرف جان بلاط
1500	جمادى الآخر 906	الأشرف طومان باي قانصوه الأشرفي
1500	شوال 906	الأشرف قانصوه الغوري
1517	923	الأشرف طومان باي الثاني

جدول رقم (4): الخلفاء العباسيون بمصر في عهد سلاطين المماليك البحرية

أسماء الخلفاء	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
أبو القاسم احمد المستنصر بالله	659	1261
الحاكم بأمر الله احمد بن الخليفة الراشد بالله	660	1262
المستكفي بالله أبو الربيع	701	1302

1339	740	الوائق بالله إبراهيم بن المستمسك بالله
1340	741	الحاكم بأمر الله (الثاني) أحمد بن المستكفي بالله
1352	753	المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفي بالله
1362	763	المتوكل على الله محمد أبو عبد الله
1377	ربيع الأول 779	الوائق بالله أبو يحيى زكريا المعتصم

جدول رقم (5): الخلفاء العباسيون في مصر على عصر سلاطين المماليك البرجية

أسماء الخلفاء	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
الوائق بالله (الثاني) عمر بن الواثق بالله إبراهيم	785	1382
المعتصم بالله زكريا	788	1386
المتوكل (للمرة الثانية)	791	1388
المستعين بالله عباس بن المتوكل	رجب 808	1405
المتوكل (للمرة الثالثة)	815	1412
المعتضد بالله داود (الثاني)	ذو الحجة 816	1413
المستكفي بالله سليمان (الثاني)	ربيع الأول 845	1441
القائم بأمر الله حمزة	محرم 855	1451

1454	رجب 859	المستجد بالله يوسف
1479	محرم 884	المتوكل على الله عبد العزيز (الثاني) بن يوسف
1497	صفر 903	المستمسك بالله يعقوب
1508	914	المتوكل على الله (الثالث) بن المستمسك
1516	922	المستمسك (للمرة الثانية)
1517	923	المتوكل (الثالث) (للمرة الثانية)

الملحق رقم 06 : نماذج من رسائل تقليد حكام الممالك

تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسي للملك الظاهر بيبرس بالسلطنة

سنة 658هـ / 1258 م، من إنشاء فخر الدين بن لقمان

"الحمد لله الذي أصفى على الإسلام ملابس الشرف، و أظهر بحجة درره ، كانت خافية، بما استحكم عليها من الصدق، وشيد ما وهي من علائه حتى أنسى ذكر من سلف ، وقبض لنصره ملوكا اتفق عليهم من مختلف ، احمده على نعمته التي رفعت الأعين منها في الروض الأنف ، والطافة التي وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف، واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمنا، وتسهل من الأمور ما كان حزنا، واشهد أن محمد عبده الذي جبر من الدين رهنا ، ورسوله الذي اظهر من المكارم فنونا لافنا ، صلى الله عليه وسلم وعلى اله الذين أصبحت مناقبهم باقية لا تفنى،...ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولى السلطاني الملكي الظاهري الركني — شرفه الله وعلاه — ذكرها الديوان العزيز النبوي الأمامي المستنصري — اعز الله سلطانه — تنويها يشرف قدره، واعترفا بصنعة الذي تنفذه العبارة المسهية ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان و أذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صوات مغضب، فأعادها لها سلما بعد أن كان (عليها) حربا، وصرف أليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا، و أظهر من الولاء رغبة في (ثواب) الله مالا يخفى، و أبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمرا لو رام غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لا تقطع به قبل الوصول إليه، ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليقبل بها (في) الميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه، والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبي الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه... وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية واليمينية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا....." ¹.

¹ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6، ص ص 111-113.

كتاب مبايعة السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد قلاوون سنة 741هـ/1340م

للخليفة العباسي أحمد بن المستكفي بالله بالخلافة، من إنشاء ابن فضل

الله العمري

"..... بيعة يصلح الله بها الأمة، ويمنح بسببها النعمة، ويجازي الرفاق، ويسري ألها في الأفاق، ويتزاحم زهر الكواكب على حوض المحرة الدقاق، بيعة سعيدة ميمونة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونة، ببيعة صحيحة شرعية، بيعة ملحوظة مرعية، تسابق أليها كل نية، وتطاول كل طويه، ويجمع عليها شتات البرية، يستهل بها العام، ويتهلل البدر التمام، بيعة متفق على الإجماع عليها، والإجماع يبسط الأيدي إليها، انعقد عليها، فاعتقد صحتها من سمع الله وأطاع، وبذل في تمامها كل امرئ من استطاع، حصل عليه اتفاق الأبصار والأسماع، ووصل بها الحق إلى مستحقه، وافر الخصم وانقطع النزاع تضمنها كتاب مرقوم يشهده المقربون، وتلقاه الأئمة الأقربون، (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ).

أنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغرب، والفائز يملك ما بين المشارق والمغرب، الرامي في صفيح السماء هذه الدرة المتيفة، الراقي بعد الأئمة الماضين ونعم الخليفة، المجتمع فيه شروط الإمامة، المتضع لله وهو ابن بعث لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة، الذي يفضح السحاب نائلة، والذي لا يقيه عاذرة، ولا يقبره عاذلة والذي ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمان، إلا قال ناصرة وقام قائمة ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف أنه خاب مستكفية ولا عاب حاكمة ...

أيد الله ببقائه الدين، وطوق سيفه رقاب الملحين، وكبت تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر إلى يوم الدين، وكب بجهاده على الأذقان طوائف المفسدين، وأعاد به الأرض ممن لا يدين بدين، وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعملة كانوا يعملون، ونصر أنصاره وقدر اقتداره واسكن في القلوب سكينة ووقاره، ومكن له في الجود وجمع له أقطاره.².

² - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 59.

الملحق رقم 07: رسالة أبي الحسن المريني إلى الناصر المملوكي

"من عبد الله علي أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوتين، أبي سعيد (الصواب أنه يقصد أبو الحسن المريني)، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وفسح لفتح معقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه.

إلى السلطان، الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافل، الملك، الناصر، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأسعد، الأصعد، الأرقى، الأوقى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البغاة والمعتدين، ومفيد الأوطار، مبيد الكفار، هازم الجيوش الأرمن والفرنجة والكرج والتتار، مالي صدور البراري والبحار، حامي القبلتين، خديم الحرمين، غيث العفاة، عون العناة، مصرف الكتائب، مشرف المواكب، ناصر الإسلام، ناشر الأعلام، فخر الأنام، زخر الأيام قائد الجنود، عاقد البنود، حافظ الثغور، حامي الجمهور، نظام المصالح، بقية السلف الصالح، ظهير الخلافة وعضدها، ولي الإمامة وسندها، عاضد كلمة الموحدين، ولي أمير المؤمنين، أبي المعالي (محمد) ابن السلطان، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد، الخطير، لعادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم، المبجل، المكبر، الموقر، المعزز، المجاهد، المرابط، المثاغر، الأوحاد، سيف الدين (قلاوون) أدام الله فضل عزمه الماضي بتأييده، وأدار الأفلاك بتشييد ملكه الشامخ وتمهيده، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين، وأدناس المارقين، بما يريق عليها من دمائهم، فما كل متطهر يجزئ عنه غسل مائه أو تيمم مائه.

سلام كريم، طيب عميم، أريج الشميم، متضوع النسيم، تستمد الشمس باهر سناه، ويستعير المسلك عاطر شذاه، يخص إخوانكم العلي، ووفاءكم الوفي، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أيد المؤمنين، على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، وعرف الإسلام وأهله من السر العجيب، والصنع الغريب، ما فيه عبرة للسامعين والناظرين، حكمة عجزت عن فهم سرها المكتوم، وقصرت عن كنهها المختوم، ألباب عبيده القاصرين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي أرشد به الحائدين الحائرين، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله برغم الجاحدين

الكافرين، وعلى آله وصحبه الذين هاجروا إليه وبلادهم هجروا، والذين آووا من آوى إليهم ونصروا، والذين جاهدوا في الله فصبروا، ففازوا بذكر المجاهدين والأنصار وأجر المجاهدين الصابرين، وصلة الدعاء لحزب الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، بفضل لا يزالون معه لأعدائهم قاهرين، وسعد لا ينفكون له بآمالهم ظافرين، ونصر من عند الله وما النصر إلا من عند الله وهو خير الناصرين.

فإننا كتبنا إليكم - كتب الله لكم مجدا مديد الظلال، وعرضا حديد الإلال، وسعدا جديد السربال - من منصوره "تلمسان" حرسها الله تعالى، والصنائع الربانية تكيف العجائب، وتعرف العوارف الرغائب، وتشنف الأسماع بما تسمعها من إجزال المنوح والمواهب، وتقوف الرقاع بما تودعها من أحاديث الفتوح الغرائب، والحمد لله على ما يسر من المآرب، وسهل من المواهب، وإخاؤكم الصادق مبرور الجوانب، مأثور المناقب، مشرق الكواكب، مغدق السحائب، نامي المراتب، سامي المراقب، والله تعالى يبيقيه في ذاته، ويقيه من صرف الدهر وأداته، وإلى هذا وصل الله لكم سعدا جديدا، وجدا سعيدا، ومجدا حميدا، وحمدا مجيدا، فقد وصل كتابكم الأثير، المزرى بالمسك النثير، فاجتلينا منه روضة جادها البيان فأمرعها، ورادها البنان فوشعها، واجتنيينا من غصون سطوره ثمرات وداد ما أينعها، إنباء عما تلقاه الإخاء الكريم من قبل الشيخ الأجل، أبي عبد الله محمد بن الجراح مما عنا تحمل، وفي إلقائه وأدائه بحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل، وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة ألحقها الله تعالى رضوانه، وبوأها جنانه، من حج البيت المحرم وزيارة (القبر) المعظم المكرم، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وثالثها في شد الرحال المسجد الأقصى ونعم المغتنم، وقضاء النسك، بتلك المناسك والمشاهد، والتبرك بتلك المعالم المنيفة والمعاهد، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي، ورصف من أمر بقتالنا من كل مارق أبي وكافر حربي، وما منحنا الله من نصر لقلوب أهل الإيمان مبهج، ولصدور عبدة الصليبان محرر، وأن الإخاء الكريم حصل له بذلك أبهى ابتهاج، وحل منه محل القبول الذي انتهج له من اقتفى سبيل القصد أنهى انتهاج، فعقد العزم على تلقي الوفاد من تلقائنا، والوارد رجاء أداء فرض الحج من أرجائنا، بتسهيل سبيله، وتيسير ارتحاله إلى بيت الله ورسوله، وأنه متى وقع الشعور بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده، وقربها من جهاته المجودة من جود جوده بعهاده، يقدم للخروج من يتلقى ركاها، ويعتمد بالبر والتكريم جناها، حتى تحمد وجهتها الشريفة بحمیل نظره وإياها، وقام عنا بما نوده من برها، وساهم فيما تقدمه إلى الله عز وجل من صالح أجرها، وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجزله، ومن البر بأحفاه

وأحفله، وحصل لدينا بإزائه سليم وده وكريم إخائه، من تخلص ولائه، وتمحيص صفائه، منا ما يزال عهده الأنيق في نهائه، وعقده الوثيق في ازدياده ونمائه، وغصنه الوريق في رونق غلوائه، ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها، وبرد ضريحها، قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل، وماتت على ما أبرمته في قصد البيت الشريف من نية وأمل، اذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك، واعتدت لسلوك تلك المسالك، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك، وعلى الله إجزال ثوابها، وعنده نحتسب ما ألم من مصابها- فإن لدينا ممن يمت بحرمة الحرم إلينا، ويلزم بحق التربية علينا، من يقوم مقامها، ويروم من ذلك المقصد الشريف مرامها، وسنوردها إن شاء الله تعالى على تلکم البقاع، ونوردها من تلکم الأقطار والأصقاع، ما يجمل بحسن نظرکم مورده ومصدره، ويطابق في جمیل اعتنائکم وحفیل احتفالکم خبره ونخبه، بفضل الله وعونه.

وأما تشوق ذلكم الإخاء، لمواصلة الكتب بسار الأنباء، فإن من أقرها عهدا، وأعذبها حديثا يهادى ويهدى، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان وممالكها بالحل النبیه، وذلك أن أسلافه بني زيان، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع تورّد الحما، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون المنازعة، ويعودون للموادعة، ثم لم يلبثوا، أن ينكثوا، ولم يصبروا، أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم، فأكثر موتهم وكدر محياهم، وتمادى بهم الحصار تسع سنين، وما كانوا غير شرذمة قليلين، وهنالک اتصلت بينكما المراسلة، وحصلت الصداقة والمواصلة، حتى حم موته، وتم فوقه، رحمة الله تؤمه، ورضوانه يشملهم ويعمه، فنفس خناقهم، وعاد إلى الإبدار محاقهم، وصرف القائم بعده عنهم الحين، عما كان هو رحمه الله قد طوع من بلاده مغراوة وتجين، فاتسعت عليهم المسالك، وملکوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع من الممالك، لكن هذا الخائن وعمه كانا ممن أسأرتهم الفتن، وعم به من غوامر الحن، فسلکا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنة، والزوغان من الإعلان بالمفاتنة.

ولما سول الشيطان لهذا العاق قتل والده، والاستيلاء على طارفه وتالده، لم يقدم عملا على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد، قدس الله مثواه، وجعل الجنة مأواه، في السلم راغبا، وللحكم بموادعته طالبا، فاقتضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه، وإن كان باطنه على مرضه، فقوى أمره، وضرى ضره، وشرى شره، ووقد تحت الرماد جمره، وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدين داؤه،

وطال عليهم تضيقه واعتداؤه، واستشعر ضعفهم عن مدافعته، ووهنهم عن مقاومته، فبغى وطغى، ولم يدر أن من فوقه سقب السماء رغا، وباطن جماعة من أهل عرب إفريقية المفسدين وجروه بجبل الأطماع إليها، وأقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار، ويشن على أحواز تونس الغار، حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان، بمالأة منهم ومن غيرهم من وراثته(?) كابن اللحياني، وابن الشهيد، وابن عمران، فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة رسولا، وأوفد علينا أعز ولده أبا زكريا في ذهاب المضرة عنه دخيلا، فحاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين، وبقوله تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " مذكرين، فما زادته الموعظة إلا أشرا، ولا أفادته التذكرة إلا بطرا، وحين ذكر فلم تنفعه الذكرى، وفكر فلم يتيسر لليسرى، امتثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله " فإن بغت إحداهما على الأخرى " فأزمعنا قده، وأجمعنا رد رده. وفي أثناء ذلكم وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصارى أعداء الله جيرانه على طاغيتهم، المصر على عداوته وعداوتهم، فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد في أربعة آلاف من الأبطال، وأمددناهم بما كفاهم من الطعام والعدة والمال، فأجاز من سبتة إلى الخضراء عجلا، ولم يقدم على منازل جبل الفتح عملا، وكان هذا الجبل الخطير شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين شجا في لهوات أهل العدوتين، وغصة في نفوس الساكنين بالجهتين، لاطلاعه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تخطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرمل وأيتم، وأثكل وأيم فأحاطت به العاديات السوابح برا وبحرا، وأذاقت من به هم من أهماج الأعلاج شرا وحصر، إلى أن أسلموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحا ونصرا، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغاثته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليمه للإسلام، فترل بخيله ورجله إزاءه، وأقسم بمعبوده لا يرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقي منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنث يمينه، وأقلع بعد شهرين وأيام مدلجا، وأسرع العود إلى مستقره، وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنابته للسلم وانقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب غرناطة من معتاده، وكانو يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إلزام، فسمناه تركها وإسقاطها، وألزمناه فيما عقدناه له من السلم أن يدع اشتراطها، والحمد لله أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد اعتنينا بتحسين حصن هذا الجبل تميما لها وتكميلا، وابتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجا وإكليلا. وكنا في

هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا الممتع بسجلماصة من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والفلاح على التفصيل والجملة، لعثايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب تلمسان، ومساعدته على البغي والعدوان، فسهل الله افتتاحها وعجل من صنائعه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى من ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف.

وفي خلال تلکم المنازل، وحال تلکم المحاولة، لاحت للخائن التلمساني فرصه، جرع منها غصه، إذ ظن أنا عنه مشغولون، وفي أمر ما عرض من سجلماصة وجبل الفتح معتملون، فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجد، إلى حصن ماوربرت (لعلها تامزدكت على الحدود) الذي هو بين بلاد وبلادنا كالحمد، فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين، في ثلة من بني مرين، آساد العرين، فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين، فنكص على عقبه، ولم ير له جنة أوقى من هربه، وعاد لذلك ثانية، فلم تكن عساكرنا عن طرده وأنيه، بل ردت في الحافرة، وأنشدته بلسان حالها الساخرة:

إن عادت العقرب عدنا لها " " " " وكانت النعل لها حاضرة

ولما فرغنا والحمد لله من تلکم الشواغل، وأرغنا من الخائن التلمساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل، فأعرض وأشاح، وما لاحت عليه مخيلة فلاح، نهدنا نحو أرضه، لنجزيه بقرضه، بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى، وخيول تذر الأكم للحوافر سجدا، تنقض على الأقران أمثال الأجادل، فكفنا بتسلم منازلهم منزلا فمتزلا، وتسلم معاقله معقلا فمعقلا، وجل رعاياه تقرر بفضلنا، وتفر من جورهم إلى عدلنا، ومن تمسك منهم بحبله، أو سلك من الغي في سبله، قاده السيف برغمه، واستتره على حكمه، والعفو مع ذلك يؤمهم، والإحسان يشملهم ويعمهم، حتى لم يبق إلا معقله الأشب، ومزله الذي رأى أنه عن عين الشوائب محتجب، قد شخخ أنفا حميا، وصافح كفا للثريا، ولم يرض لها منه عمام إلا الغمام، ولا لأنامل شرفاته خواتم، إلا النجوم العواتم، فترلنا بساحه، وأقبلنا على كفاحه، وجعلنا نقذفهم من حجارة الجانيق، بأمثال النيق، ومن كيزان النفط الموقدة، بأمثال الشهب المرصدة، ومن السهام العقارة، بأمثال العقارب الحرارة، حتى غدت جدرانهم مهدومة، وجسومهم مكلومة، وثغور شرفاتهم في أفواه أبراجهم مهتومة، وظلت الفعلة تشيد إزاء أبراجهم أبراجا، وتمهد منها لتسوير أسوارهم أدراجا، وللمعاول في أسافلها إعوالم، وللعواسل على أعاليها أعمال، وللأشقياء مع ذلك شدة وجلد، وعدة وعدد، وحدة

ولدد، يقاتلون حمية، وينازلون بنفوس أبيه، وحجارة المجانيق تشدخ هامهم، وبنات الكنائن تزلزل أقدامهم، وهم في مثل ذلك لازمون إقدامهم، إلا أن اشتدت أزمته فلم يجدوا لها من فارح، وأحاطت بهم الأوجال من خارج، وهدمت أبراجهم الشواهي، وردمت حفائرهم والخنادق، وأخذت الكماة، في العروج إلى البروج، والحماة في السباق إلى الأنفاق، والرماة في النضال بالنصال، فمن مرتق سلما غير متق مؤلما، ومشتغل بالنقب، غير محتفل بشابور الحجارة المنصب، وأفرج المضيق، وانتهج الطريق، واقتحمته أطلاب الأبطال، وولجته أقيال القبائل وولى الأشقياء الأدبار، وعاذوا بالفرار، وبدت عليهم علامات الإدبار، وسابقوا إلى الأبواب، فكان مجيئهم من أقوى الأسباب، وقتل منهم الزحام من أساره الهدم والحسام، فتملكنا ما دارت عليه الأسوار الخارجية: كفرار السبع والملعب، وجميع الجنان والعروش التي ما انفك الشقي يجتهد في عمارتها ويتعب، وأعلننا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا ووصل إلينا آتيا، منحناه العفو ومحونا عنه الهفو، وأوردناه من إحساننا الصفو، فتبادروا عند ذلك يتساقطون من الأسوار تساقط جنيات الثمار، فرادى ومثنى آيين إلى الحسن، فيسعهم الصفحن ويحسبهم المن والمنح.

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه، أمر بسراح من في قبضته وسجنه، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شئ على وهيه ووهنه، واعتمد الناس في بقية يومهم السور متوسع أنقابه، وتتحرق أبوابه، إلى أن جنهم الليل، وحق منهم بالأعداء الويل، ولزم كل مركزه، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه، وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون، فلما ارتفع الضياء ومتع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد ووزيرنا القاعد له بالمرصد، بأن زحفوا إليها مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها، فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم ولم يكن إلا كلا حتى امتطيت تلك الصهوة، وتسمنت فيها الذروة، وتسلمت بيد العنوة وفصمت عراها عروة عروة، وأنزلوا من صياصيحهم، وتمكنت يد القهر من نواصيحهم، وحققت عليهم كلمة العذاب من معاصيهم، وفر الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن علي معينه على البغي والعصيان، وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكنفهم هنالك أولياء دولتنا العلية، فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنية، ونبتت بالعراء أجسامهم، وتقدمنا للحين بأن يمد على الرعية ظل التأمين، ويوطأ لهم كنف التهدة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العافية، وتكف عنهم الأكف العادية، حتى لا تمتد إليهم كف منتهب، ولا يلتفت نحوهم طرف مستلب، ومن انتهب شيئا أمر

برده، وصد عن قصده، وكمل لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد الداخلة في ولاية بني عبد الواد، ونسخت منها دولتهم، ومحيت من صحيفتها دعوتهم، وعوض الرعايا من خوفهم أماناً، ومن شؤمهم يماناً، وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية، وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيعة التي بهرت الصنائع جمالاً، وأضفت على المسلمين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حق هذا الإنعام الجسيم، والصنع الرائق الوسيم، أن نتبع العفو بعد المقدرة، بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره، فمنا على قبائل بني عبد الواد، وأضيفنا عليهم صنوف الملابس نساء ورجالا، وأوسعنا لهم في العطاء مجالا، وأفعمنا لهم من الحباء سجالا، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطا الله تعالى ما هو خير من بلادهم، وحبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم، وإخصاب مرادهم، وخطناهم بقبائل بني مرين، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين، وتزوير المزورين، وأعدنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد، واعتدنا من فرسانهم ورجالهم لطعان الأعادي أكبر مدد، وأزِيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إصرهم، وأزِيح عنهم بتوخي العدل فيهم جورهم ووزرهم، وخففنا عنهم ما آد من المغارم، وهاد من المكارم، فانشرحت صدورهم وصلحت أمورهم.

والحمد لله ثل محال الباغين ومجاهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم، وأخذهم بما احتقبوا من المآثم، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم، وأباحوا من المسكرات وأذاعوا من المنكرات، وطالما أصبح ربهم معدن الفسوق وموطن العقوق، ومقطن إضاعة الحقوق، لا سيما في أيام المسرور بهناته، المغرور بما سول له الشيطان وأملى له من ترهاته، المشهور بقتل أبيه، المأثور من مثالبه ومعايبه بما لم يأت الدهر له بشبيهه، ولقد طبقت الآفاق معاصيه، وبلغت أخبار خيانتته من بأطراف المعمور وأقاصيه، ولكن الله تعالى أملى له ليكثر مآثمه، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمة.

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه، ورحض عنها بأيدينا أوضار أدناسه وأنجاسه، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد، وأراح منه ومن شيعته البلاد والعباد، ولو لم يكن إلا ما نال الحجا من تعنيه وتعيديه، وطال عليهم من تعرضه لهم وتصديده، حتى حجز عن الحجاز الشريف قصاده، وحجر بقطع السبيل عن بيت الله الحرام من أراده، فكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج،

وفرق فريقهم وعوق طريقهم. والآن بحمد الله حقت الحقائق، وارتفعت العوائق، وصح العليل، ووضح السبيل، وتسهل المرام، وتيسر القصد إلى البيت الحرام، مكان ترده الزوار عليكم أرسالا، ووفود الأبرار للسلم خفافا وثقالا، يأتون من كل فج عميق، ويقضون ما يقضون من مناسكهم، آمنين في مسالكهم إلى البيت العتيق، وهكذا أيضا خلا وجهنا لجهاد الروم، ولإعداد من يغزونها في عقر دارهم للقصد المروم، وأن نجدد من هذا العمل بجزيرة الأندلس حماها الله تعالى ما لسلفنا بها سلف، ونبدد من شمل عباد الصليب ما يخلفهم بفضل الله تعالى خير خلف، فعمل الجهاد بهذه البلاد هو الفضيلة التي لنا الله سبحانه ذخرها، والحسنة التي في صحائف أعمالنا سطرها، وبجيوشنا المنصورة عز دين الإسلام بهذا المغرب الغريب، وبسيوفنا المشكورة والله المشكور ذل بها الصليب، أوزعنا الله تعالى شكر آلائه، وأمتعنا بتواتر نعمائه، بمنه وفضله.

وأهنيأ لعلمكم الكريم هذه الأنباء السارة والآلاء الدائرة، لما ذكرتم من تشوفكم لاستطلاعها، وسطرتم من تشوقكم لاستماعها، ولعلمنا أنكم تسرون بقطع دابر الباغين، وتستبشرون بحسم أدواء الطاغين، وتوثرون الإخبار بائتلاف الكلمة على أعداء الله الكافرين إيثار الحامدين لفعل الله تعالى في إظهار دينه للشاكرين. لازلتم تشرع نحوكم البشائر، وتفرع بذكركم المنابر، وترفع لاجتلاء آثار أمركم الستائر، واستجلاء أخبار سيركم الباهرة النواظر، وتجمع لسجايكم السنية العلاء، ومزايكم العلية السناء، وثواقب المناقب وقول خير المفاخر، إن شاء الله، والسلام الأتم، الأضوع الأتم، يخص إخوانكم الأوفى، ورحمة الله وبركاته"³.

³ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص 87 وما يليها.

الملحق رقم 08: وثيقة وقف مدرسة أيتمش البجاسي

" فأما المدرسة المذكورة أولاً في هذا الكتاب فإنه وقف الإيوان القبلي الذي يصدره المحراب مسجداً لله تعالى وبيتنا من بيوته قيام فيه الصلوات ويعتكف فيه على العبادات ويتلى فيه كتاب الله العظيم وحديث نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم ويشغل فيه بالعلم الشريف وإفادته واستفادته ودراسته وجعل التطرق إليه من الباب الكبير المقدم ذكره في الواجهة المذكورة ودور القاعة وأما الخزانة التي بها الرفوف بالإيوان المذكور فإنه وقفها لحفظ ما لعله يكون بهذه المدرسة من ربعات شريفات وختم كريمات وكتب تفسير وحديث، وقفه وغير ذلك من الكتب على جاری العادة في مثل ذلك وأما الطباق الثلاث، المذكورات المتوصل إليها من الإيوان المذكور فإنه وقفها لسكنى من يعينه الناظر من المشايخ، والطلبة فأرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة وأما المئذنة فإنه وقفها ليعلى عليها، بالأذان للصلوات الخمس والأذكار في أوقات الأسحار على جاری العادة في مثل ذلك وأما القبّة التي يتوصل إليها من دور القاعة المذكورة فإنه جعل الفسقية التي بها مرصده لدفنه ودفن أولاده وأولاد أولاده وذريته ومن يختار دفنه فيه من الأموات وأما الشباك الذي كان اللذان بها فإنه جعلهما ليجلس فيهما ويتلى فيهما القرآن العظيم في أوقات الصلوات وغير ذلك، و ينتفع بهما الانتفاع بمثلهما بمثل ذلك على الوجه الشرعي. وأما دور القاعة المقدم ذكرها والفسقية التي بها فإنها تكون وقفاً على جميع المسلمين المترددين والواردين لهذه المدرسة والمقيمين بها، ينتفعون بذلك انتفاع مثلهم بمثل ذلك على العادة في ذلك وأما الخزانة التي بدور القاعة المذكورة فيه، فإنها تكون وقفاً لحف ما لعله يكون بهذه المدرسة من آلات وبغال وغير ذلك على ما يراه الناظر، وأما الحاصل المجاور للسلم المذكور فإنه وقفه لحفظ ما لعله يكون لهذه المدرسة من الآلات والبسط وغير ذلك، وأما المرحاض المذكور فإنه سبله لجميع المسلمين والواردين لهذه

المدرسة والقاطنين بها، وأمّا باب السر المذكور فإنّه وقف ليتطرق منه إلى المدرسة المذكورة وإلى الطبقتين المجاورتين له الآتي ذكرهما فيه، وأمّا الطبقتين المذكورتان فيه المتوصل إليهما من السلم المذكور فإنّهما مرصدتان لسكن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ العالم الكامل الفاضل، شمس الدين صدر المدرسين مفيد الطالبين أبي عبد الله محمد الأقصري الحنفي عاد الله تعالى من بركاته، و أجاب صالح دعواته ينتفع بالسكن في هذا ما دام مدرسا بالمدرسة المذكورة ثمّ من بعده لمن يكون مدرسا عوضا عنه مدرسا بعد مدرس على العادة في مثل ذلك. وأمّا المكان المعروف بالسبيل فإنّه وقفه ليسبل الماء على الناس أجمعين والاستقرار ما لعلّه يكون به من آلات الاستقاء من أزيار، و كيزان و أباريق غير ذلك على العادة في مثل ذلك".

ثمّ في موضع آخر من الوثيقة يتحدث عمّا قرّره الواقف من وظائف مدرسته بما نصّه: " ورتّب الناظر في هذا الوقف المذكور بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة المحروسة المشار إليها أعلاه... مدرسين من أهل الخير عارفين بالعلوم الشرعية ومقدماتها عالين بالعلوم العربية ومشكلاهما متكلمين بلسان العربي والعجمي والتركي فإن لم يكونوا متكلمين باللسان العربي والعجمي والتركي فباللسان العربي وأحد اللسانين المذكورين... فيه ورتب معهما معيدين وأربعة عشر من الطلبة المذكورين فيه بالإيوان الذي بالمدرسة المذكورة فيه الذي صيره مسجدا في الأيام التي جرت العادة بالاشتغال بالدروس فيها فيما بين طلوع الشمس و للزوال مقدار ما بين الظهر والعصر من كلّ زمان خلا أيام الجمعة والاثنين والثلاثاء كلّ جمعة، والأيام التي جرت العادة ببطالة الدروس فيها على أن يستفتح المدرس و المعهد و الطلبة، المذكورين فيه بقراءة سورة البقرة وتبارك الذي بيده الملك ثم يقرأ أحدهم ما تيسر له قراءته من كتاب الله العظيم رافعا صوته و يدعو عقب القراءة لمولانا السلطان الملك الظاهر. خلد الله ملكه وأدام دولته والواقف المشار إليه فيه ولجميع المسلمين ثم يقرأ عليه بعد ذلك من تأهل القراءة ما يختار من وفقه مدرسة وأصول ومن العلوم الشرعية والأحاديث النبويّة وغير ذلك على جاري العادة في مثالا ذلك، ويحلّ له الشيخ ما يظهر له من كشف غامض وحلّ مشكل ويبحث من تأهل للبحث على العادة في مثل ذلك ويسلك المدرس معهم في ذلك الإفادة والتعليم على العادة و على المعيد أن يجلس بعد فراغ الدرس أو قبله ويقرأ عليه ما يختار القراءة، من الطلبة المذكورين ما أحب قراءته ويبين المعيد المذكور له ما أشكل عليه من شرح فيمده بمواد علومه الذي وصلت إليه، والمدرس الثاني يجلس، هو ومعيد واحد وأربعة عشر من الطلبة المذكورين بالإيوان المذكور فيه من بعد أذان الظهر إلى وقت العصر ويفعل المدرس و المعيد والطلبة كما شرط في الدرس الأوّل ورتب الناظر رجلا من أهل الخير نقيبا بالدرسين

المذكورين فيه على أن يتولى ضبط الغيبة و تفريق الربرة بعد صلاة العصر عند حضور الشيخين والطلبة والمعيدين وظيفه التصوف بالمدرسة المذكورة على الجاري العادة في مثل ذلك ويصرف له في كل شهر ما مبلغه ثلاثون درهما ويقرر الناظر رجلا حسن الصوت حافظا لكتاب الله تعالى و مديح نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يحضر كل يوم بعد صلاة العصر وظيفه التصوف مع الشيخ أو الطلبة المذكورين ويفعل ما يذكر فيه ويصرف له في كل شهر ثلاثون درهما، و شرط مولانا الواقف المذكور وقاه الله كل محذور أن يجتمع المعيدان والمدرسان، والطلبة المذكورين فيه في كل يوم بعد صلاة العصر بالمدرسة المذكور فيه، ويجلس الإمام العالم شمس الدين محمد الأقصري المشار إليه فيه بالمحراب الذي بالإيوان المذكور، ويجلس الشيخ الثاني إلى جانبه والمعيدين والطلبة المذكورون حوله ويفرق النقيب المقدم ذكره أجزاء الربرة الشريفة فيبدأ الشيخ شمس الدين محمد المذكور فيه ثم من يليه ويقرأ كل منهم جزءا كاملا من تجزئة ثلاثين جزءا ويقرؤون عقب ذلك سورة الإخلاص و المعوذتين و فاتحة الكتاب، ثم يقرأ القارئ المادح المقدم ذكره عشر من القرآن العظيم... صوته ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم عقب ذلك ثم يدعو لمولانا السلطان الملك الظاهر، ولواقف المذكور ولذريتهما ولجميع المسلمين ورتب الناظر رجلا من أهل الخير والدين من القراء الحافظين لكتاب الله المتقنين لقراءته الجامعين لروايته ومعناه على أن يجلس لتلقين القرآن العظيم بالمدرسة المذكورة في يوم في الوقت الذي يعينه الناظر له لمن عسا يحضر إليه راغبا في تلقين القرآن العظيم و حفظه فيلقنه من يحتمل تلقينه من كتاب الله تعالى على العادة في مثل ذلك. ورتب الناظر في هذا الوقف رجلين من أهل الخير والدين أحدهما يكون عالم تفسير القرآن العظيم، وعلم العربية حافظا لحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتونه و طرق إسناده وحسنه، وغريبه شيخا متصدرا والثاني حسن الصوت علي بقراءة المواعيد، على أن يجلس الشيخ المذكور بالمدرسة المذكورة فيه ويجلس القارئ المذكور بين يديه في كل يوم اثنين وثلاثاء بعد صلاة الظهر ويقرأ القارئ المذكور ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم وتفسيره، ومن صحيح البخاري مسلم أو من أحدهما أو من شروحهما أو من الكتب الصحيحة ومن كتب الرقائق المعتمدة ومناقب الأبرار الصالحين ويحل الشيخ المذكور من ذلك ما أشكل على السامعين من تفسير وحديث أو غير ذلك على عادة، أمثاله في ذلك ويختتم القارئ بعد ذلك قراءته بسورة الإخلاص ثلاث مرّات والمعوذتين و فاتحة الكتاب وأوائل

سورة البقرة وأواخرها ويدعو عقب ذلك لمولانا السلطان الملك الظاهر، وللواقف المذكور ولذريتهما ولجميع المسلمين و يختم ذلك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم" ⁴.

الملحق رقم 10 وثيقة شروط الواقف الخاصة بالسكنى والتوظيف في العصر المملوكي

" وشرط الواقف أثابه الله تعالى الجنة وضاعف عليه المنّة أن يكون من هو ساكن بالخانقاه المذكورة، عازبا غير متزوج بحيث لا تدنس بسكنى الخيض إلاّ الشيخ خاصة فإنّه يرخص له بالسكنى بزوجه للضرورة، وشرط على أرباب البيوت بها الإقامة والمبيت بها ويسامح كلّ منهم بالمبيت خارج الخانقات لخمس ليالي في كلّ شهر وأن لا يعطي لأحد بيت بالخانقات بعد تكفية المجردين كما ذكر أعلاه ولا يعطي لأحد غير أهل الخانقات بها إلاّ أن لا يوجد له ساكن من أهلها، فحينئذ يعطى لمن يكون من أهل الخير والديانة والصيانة من أهل الصوفية و يصير مترددا للخانقات بشرط المبيت والعزوبة ويقدم بالتريل في أوّل وظيفة شغلت بالخانقات، بما يوجد فيها شروطها ولا يجمع لأحديها بين بيتين ومن أراد التزويج ممن معه بيت بها أخذ منه وأعطى لمن شرط فيه الشروط المتقدّمة ومن أراد من المتجردين الانتقال إلى وظيفة طلب علم أو غيرها وكان في جماعة الطلبة أو غيرها ممن هو متصف بصفات المتجردين وتراضى هو الآخر على ذلك نقل أحدهما مكان الآخر وإذا انتهى أحد من قراء السبع في علم القرآن، خرج من الطلب المذكور وقرّر صوفيا ونزل مكانه غيره من أرباب

⁴ - عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية، ص 474 - 477.

الوظائف بالخانقات وأن لا يجمع لأحد من أهلها والمترلين في وظيفة بها بين وظيفتين بها، ولما بغيرها يتعارض في وقت واحد يحصل الخلل في أحد منهما للاشتغال في الأخرى إلا من قرره الواقف وشرط أيضا إذا نزل أحد عن وظيفة بالخانقات المذكورة لأحد فلا يقر الناظر النازل ولا المترول له بل يستدل بهما وإن مات من الشيخ والمتصدرين بها وشيخ القراء والإمام أو رغب عن وظيفته لها أو قطع لصانع شرعي وكان أحد من الطلبة المترل بالخانقات المذكورة أهلا لتلك الوظيفة التي شغرت فيترله الناظر فيها بشرط أن يكون متصفا بصفات من كان بها ولا يقدم عليه غيره إلا من هو أفضل منه ، أكثر نفعا عربيا كان أو عجميا مصريا كان أو آفاقيا وإن استوي في الأهلية أكثر منهما قدم الأمل الأنفع فإن استووا في ذلك أقرع بينهم فا لم يوجد أهل الخانقات من يصلح فمن غير أهلها ممن هو متأهل لتلك الوظيفة التي تصل فيها الخلل بغيبته عنها استناب في وظيفته من يسدها عنه إلى حين منضوره وأجرى عليه معلومه وإن لم تكن الوظيفة يحصل بغيبته فيها خلل إن الطالب والصوفي وغير ذلك. فإن كان لسفر الحج الفريضة أجرى عليه علمه إلى حين حضوره وإن كان لحج تطوع أو مجاوره وفر معلومه يستمر على وظيفته إلى حين حضوره فتحرى عليه ويستقر مكانه، ويفسخ لكل من أرباب الوظائف والمترلين بالخانقات المذكورة مدة المجاورة وهي سنة كاملة وثلاثة أشهر فإن زادت غيبة أحدهم على ذلك قطع ونزل غيره كل ذلك في طائفة المجردين فإن شرطهم قد تقدم ومن سافر لغير الحج ممن تقدم فإن كان سفره لزيارة أهل وأقارب فيسمح له بالسفر مدة ثلاثة أشهر ولا يصرف فيها، معلوم مدة غيبته فإن حضر عاد إلى حاله فإن زادت غيبته على ثلاثة أشهر قطع ونزل غيره وهذا الحكم فيمن لا وظيفة له يتعطل بغيبته، فإن عقب في السفر المذكور أحد ممن تتعطل وظيفته بغيبته أو يحصل منها خلل، فسح له في الإستنابة لمن يسد وظيفته عنه مع استمرار معلومه مدة سنة أشهر فإن زادت غيبته على ذلك قطع ونزل غيره وإن كان السفر وزيارة الأهل والأقارب فسح له في ذلك مدة عشر أيام ثم يقطع كل ذلك فإن حق المذكورين خلا طائفة المجردين فإن شرطهم تقدم وخلا المتصدرين أن من شرطهم تقدم ومنه ما يأتي نيابة وهو أنه من غاب من المتصدرين للخانقات المذكورة لسفر حج أو زيارة أهل أو أقارب أو لتعاهد بقعة شريفة يستنيب عنه من يقوم بوظيفته، و يسدها على الوجه الشرعي إلى حين حضوره بحيث لا تزيد غيبته على مدة سفر الحج أو مدة المجاورة إن كان مجاورا وإن زادت على ذلك لغير عذر شرعي قطع ونزل غيره مكانه، وشرط أيضا أن المتصدرين و شيخ القراءة والحديث ومدرس الشافعية يلازمون الاشتغال بالخانقات المذكورة. في كل يوم خلا الثلاثاء و يوم الجمعة من كل أسبوع و خلا شهر شعبان و شهر رمضان و غرة شوال و غرة ذي الحجة و يوم عاشوراء و أيام التشريق و الأعياد من كل سنة و أيام المطر للخوف من...

وشدة الريح و البرد و خلا شيخ الحديث فإنه يسمع الحديث في الأشهر الثلاثة كما تقدّم و أن يسمح المتصدرون و طلبة العلم و الصوفية طيلة ثلاثة أيام متفرقة في كلّ شهر سواء غاب أحدهم عن وظيفته أو أكثر فإن زادت غيبته على ذلك حوسب بالغيبة و إن كانت الغيبة عن وظيفة خاصّة مثال درس أو أذان قطع نظير ذلك ممّا يقابل الوظيفة المذكورة من الدروس و إن كان من التصوف قطع ما يقابله من الخبز و غيره، و إن كان عن المجموع قطع ما يقابل ذلك كلّ و وفر للخانقات و من كثرت غيبته لغير عذر و زادت على عشرة أيام في كلّ شهر و ثلاثة أشهر في سنة واحدة قطعه الناظر و نزل غيره، و كلّ ذلك خلا الفراشين والقومة و الإمام و المؤذنين و الرئيسين و السقاء و كاتب الغيبة و النواب و قراء السبع و الشباك و قراءه الصفة و المادح فإن من غاب منهم يستنوب مدة العشرة أيام فإن زادت غيبته عن العشرة أيام المذكورة بغير سفر و لا مرض قطع أيضا كذلك يستنوب كلّ من خادّم الكتب و خدام الربعات و خادّم السجادات المدة التي فسح لهم فيها و يجري عليه المعلوم إلى حين عودة ما لم يتعد بزيادة الغيبة عمّا عيّن له أعلاه و شرط أيضا أن يتزل بإحدى الخانقات المذكورة في وظيفة و لا يعطى بها بيتا بجاه و لا بشفاعة و لا بذي قوّة شوكة و أن يتزل بها أحد من الصوفيّة من الشهود المكتتبين بحوانيت الشهود و لا أن يكون مباشرا عند الأمراء فإن.... واحد من هؤلاء التزليل بها ترك ما يمنعه عن ذلك و نزل إن كان صالحا لما.... و كانت الوظيفة شاغرة كلّ ذلك فيما يتعلّق بوظيفة الطلب و التصوّف و الملزم الحضور في الوظيفة لا تتعارض الوظيفتان فإن لم يتعارضاً وكان المتزل بالخانقات مستحقا نزل و أما بقية أرباب الوظائف بها فلا يمنعون عن ذلك، إلّا أن يحصل تعارض في وقت واحد و يحصل خلل أو نقص عمل في الوظيفة التي بالخانقات أو توقع تعارض منعوا من ذلك و شرط أيضا ألا يتزل بها شرير أو من يكثر الخصومات، و لا من هو معروف بالسلطة و الافتراء على الناس والكذب"⁵.

⁵ - عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص 478-480.

قائمة السليم غرافيا

❖ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أولاً- المصادر المطبوعة:

1. ابن أبي الزرع. أبو الحسن علي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
2. ابن اسحق. خليل ، مختصر العلامة خليل ، تعليق: أحمد نصر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1981.
3. ابن الأثير . عز الدين أبو الحسن الجزري، الكامل في التاريخ ، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.
4. (_____ ،
_____)، نكت الهميان
في نكت العميان، دار المدينة، مصر، 1911.
5. ابن الأحمر. إسماعيل ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، المطبعة الملكية، الرباط 1962.
6. ابن الحاجب. أبو عمرو عثمان ، شرح الوافية نظم الكافية ، تح: موسى العليلى، مطبعة الآداب، النجف، 1980.
7. ابن الخطيب. لسان الدين ، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب ، تح: عبد العزيز الأهواني وآخرون، دار الكتاب العربي، القاهرة.
8. (_____ ،
_____)، إعمال الأعلام
فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من كلام ، تح: سيد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
9. ابن العربي. أبو بكر، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، تح: عمار طالي، الجزائر 1974.
10. ابن القاضي. أحمد المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط.

11.) _____ ،
أسماء الرجال، تح: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث القاهرة 1970.
12. ابن الملقن. عمر بن علي، طبقات الأولياء، تح: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973.
13. ابن الوردي. عمر بن المظفر، تاريخ ابن الوردي، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
14. ابن الوردي. عمر بن المظفر، تنمة المختصر، ج 2، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969.
15. ابن أبياس الحنفي، المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة الأسرة، القاهرة.
16. ابن بطوطة. محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، 1996.
17. ابن تغري بردي. أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972.
18.) _____ ،
المنهل الصافي،
والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، ط 2، ج 6، دار الكتب، القاهرة، 1990.
19. ابن جبير. أبو الحسين محمد، رحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987.
20. ابن جماعة. بدر الدين، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، ط 2، تح: محي الدين عبد الرحمان، دار الفكر دمشق، 1986.
21. ابن حجر العسقلاني. شهاب الدين أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تر: محمد سيد جاد الحق، ج 1، مطبعة المدني، القاهرة، 1966.

22.) _____ ،
إنباء ال عمر
بأنباء العمر، تح: حسن حبشي، ج6، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1969.
23.) _____ ،
رفع الإصر عن
قضاة مصر، مكتبة الخانجي، 1988.
24.) _____ ،
فتح الباري في
شرح صحيح البخاري، تر: محب الدين الخطيب، ج1، دار الكتب السلفية.
25. ابن دقماق. إبراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها ،
منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.
26. ابن رشيد السبتي. محمد بن عمر، ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الجبهة إلى الحرمين مكة
وطيبة، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ج3، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1982.
27. ابن زكري. أبو العباس أحمد ، غاية المرام في شرح مقدمة الإمام ، تح: محمد أويدير مشنان،
دار التراث.
28. ابن سحنون. محمد ، آداب المعلمين ، تح: محمد عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
29. ابن شاعر الكتي. صلاح الدين محمد ، فوات الوفيات ، تح: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة
المصرية، القاهرة، 1951.
30. ابن شداد بهاء الدين ، الأنوار السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين ، تح: جمال
الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.
31. ابن طباطبا. أبو الحسن محمد، الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية ، تح: عبد
القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، 1997.
32. ابن عبدون. محمد، رسالة في الحسبة ، تح: ليفي بروفنسال ، نشر بالجلد الآسيوية، 1934.

33. ابن عجيبة. أحمد ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ج1 ، المطبعة الجمالية، مصر، 1913.
34. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، ط2، تح: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، 1967.
35. ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج8 ، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
36. ابن فرحون. إبراهيم بن علي ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تر: محمد الأحمد أبو النور، ج2، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
37. ابن قدامة. أحمد المقدسي، مختصر منهاج القاصدين ، المكتب الإسلامي، بيروت، 1394هـ.
38. ابن قنفذ القسنطيني. أبو العباس أحمد بن الحسن ، الوفيات، تح: هنري بيرس، المطبعة الثعلبية، الجزائر.
39.) _____ ،
_____، الفارسية في
مبادئ الدولة الحفصية ، تح: محمد الشاذلي النيفر وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
40.) _____ ،
_____، أنس الفقير
وعز الحقير ، نشره وصححه : محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1965م.
41. ابن كثير . أبو الفداء إسماعيل الدمشقي ، البداية والنهاية ، ط 6، ج 13، مكتبة المعارف، بيروت، 1985.
42. ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

43. ابن مريم. أبو عبد الله ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، نشر: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986 شرون، الجزائر، 2005.
44. ابن منظور. محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
45. أبو شامة المقدسي ، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تح: أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992.
46. الأصفهاني. عماد الدين ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، المطبعة الخيرية، مصر 1322 هـ.
47. ابن العميد. المكين جرجس، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).
48. ابن خلدون. عبد الرحمن ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا و غربا ، تح: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951.
49.) _____ ،
العبر وديوان (_____،
المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981.
50.) _____ ،
(_____ ، المقدمة، دار
الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2004.
51.) _____ ،
(_____ ، شفاء السائل
لتهذيب المسائل ، تح: الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959.
52. ابن خلدون. يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تح: عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980.
53. البوصيري. محمد بن سعيد ، ديوان البوصيري، دار المعرفة ، بيروت، 2007.

54. بيرس الداودار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تح: زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001.
55.) _____ ،
- في تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ، تح: عبد الصمد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1993.
56. البيذق. أبو بكر علي الصنهاجي ، أخبار المهدي بن تومرت ، تح: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
57. تقي الدين الفاسي . أبو الطيب المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج2، مكتبة النهضة الحديثة - دار إحياء الكتب العربية، مكة المكرمة، 1956.
58. التمبكي أحمد بابا، نيل الإبتهاج بتطريز البياج ، تح: علي عمر، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، 2004.
59. التّنسي. محمد بن عبد الله ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، تح: محمود بوعباد، الجزائر، 1985.
60. الجبرتي. عبد الرحمان ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، المطبعة العامرية، مصر، 1322 هـ.
61. الجزنائي. علي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، المطبعة الملكية، 1991، ص 76-77.
62. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون ، ج2، استانبول، 1941، ص1284.
63. الحموي. محمد بن علي بن نظيف ، التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح : أبو العيد دودو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

64. الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث ، تح: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1375هـ.
65.) _____ ،
- الرواية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
66. الدرجيني. أبو العباس ، طبقات المشايخ بالمغرب ، تح: ابراهيم طلاي، ج 2، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974.
67. الذهبي. شمس الدين ، سير أعلام النبلاء ، ج 16، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1997.
68. الزركشي. أبو عبد الله ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تح: محمد ماض ور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
69. السبكي. تاج الدين ، معيد التعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1986.
70. السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة، بيروت.
71.) _____ ،
- وجيز الكلام
- في الذيل على دول الإسلام ، تح: بشار عواد، وآخرون، ج 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995.
72. السلاوي. الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج 3، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955.
73. السملالي. العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكز وأغامت من الإعلام ، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ج 2، ط 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1993.

74. السيوطي. جلال الدين ، الإتيقان في علوم القرآن ، ج 1، تح: سعيد المندوه، دار الفكر، بيروت، 1996.
75. (_____ ، _____)
- في علم الحديث، تصحيح وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الرجاء، الجزائر، 1934.
76. (_____ ، _____)
- طبقات اللغويين والنحاة ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، حلب، 1964.
77. (_____ ، _____)
- تاريخ الخلفاء ، (_____ ، _____)
- تح: أحمد إبراهيم زهودة، سعيد بن أحمد العيد روسي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.
78. (_____ ، _____)
- حسن المحاضرة (_____ ، _____)
- في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1968.
79. الشافعي. محمد بن ادريس ، ديوان الإمام الشافعي، دار المعرفة، الجزائر.
80. الشعراي. عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى المسماة لواقع الأنوار في طبقات الأخيار ، ج 1، المطبعة العامرية، القاهرة، 1315هـ.
81. الشوكاني. محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، مطبعة السعادة، القاهرة، 1929.
82. الصفدي. صلاح الدين خليل بن أبيك ، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تح: زهير حميدان، وسعيد خلوصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991.

83. الصّفيدي. صلاح الدّين خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وآخرون، دار إحياء التّراث العربي.
84. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006.
85. العبدري. أبو عبد الله محمد، الرحلة المغربية، تح: سعد بوفلاقة، ط 1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.
86. العيني. بدر الدين، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تر: محمد محمد أمين، ج 4، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1987.
87. الغريبي. أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
88. الغزالي. أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعارف، بيروت.
89.) _____ (، المستصفي من
- علم الأصول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1937.
90. القلصادي. أبو الحسن، رحلة القلصادي تمهيد الطالب ومنتهى للرّغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تح: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.
91. القلقشندي. شهاب الدين أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1985.
92.) _____ (،
- معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، ط 3، دار الكتاب اللبناني، 1991.
93. المالكي. أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، تح: بشير بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.

94. محمد ابن تومرت ، أعز ما يطلب ، تح: عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
95. مخلوف. محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349 هـ.
96. المسعودي. أبو الحسن علي، مروج الذهب و معادن الجوهر ، تح: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، 2003.
97. المقرئ. أبو العباس أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، 1998.
98. المقرئ. تقي الدين ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تر: مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1972.
99.) _____ ،
المواعظ _____ ،
والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية ، ج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987.
100.) _____ ،
درر العقود _____ ،
الفريدة في تراجم الأعيان الفريدة، تح: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، 2002.
101.) _____ ،
_____ ،
كتاب المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
102. مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تح: سهيل زكار، عبد القادر، دار الرشد الحديثة، المغرب، 1979.

103. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
104. مؤلف مجهول، الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرينية ، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
105. التويري. شهاب الدين أحمد ، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية، تح: عزيز عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1970.
106.) _____ ،
_____ ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تر: سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 27، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.
107. الوزان. الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
108. ولي الدين العراقي، الذّيل على العبر في خبر من عبر ، تح: صالح محمدي عباس، القسم الأول، مؤسسة الرسالة، 1989.
109. الونشريسي. أبو العباس أحمد ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

ثانيا- المراجع العربية:

1. إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين ، ج 2، دار الرّشاد الحديثة، دار البيضاء.
2. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ط 3، دار الثقافة، القاهرة، 1979.
3. أبي الحسن علي الحسن الندوي، أعلام المسلمين ومشاهيرهم ، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، بيروت، 2002.

4. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط 10، دار الكتاب العربي، بيروت.
5. أحمد شلي، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1973.
6. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي بيروت 1981.
7. أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، ج 1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1927.
8. أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام، دار النهضة
9. أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1976.
10. (_____)،
(_____)، في التاريخ المملوكي و الأيوبي،
مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000.
11. أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكة التاريخ السياسي و الاقتصادي، ط 2، دار العدالة، بيروت، 1982.
12. أنور زقطة، الممالك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
13. بسام العسلي، المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ط 6، دار النفائس، 1986.
14. بن قربة صالح وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، ط 1، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، 2007.
15. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط 14، ج 4، دار الجيل، بيروت، 1996.
16. (_____)،
(_____)، تاريخ الدولة الفاطمية، ط 2،
مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1958—

17. حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة ، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1993.
18. حسين محمد سليمان ، التراث العربي الإسلامي دراسة تاريخية مقارنة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.
19. حميدي خميس، نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط، اتجاهاته، مدارس وأعلامه ، عالم الكتب الحديث، الأردن.
20. خطيف صابرة، فقهاء تلمسان والسلطة الزيدانية ، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
21. الزركلي. خير الدين، الأعلام قاموس تراجم ، دار العلم للملايين، بيروت، 1969.
22. زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 2004.
23. زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي، بيروت 1981.
24. ستيفن رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية ، تر: الباز العربي، دار الثقافة، بيروت، 1954.
25. سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962.
26. () ، _____
- والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.
27. سيد الباز العربي، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت.
28. سيد النشار ، تاريخ المكتبات بمصر العصر المملوكي ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993.
29. شارل أنريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية ، تر: محمد مزالي، وبشرى سلامة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969.

30. شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2000.
31. صبحي الصالح ، علوم الحديث ومصطلحه، ط12، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.
32. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
33. عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983.
34. عاصم محمد رزق، الخانقاوات الصوفية بمصر في العصر الأيوبي والمملوكي ، ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997.
35. عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته ، دار الهدى، الجزائر، 2008.
36. عبد الحكيم عبد اللطيف الصعدي، الرحلة في الإسلام ، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، 1996.
37. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الثاني (حياته وآثاره) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
38. عبد العزيز بن عبد الله الحمدي، التاريخ الاسلامي مواقف وعبر ، ج4، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1998.
39. عبد العزيز فيلاي ، تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002.
40. عبد الغني قاسم عبد الحكيم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999.
41. عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
42. عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب ، دار نشر المعرفة، الرباط.
43. علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، دار طلاس للدراسات والنشر، 1989.

44. علي رحومة سحبون، الآبلي نابغة المغرب الكبير وأستاذ ابن خلدون (681 - 757هـ)،
دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009
45. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1966.
46. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، تر: محمود فهمي حجازي، ج 2، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة، 1978.
47. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، 1970.
48. فوزي أمين،
49. لوي كردياك، المورسكيون والمسيحيون، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية
المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
50. محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربي.
51. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ط3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء
2000.
52. محمد جعفري بك، تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية، ط4، القاهرة، 1934.
53. محمد سهيل طقوش، تاريخ الممالك في مصر و الشام، دار النفائس، بيروت، 2002.
54. (_____)، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار
النفائس، بيروت، 2002.
55. محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
56. محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار
الوفاء، الإسكندرية، 2000.
57. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب و الأندلس في العصر المريني 610 هـ - 869 هـ /
1213 م - 1465 م، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987.
58. محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، ط3، مطبعة مصر، القاهرة، 1934.
59. محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، 1934.

60. محمود السيد، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي ، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
61. منى بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، ج1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002.
62. منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، دار المريخ، الرياض، 1981.
63. ناصر حجي حياة، صورة من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1992.
64. وصفى أبو مغلي ، "مساهمة الحضارة والفكر الإسلاميين في مختلف مجالات العلوم والفنون"، الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، المجلد 2، بجاية 1974.
65. يوسف أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تر: محمد عبد الله عنان، ج 2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.

ثالثاً- المجلات والدوريات والمقتنيات:

1. أبو عمر محمد، نبذة عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من موقع: www.ajury.com
2. أحمد صادق سعد، "المغول"، مجلة آفاق عربيّة، ع 4 ديسمبر 1976.
3. إدريس عزوزي، "الكراسي العلميّة بجامعة القرويين أيام ازدهارها وإشعاعها الفكري"، مجلة الحضارة الإسلاميّة، ع1، أبريل 1993.
4. أشرف أبو اليزيد، "رحلة الحج رحلات الحمل الشريف"، مجلة العربي، ع 566، يناير 2006.
5. أولاد ضياف رابح ، نشأة المدارس في الإسلام (المدرسة النظامية نموذجاً) ، مجلّة الآداب والحضارة الإسلامية، ع15، 2013، إصدارات جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة..
6. بورويّة رشيد، جولة عبر مساجد تلمسان ، مجلة الأصالة، ع26، الجزائر، 1975.

7. حرماش محمد، نظام التعليم بالقرويين بين القديم والحديث، قراءة في الإصطلاحات التربوية ، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، أبريل 1993.
8. رشيد الزوادي، "التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، أبريل 1993.
9. سعيد محمد رعد، "دور بجاية الحمادية في تكوين نظرية ابن خلدون التاريخية العمرانية عن العمران البشري، وأثر ذلك في تاريخ الفكر الإسلامي"، الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية، 1974.
10. الصمدي خالد، مجالس الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري ، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، المعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية، وهران، 1993.
11. عبد العزيز بن راشد السنيدي، "انجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية"، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ.
12. قاسم عبده قاسم، "المقريزي"، مجلة العربي، ع 566، يناير 2006.
13. لعرج عبد العزيز، المدارس الإسلامية:دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها ، مجلة دراسات إنسانية، العدد 01، السنة 1421هـ/2001م، إصدارات كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر.
14. محمد مرسي محمد، صلاح الدين وإستراتيجية تحرير بيت المقدس ، مجلة الهداية، العدد 292، السنة 25، وزارة العدل والشؤون الإسلامية، البحرين.
15. المكي قلاينة، "التعديل عند ابن حزم"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، أبريل 1993.

رابعا- المذكرات والرسائل الجامعية:

1. أحمد بن خيرة، دور المغاربة والأندلسيين في الحروب الصليبية ما بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر-2، 2011.
2. نجيب بن خيرة، الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خرسان وبلاد ما وراء النهر) بين القرنين الثالث والخامس الهجريين 205-432 هـ/820-1040 م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، 2004.
3. بوزيدي أحمد، العلماء السلطة والمجتمع بالمغرب المريني، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر الميزان، فاس، 2008.
4. رابح مغراوي، منهج ابن الخطيب في التأريخ للمشرق من خلال تحقيق الجزء الأول من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام، دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2000.
5. زكري لامة، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تتين الصلات الثقافية خلال القرنين 7هـ-9هـ/13م-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2010.
6. سي عبد القادر عمر، العلاقات الثقافية بين الأندلس ودولة الممالك بين القرنين السابع والتاسع هجريين 7-9 هـ/13-15 م، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ابوبكر بلقايد، 2010.
7. عبد الرحمن بالأعرج، علاقات دول المغرب الاسلامي بدولة الممالك سياسيا و ثقافيا بين القرنين السابع والتاسع هجريين 7-9 هـ/13-15 م، رسالة دكتوراه في المغرب الإسلامي، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2013.
8. لخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط خلال عهد بني زيان، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005.

9. محمد بوشقيف، تطور العلوم بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14م-15م)، رسالة دكتوراه في المغرب الإسلامي، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2011.
10. مكيوي محمد، العلاقات السياسية والفكرية المغربية للدولة الزيانية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول 633هـ-737هـ/1236م-1337م، رسالة دكتوراه في المغرب الإسلامي، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2008.
11. عبد الله محمد راجح، علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الأزهر، 1983.
12. هشام بن سالم، العلماء والسلطة المرينية 668هـ-759هـ/1268م-1358م، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر - 2، 2015.
13. هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا ، مذكرة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، 2008.
14. يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية و المملوكية 648هـ - 694هـ/1250م - 1296م ، رسالة ماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1995.

خامسا- المراجع باللغات الأجنبية:

1. Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, SNED, Alger, 1982.
2. G.MARÇAIS ; La berberie Musulmane et l orient au moyen age .
paris. 1946
3. Toynbee.A.la rousse encyclopedia of ancient and medieval history.
4. Louis Rinn, Marabouts et Khouans, Alger, 1884.

فهرس الموضوعات

شكر وعران

الإهداء

02	مقدمة
09	مدخل
09	1. وحدة الدين الإسلامي
10	2. رابطة الخلافة
	بالمشرق
12	3. رابطة الخطر
	المشترك
16	4. عامل
	الحج
17	الفصل الأول: الواقع السياسي للدولتين المرينية والمملوكية
18	أولا - الحالة السياسية للعالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري
20	ثانيا - التطور السياسي للدولة المرينية
20	1. أصل بني
	مرين
21	2. ظروف نشأة بني
	مرين
23	3. الصّراع المريني
	الموحددي
25	4. تأسيس الدولة
	المرينية
27	ثالثا - التطور السياسي للدولة المملوكية
27	1. مصر في عهد الأيوبيين
29	2. أصل المماليك
31	3. دولة المماليك
	البحرية
33	4. دولة المماليك

	البرجية.....
36	الفصل الثاني: مظاهر العلاقات السياسية بين المرينيين والمماليك
37	أولا - جذور العلاقات بين الدولة المرينية ودولة المماليك.....
39	ثانيا - العلاقات في عهد يوسف بن يعقوب المريني.....
39	1. سفارة سنة 700هـ/1301م.....
40	2. سفارة سنة 703هـ/1303م.....
42	3. نزول شريف مكة على السلطان يوسف سنة 704هـ/1304م.....
43	4. سفارة سنة 704هـ/1304م.....
44	5. السفارة المملوكية إلى بلاد المغرب سنة 705هـ/1305م.....
46	ثالثا - العلاقات في عهد أبو الحسن المريني.....
47	1. سفارة المرينية إلى القاهرة عام 736هـ/1336م.....
50	2. رسالتان من الملك الناصر إلى السلطان أبو الحسن مع وفد الحج.....
51	3. سفارة سنة 738هـ/1338م.....
54	4. سفارة سنة 745هـ/1345م.....
55	5. سفارة سنة 747هـ/1347م.....
57	رابعا - العلاقات في عهد أبو عنان فارس.....
58	خامسا - العلاقات في عهد أبو فارس عبد العزيز الأول.....
59	سادسا - العلاقات في عهد أبو العباس وابنه أبو عامر.....
60	سابعا - العلاقات في عهد أبو سعيد عثمان الثاني.....
62	الفصل الثالث: الأوضاع الثقافية في الدولتين المرينية والمملوكية
63	أولا - عناية سلاطين الدولتين بالحياة الثقافية.....
66	ثانيا - المؤسسات التعليمية.....
67	1. الجوامع و المساجد.....
74	2. الكتاتيب.....
76	3. المدارس.....

82	4. المكتبات.....
85	5. المنشآت الصوفية.....
89	ثالثا- التعليم وأصناف العلوم.....
89	1. التعليم.....
89	أ. مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائي.....
91	ب. التعليم.....
	العالسي.....
92	2. الحركة العلمية.....
	وأعلامها.....
92	أ. العلوم النقلية.....
93	ب. العلوم العقلية.....
الفصل الرابع: مظاهر الروابط الفكرية بين المريين والممالك	
97	أولا - الوحدة السنفة.....
101	ثانفا - تأثر طرق التدرفس.....
105	ثالثا - رحلة الحج.....
109	رابعا - الرحلة العلمية.....
117	خامسا - انتشار التصوف والطرق الصوففة.....
122	سادسا - الإجازة العلمية.....
124	سابعا- مجالس المناظرات العلمية.....
128	ثامنا- الكتب المعتمدة بفن المغاربة والمشاركة.....

135	الخاتمة.....
138	الملاحق.....
168	قائمة البيليوغرافيا.....
185	فهرس الموضوعات.....

ملخص:

تتم هذه الدراسة بالبحث في مظاهر العلاقات السياسية والروابط الفكرية بين الدولة المرينية بالمغرب الأقصى ودولة المماليك بالمشرق، وهذا خلال القرنين 7-8هـ / 13-14م. وتركز بالخصوص على آليات التواصل من مراسلات دبلوماسية وانتداب وفود ودور رحلات العلماء والحجاج في مدّ جسور التواصل بين النطاقيين الجغرافيين.

الكلمات المفتاحية:

المغرب الأقصى-المشرق - بنومرين - المماليك - العلاقات السياسية - العلاقات الفكرية- الرحلة.

Résumé :

Cette étude porte sur le suivi du développement des relations politiques et les liens culturels entre maroc islamiques et de l'état mamelouk au cours des 7-8 siècles AH / 13-14. Et se concentrer sur la correspondance et les voyages des savants et des pèlerins entre le maroc et Orient.

Mots-clés:

maroc - les relations politiques - la correspondance diplomatique - voyage scientifique - les Mamelouks.

Summary:

This study is concerned with tracking the development of political relations and cultural ties between morocco and the Mamluk state during the 7-8 centuries AH / 13-14. And focus on diplomatic correspondence and trips scholars and pilgrims between morocco and Orient.

Keywords:

marocco - political relations -diplomatic correspondence - the Scientific journey- the Mamluks.